أمراء حمص ودورهم في الصراعات التي نشبت في سورية (خلال القرنين الأول قبل الميلاد والأول بعد الميلاد)

الدكتور مأمون عبد الكريم

قسم الآثار

كلية الآداب

جامعة دمشق

كانت سورية ذات أهمية كبيرة خلال العصر الهلنسي حيث كانت تشكل قلب الدولة السلوقية وعاصمتها أنطاكية. وقد عاشت سورية الكثير من التطورات في ظلها، حيث بُني الكثير من المدن الجديدة على أرضها وأعيد بناء مدنها القديمة وفق مخططات شطرنجية وحملت هذه المدن أسماء جديدة ذات سمة يونانية مقدونية.

رافق هذه النهضة العمرانية تطورات اجتماعية واقتصادية وسياسية مهمة، غير أن مرحلة من الضعف بدأت مع القرن الثاني قبل الميلاد. وسبب ذلك يعود إلى الصراعات الأسرية التي نشبت في هذه الدولة، والتي أدى فقدانها إلى الكثير من ممتلكاتها لصالح بعض الأمراء المحليين الذين استغلوا بدورهم هذه الظروف لنيل استقلالهم، بينما سنحت الفرصة لبعضهم الآخر كالأمراء في منطقة حمص لإدارة البلاد إلى جانب السلوقيين[١].

إن المصادر الكتابية العائدة إلى العصرين الهلنسي والروماني المتعلقة بأمراء حمص ودورهم في تلك الصراعات قليلة جداً، ولا نملك إلا القليل من النصوص لبعض المؤرخين اليونان اللاتين التي تتحدث عن هؤلاء الأمراء، وعن دورهم في الصراعات التي نشبت في سورية خلال القرن الأول قبل الميلاد أو قبل ذلك.

لقد تحدث المؤرخ ديودورس الصقلي في نصوصه عن هؤلاء الأمراء ودورهم في الصراعات الأسرية للدولة السلوقية، وتحدث عن يمبليخوس الذي يعرف بأمير العرب[٢]، الذي أدّى دوراً هاماً في صراعات الدولة السلوقية ولاسيما بين اسكندر بالاس، وديمتروس نيكاتور، حيث عهد له اسكندر بالاس ١٥٧-١٥١ ق.م حماية ابنه انطيوخوس. وإثر انتصار ديمتروس، فإن ديودتوس الأفامي أحد معارضي ديمتروس طلب من يمبليخوس إعادة انطيوخوس له حتى يعيد له أملاك والده، ولكن ديودتوس الأفامي هزم وبذلك قتل ديمتريوس انطوخيوس الرابع في عام ١٤٣ ق.م[٣].

ازدادت الصراعات حدةً خلال السنوات اللاحقة، سواءً على الصعيد الداخلي، متمثلة بمحاولات الحكام المحليين الحصول على استقلالهم، أو التحديات الخارجية متمثلة بالخطر البارثي. وأدت هذه الأخطار والتحديات كلها إلى التفكيك السريع للمملكة السلوقية، وأدى ذلك إلى فقدان السلطة السياسية في عام ٨٣ ق.م، عندما استطاع الملك الارمني تيكران احتلال سورية[٤] والسيطرة على أجزاء مهمة من المنطقة الشمالية لبلاد الرافدين، وأجزاء من أذربيجان الحالية إضافة إلى كيليكية السورية[٥].

لم يصب الضعف في هذه الفترة السلوقيين فقط، فالبطالمة لم يشكلوا خطراً على المناطق الجنوبية من سورية منذ بداية القرن الأول قبل الميلاد، حيث اتجه الملك البطلمي بطليموس سوتر الثاني منذ ٨٩-٨٨ ق.م إلى ترتيب شؤون مملكته الداخلية[٦].

حتى الإمبراطورية البارثية، كانت تعاني من المشاكل الكثيرة خلال هذا القرن، ولاسيما غزوات شعوب يوتشي التي كانت تهدد حدودها الشرقية[٧].

هذا الضعف المتزامن للدولة السلوقية وللإمبراطورية البارثية، أعطى الملك تيكران دفعاً للسيطرة على المنطقة، لكن هذا النفوذ المتزايد كان يشكل تهديداً لمصالح روما التي ظهرت في هذه الفترة كقوة مهمة، حيث بدأ الرومان من جهتهم يتدخلون في شؤون المنطقة للدفاع عن مصالحهم، ولاسيما أنها كانت ومنذ فترة تحارب أعمال القرصنة في سواحل شرق المتوسط[٨]. لذلك، وضمن هذه الظروف، كلّف مجلس الشيوخ الروماني القائد لوكولوس لقيادة الحرب ضد تيكران الأرمني. واستطاع لوكولوس أثناء سيطرته على المنطقة أن ينتصر في عام ٦٩ ق.م على الملك تيكران وأن يطرده من أنطاكية. وهكذا وعد ولوكولوس الأمير السلوقي انطيوخيوس الثالث عشر بإعطائه عرش المملكة السلوقية. لكن هذا الأمير كان بحاجة إلى دعم محلي إلى قوة الأمير سمسجرام الحمصي، الذي ظهر في هذه الأحداث شخصية مهمة لها وزنها[٩].

ظهر في هذه الفترة أمير عربي آخر يسمى عزيز، كان يحكم منطقة حلب، وبدأ يتدخل في صراعات الدولة السلوقية. وقد أعطى دعمه لأمير سلوقي آخر هو فيليب الثاني خصم انطيوخيوس الثالث عشر. ولكن مع تطور الأحداث، فإن الأميرين سمسجرام وعزيز تخليا عن التحالفات مع أمراء السلوقيين، خاصة بعد علمهما بمجيء القائد الروماني بومبيوس إلى سورية[١٠].

أمراء منطقة حمص والحروب الأهلية في نهاية العصر الجمهوري الروماني

عندما تسلم القائد الروماني بومبيوس خلافة لوكولوس، كانت سورية تعاني من العديد من الصراعات ولاسيما بين أفراد الأسرة السلوقية، إضافة إلى القوة المتزايدة للحكام المحليين لذلك قرر بومبيوس في هذه الظروف التدخل بشؤون سورية.

لقد طلب الأمير السلوقي انطيوخوس الثالث عشر من بومبيوس تنفيذ الوعود التي أعطاها له لوكولوس حول إعادة أملاكه في سورية . لكن بومبيوس رفض ذلك، حيث اعتبره غير قادر على إدارة البلاد، خاصة وأنه اختفى في كيليكيا لمدة أربعة عشر عاماً، وأثناء ذلك تخلى عنه أيضاً حليفه سمسجرام الحمصي، الذي كان قد تدخل في المفاوضات لصالح انطيوخوس الثالث عشر. وفي النهاية كان الموت مصير هذا الأخير، وبذلك انتهى حكم الدولة السلوقية في سورية بشكل نهائي(١١).

بعد سيطرة بومبيوس على الدولة السلوقية بدأ بتنظيم شؤون سورية الداخلية. واحتفظت أغلب المدن السورية بالحكم الذاتي. لقد حصل سمسجرام على أملاكه في الرستن مثل بقية الأمراء الذين حصلوا أيضاً على أملاكهم. وسار بومبيوس بعد ذلك نحو البتراء لإخضاعها، ولكنه تلقى نبأ موت ميتريدات فترك قيادة الحملة لنائبه وعاد إلى إنطاكية(١٢).

نعلم من خلال دراسة النقوش الكتابية الحجرية والعملات المضروبة في سورية خلال هذه الفترة أن أغلب المدن السورية تبنت التقويم البومبائي منذ ٦٦ق.م، وهو تاريخ انتصار بومبيوس على الملك الأرمني تيكران. أما مدينة افاميا فقد عاقبها بومبيوس، وذلك لوقوفها إلى جانب تيكران، ولم تظهر عملتها إلا في السنة السابعة للتقويم البومبائي(١٣).

الصراع الذي اندلع بين بومبيوس ويوليس قيصر وضع سورية من جديد في وضع صعب، حيث خسر بومبيوس معركة فارسال في سنة ٤٨ق.م، ولم يجد ملجأ له في سورية ففر إلى الاسكندرية. وخلال هذه الحرب طلب يوليوس قيصر المعونة من فلسطين وسورية، ومن بين الأمراء الذين قدموا المعونة له الأمير يمبليخوس الحمصي(١٤).

بعد انتهاء هذه الحرب زار يوليوس قيصر سورية واستقبل من قبل المدن السورية كمنتصر، وإحياءً لهذا النصر تخلت المدن السورية عن تقويمها البومبائي وتبنت تقويماً جديداً باسم التقويم اليوليوسي الذي يبدأ بسنة ٤٦ ق.م.، بعد سنتين من انتصار يوليوس قيصر علىبومبيوس في معركة فارسال (اليونان).

وفي هذه الأثناء تمرّد أحد قادة بومبيوس واسمه كاسيليوس باسوس في مدينة أفاميا تحصن في قلعتها وأعلن الثورة ضد أتباع قيصر، وكان ذلك في سنة ٤٧ق.م وقد تحدث سترابون في نصوصه عن كيفية حصول هذا القائد على المعونة والدعم من الأمراء المحليين[١٥]، حيث توزع هؤلاء الأمراء بين طرفي الصراع. وكان أمراء منطقة حمص إلى جانب جيرانهم في أفاميا لكن يبدو أن كاسيليوس باسوس كان قد طلب في نهاية الصراع ضمانات لحماية حلفائه قبل أن يستسلم[١٦].

خلال هذه الفترة من بدايات الاحتلال الروماني لسورية برز الأمير سمسجرام الحمصي شخصية مهمة في الأحداث، إذ كان يملك الكثير من المال والقوة ويرتبط مع روما بعلاقات جيدة. وعلى الرغم من انهيار الدولة السلوقية، فقد حافظ هذا الأمير على أملاكه في وسط سورية، حتى إن المؤرخ والخطيب الروماني شيشرون تحدث في رسائله إلى مجلس الشيوخ عن عظمة هذا الأمير[١٧].

يذكر لنا شيشرون في إحدى رسائله إلى مجلس الشيوخ الروماني المؤرخة في ١٨أيلول عام ٥١ق.م، شخصية أخرى هي يمبليخوس الأول ابن سمسجرام الأول، وهذه الشخصية مذكورة أيضاً في نصوص المؤرخ بلوتارخوس وديون كاسيوس.

يبدو أن يمبليخوس قد تابع خطى والده في الحفاظ على العلاقات الجيدة مع روما، حيث يتحدث شيشرون حول عبور باكوروس ابن الملك البارثي أورود لنهر الفرات مع حشد من الفرسان البارثيين، الأمر الذي خلق نوعاً من الاضطرابات في سورية.

وقد تلقى شيشرون هذه الأخبار من يمبليخوس أمير العرب الذي يعتبر صديق روما[١٨].

من خلال نصوص سترابون كان، يمبليخوس الأول ووالده سمسجرام الاول قد شاركا في ثورة كاسيليوس باسوس في أفاميا ضد يوليوس قيصر، ولكن يمبليخوس شارك وحده في تقديم العون لقيصر في حصار الاسكندرية في عام ٤٨ق.م.

لقد ذكر بأن مدينة الرستن كانت في عام ٤٦ق.م بين يدي الأمير سمسجرام الثاني، وأن حمص كانت تحكم من قبل الأمير يمبليخوس الأول[١٩]، ولكن من الصعب قبول ذلك لأننا رأينا في نصوص سترابون وبشكل واضح أن الاميرين كانا معاً في حكم مدينة الرستن. إضافة إلى ذلك يوجد خلط بين سمسجرام الثاني وسمسجرام الاول، حيث إن حكم الأمير سمسجرام الثاني يعود إلى القرن الأول الميلادي وليس القرن الأول قبل الميلاد. كذلك فإن وجود مدينة حمص كمدينة مهمة خلال هذه الفترة محل جدل بين المؤرخين، وسوف نتطرق إلى ذلك لاحقاً.

ظهرت بعد اغتيال يوليوس قيصر في عام ٤٤ق.م وتقسيم الامبرطورية الرومانية بين خلفائه صراعات جديدة بين القائدين اوكتافيوس وانطونيوس للسيطرة على الإمبراطورية. وقد دام هذا الصراع لفترة طويلة كما انعكس على الاوضاع في سورية وعلى الأمراء في منطقة حمص خاصة، حيث شارك هؤلاء في تلك الصراعات وانقسموا في ولائهم بين هذين القائدين.

لقد كان للأمير يمبليخوس الأول دور كبير في هذا الصراع. فالمؤرخ بلوتارخوس يذكر في نصوصه بأن فارات قتل أباه أوروديس وسيطر على عرش الإمبراطورية البارثية، مما دفع بعدد كبير من البارثيين إلى اللجوء إلى انطونيوس، وكان من بينهم أحد النبلاء – واسمه مونايسيس – مما دفع هذا الأخير إلى إعطاء هذا النبيل البارثي ثلاث مدن في سورية كهدية، وهذه المدن هي لاريسا (شيزر) واريتوزا (الرستن)

وهيرابوليس (منبج). وفيما بعد حصل هذا النبيل على عفو من الملك البارثي، وسمح له انطونيوس بالمغادرة[٢٠].

هنا لابد من الاشارة إلى أهمية إعطاء هذه المدن الثلاث المذكورة سابقا" لهذا النبيل البارثي، ولاسيما أن مدينة الرستن كانت من بينها، ولاننسى أن هذه المدينة الأخيرة كانت مركز حكم أمراء منطقة حمص خلال القرن الأول قبل الميلاد.

لقد حارب الأمير يمبليخوس الأول بالإضافة إلى ملوك آخرين إلى جانب انطونيوس في حروبه[٢١]. وهذه الأحداث مذكورة أيضاً في نصوص المؤرخ ديون كاسيوس.

نجد من خلال دراسة هذه النصوص تناقضاً في الاحداث المذكورة، حيث نرى انطونيوس يعتمد على تحالف مع يمبليخوس الاول وفي الوقت نفسه يأخذ منه مدينة الرستن، ويعطيها هدية للنبيل البارثي. ولا نملك ما يكفي من المعلومات حول أسباب ظهور هذا التناقض بين الأمير يمبليخوس الأول وانطونيوس.

ونلمح بعض الاشارات المفيدة في نصوص ديون كاسيوس لتفسير هذا التناقض. فقد ورد أن انطونيوس بدأ يشك بالناس وبمن حوله من القادة والمتحالفين. يبدو أن الأمير يمبليخوس الأول كان من بينهم، خاصة انه قتل في هذه الأحداث وأعطيت أملاكه لأخيه الاسكندر[٢٢].

اسكندر ويمبليخوس الثاني:

بعد انتصار اوكتافيوس على انطونيوس عام ٣١ ق.م قرر القائد المنتصر معاقبة كل من تحالف مع انطونيوس، وكان ممن تحالفوا مع انطونيوس الأمير اسكندر أخو الأمير يمبليخوس الأول الذي تم قتله[٢٣].

وعندما بدأ أوكتافيوس تنظيم شؤون الإمبراطورية ومكافأة أصدقائه، فقد أعطاهم الحكم الذاتي، وبذلك أعاد للأمير يمبليخوس الثاني أملاك والده يمبليخوس الأول التي كانت

واقعة في بلاد العرب على حد قول المؤرخ ديون كاسيوس[٢٤]. ولكن بحكم صغر سن يمبليخوس الثاني فقد تسلم أملاكه بعد عدة سنوات من مقتل عمه اسكندر، الذي كان أول مواطن حمصي يحصل على حقوق المواطنة الرومانية، التي أصبحت وراثية في أسرته، حيث إن إحدى الكتابات الحجرية المكتشفة تعطي لابنه لقباً لاتينيا" (Sampasigeramus caius Julius)، هذه الميزة التي ربما أعطيت من قبل يوليوس قيصر أثناء تواجده في سورية ليمبليخوس الأول، الذي وزع قيصر على حلفائه الكثير من الألقاب والميزات[٢٥].

يتساءل بعض المؤرخين المعاصرين عن مصير مدينة الرستن، وهل أعيدت إلى أملاك أمراء منطقة حمص بعد موت انطونيوس ؟.

يدافع هنري سريغ (H.Seyrig) عن فرضية تطور مدينة حمص خلال هذه الفترة كمدينة مهمة ويرى أنه من غير المحتمل أن تكون مدينة الرستن قد أعيدت إلى أملاك أمراء منطقة حمص[٢٦].

من جهته فإن ر.د.سيلفان (R.D.sullivan) يعتقد أن انتقال مدينة الرستن إلى أمير بارثي لا تعني بالضرورة نوعاً من ضياع أملاك أمراء منطقة حمص، حيث يرى أن مدينة الرستن كانت دائماً مدينة حرة[٢٧]. وقد استند في هذه الفرضية إلى كون مدينة الرستن من المدن النادرة التي تبنت تقويم أكتيوم. ولكن كارلوس شاد، يشكك بهذه الفرضية ويرى أنه كان بإمكان أمراء منطقة حمص أن يتبنوا هذا التقويم لمدينة الرستن تقديراً لأوكتافيوس[٢٨]، حيث اكتشف في مدينة الرستن نصب مؤرخ عليه التأريخ حسب التقويمين السلوقي والأكتيومي، وقد ذكر هذا التقويم الأخير على شكل تقويم الحرية[٢٩].

إن هذه الحرية بالنسبة لكارلوس شاد، تعني لمدينة الرستن تحريرها من سيطرة النبيل البارثي وعودتها إلى حمص[٣٠]. ومما يؤكد هذا التفسير اكتشاف كتابة حجرية مكتوبة

على نصب حدودي في منطقة خربة بلعـاس وقراءتـه مـن قبـل هنـري سـرنغ (H.Seyrig). فمن خلال هذا النصب الحدودي يمكن تحديد حدود مدينة حمص خـلال هذه الفترة شمالاً، حيث تصل إلى تخوم مدينة حماه، وبالتالي فإن مدينة الرستن كانت تدخل ضمنها[٣١].

لقد خلف يمبليخوس الثاني ابنه سمسجرام الثاني (حكم نحو ربع قرن) [٣٢]، الذي بدأ حكمه نحو ١٤ بعد الميلاد، وقد ظهر تحت تسمية الملك الحمصي – الملك الأعلى. لقد ورد ذكر هذين اللقبين في كتابة حجرية، وهذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها أمراء حمص ملوكاً، بعد أن كانوا يحملون ألقاب شيوخ وأمراء[٣٣].

وبعد الملك سمسجرام الثاني خلفه في الحكم ولداه عزيز وسهيم. وقد كان للأمير سهيم دور عظيم في الصراعات التي نشبت في المنطقة خلال القرن الأول بعـد المـيلاد، حيث تميز بشخصية قتالية وتحلى بقدر من القوة، دفع الرومان إلى تكليفـه بمهمـات صعبة، وخاصة الامبراطور نيرون... وكان من بين هذه المهمات إدارة منطقة سوفين في أعالي نهر الفرات، وهي منطقة صعبة جـداً، وذلـك أثنـاء التحضـير لقتـال البارثيين[٣٤].

كما شارك في مهمات اقوى بتكليف من الامبراطور فسباسيان، كـان منهـا حمايـة الطرق العابرة للصحراء وكذلك المشاركة في إخماد ثورة اليهود[٣٥].

ويُذكر اسم آخر لأمير حمصي هو غايوس جوليوس سمسجرام، ولكن دون أن يحمـل أي لقب. وقد حصلنا على هذا الاسم من خلال كتابة حجرية جنائزية موجـودة فـوق الضريح الذي كان موجوداً في مدينة حمص حتى عام ١٩١١، قبل أن يـتم تخريبـه على يد الدولة العثمانية، وذلك لبناء محطة وقود.

ورد في هذه الكتابة "غايوس جوليوس سمسجرام من قبيلة فابيا، والملقب سيلاس ابن غايوس جوليوس أليكسون قد بنى هذا الضريح أثناء حياته لنفسه ولأسرته في عام ٣٩٠ "حسب التقويم السلوقي"[٣٦].

ويعادل هذا التاريخ ٧٨-٧٩ ميلادية. وقد طُرِح تساؤل حول إمكانية أن يكون غايوس جوليوس أليكسون الحلقة الضائعة بين آخر ملك حمصي سهيم وباني هذا الضريح[٣٧].

لانملك للأسف أية معلومات حول هذه الشخصية، ولكن استمرار ظهور أسماء مثل (سمسجرام - سليم - يمبليخوس... الخ) دون حمل أي لقب سياسي - في الكتابات الحجرية باللغتين اليونانية واللاتينية المكتشفة في مدينة حمص والمؤرخة بعد ٧٩ ميلادية - تؤكد لنا أنّ سلطة هذه الأسرة لم تنته بموت أبنائها، بل إنها استمرت عبر إلحاق مدينة حمص بالامبراطورية الرومانية، وفق السياسة التي اتبعت من قبل الإمبراطورية الرومانية في إلحاق الإمارات أو المدن المستقلة ذاتياً بعد أن شعرت بأنها ليست بحاجة لتلك السياسة المتبعة سابقاً، والتي كان قد حصل بموجبها الكثير من الأمراء على نوع من الحكم الذاتي مقابل ولائهم للإمبراطورية الرومانية وتأمين الأمن والاستقرار.

مع نهاية القرن الأول الميلادي أو بداية القرن الثاني كانت كل المدن والإمارات ملحقة بالإمبراطورية الرومانية.

تطور حمص كمدينة مهمة خلال هذه الفترة:

لاحظنا من خلال دراسة وتحليل المصادر التاريخية التي تتحدث عن مشاركة أمراء منطقة حمص في الصراعات التي نشبت في سورية خلال فترة نهايات الدولة السلوقية، وبدايات الاحتلال الروماني لهذه المنطقة بأنه لم تذكر في هذه النصوص تسمية مدينة حمص بل وردت تسمية شعب حمصي كقبائل بدوية مهمّة تملك من القوة ما جعلها تؤدي دوراً مهماً في هذه الأحداث.

وهذا ما ورد بشكل واضح في نص للجغرافي سترابون عندما تحدث عن تمرد لأحد مناصري بومبيوس في أفاميا، حيث يشرح لنا كيف أن شيوخ المنطقة وحاكمها شاركوا في هذا التمرد. وكان من بين هؤلاء سمسجرام ويمبليخوس اللذان شاركا في هذه الثورة إلى جانب مناصري بومبيوس وقد ورد هذا النص بأن شيوخ القبائل الحمصية سكنوا مدينة الرستن، وأن نظام الحكم عندهم لم يأخذ بعد الطابع السياسي المستقر. ولا بد من الإشارة إلى أن الجغرافي اليوناني سترابون كان قد زار سورية خلال فترة قريبة نسبيا من الأحداث المتعلقة بنهاية الدولة السلوقية، وقد ترك لنا الكثير من المعلومات عن سورية اجتماعياً واقتصادياً وإدارياً، أعطت صورة واضحة عن سورية خلال القرن الأول قبل الميلاد(٣٨).

أمام صمت المؤرخين حول حقيقة وجود حمص كمدينة قبل العصر الروماني، فقد اهتم المؤرخون ومنذ بدايات القرن العشرين بهذا التساؤل، وطرحت عدة فرضيات حول تطور مدينة حمص خلال العصرين الهلنستي والروماني.

تقول إحدى هذه الفرضيات إن مدينة إيميسا لا يمكن إنكارها أو تجاهلها قبل ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد وقد تم تأسيسها من جديد كمدينة خلال العصر الهلنستي على شاكلة المدن الأخرى مثل حلب وحماة ودمشق(٣٩).

وترى فرضية أخرى أنه لم يكن لحمص أية أهمية تذكر قبل العصر الروماني، ولم تُذكر حمص كمدينة بل كانت هناك تسمية الحمصيين وهم عبارة عن قبيلة بدوية سكنت المنطقة واختار شيوخها مدينة الرستن مركزا لسكنهم. وكانت هذه القبيلة محرومة من أي وجود مدني حقيقي خلال القرن الأول قبل الميلاد وقد يكون دور حمص كمحطة تجارية على الطريق بين تدمر والساحل هو السبب في ازدهارها خلال العصر الروماني(٤٠).

لقد دافعت مجموعة من الباحثين عن الفرضية التي ترى أنه أعيد تأسيس مدينة حمص في العصر الهلنستي طرحوا – من خلال دراسة الصور الجوية للمخطط الحالي للمدينة – إمكانية إيجاد مخطط ذي مقياس هلنستي ضمن المخطط الحالي للمدينة وكذلك اعتمدوا في فرضيتهم على النقوش الكتابية المكتشفة في مدينة حمص والمؤرخة حسب التقويم السلوقي(٤١).

ونحن بدورنا من خلال دراسة جميع المصادر التاريخية والأثرية والنقوش الكتابية وكذلك مسألة ضرب أو سك العملات في سورية خلال العصرين الهلنستي والروماني ودراسة الظروف البيئية لمدينة حمص من خلال قراءة الصور الفضائية ولاسيما الحرارية ودراسة المقاطع الجيولوجية داخل أحياء المدينة القديمة توصلنا إلى أسباب انطواء حمص على نفسها ضمن إطار التل الأثري، وبالتالي عدم وجود إمكانية لتطور المدينة خلال العصر الهلنستي ويعود ذلك إلى وجود مستنقعات على أرض مدينة حمص الحالية، والتي كانت سبباً معيقاً لتطور المدينة خلال العصور ما قبل الرومانية ولكن مع بناء سد بحيرة قطينة خلال العصر الروماني، توافرت الظروف الملائمة لتطور هذه المدينة، وذلك من خلال التحكم بمياه العاصي وتجفيف المستنقعات على أرض المدينة(٤٢).

ونشهد مع نهاية القرن الأول قبل الميلاد ظهور تسمية مدينة حمص في نصوص المؤرخين لأول مرة في نصوص المؤرخ اللاتيني بلينيوس القديم(٤٣).

ونجد في نصوص القرن الأول الميلادي تسمية مملكة حمص وبالتالي من الممكن أنه وبعد أن توافرت الظروف الملائمة في هذه المدينة، أن أمراءها انتقلوا من مركز حكمهم السابق (مدينة الرستن) إليها، لتستمر المملكة تقريباً خلال القرن الأول الميلادي كلّه قبل أن يتم إلحاقها كما ذكرنا سابقاً بالإمبراطورية الرومانية غير أن هذا الإلحاق لم يفقدها أهميتها بل بقيت مدينة رئيسية كما احتفظت بالكثير من الحقوق ولاسيما أنها كانت مركزاً لديانة عبادة الشمس بالإضافة إلى موقعها الاستراتيجي الهام

وبالتالي فقد استمر أمراؤها – وإن فقدوا السلطة السياسية بسبب هذا الإلحاق مثل بقية المدن السورية خلال هذه الفترة – بالتحكم بالسلطة الدينية ولفترات طويلة، وخاصة وأن حمص عادت لتؤدي دوراً مهماً في نهاية القرن الثاني الميلادي، عندما تزوج القائد فالإمبراطور الروماني سبتيموس سيفروس من إحدى أميراتها وقد أعطى هذا الزواج لهذه الأسرة فرصة لتحكم روما خلال الفترة الواقعة بين ١٩٣-٢٣٥م خلال عدد من أفرادها.

الـهوامش

حول أنهيار الدولة السلوقية انظر:

1. -A.BOUCHE-LECLERCQ, *Histoire des Séleucides*, Bruxelles, 1963.
2. -M.SARTRE, *D'Alexendre á Zénobie*, Paris, 2001.
3. - DIODORE DE SICILE, *Exceprta, in Fragmenta Hisoricum Graecorum*, II, Paris, 1848.
4. *Ibid*, II, XVII.
5. W.EDOUARD, *Histoire politique du monde hellénistique*, Nancy, 1967, p.373.
6. A.PIGANIOL, *La conquête romaine*, Paris, 1974, p.476.
7. A.BOUCHE-LECLERCQ, *op.cit.*, p.428.
8. *Ibid.*, p.476.
9. J.P.REY-COQUAIS, La Syrie de Pompée á Dioclétien, in: *Histoire et archéologie de la Syrie*, II, Sarrebruck, 1989, p.45-62.
10. DIODORE DE SICILE, *op.cit.*, II,XXIV.
11. *Ibid.*,II,XXIV.
12. *Ibid.*, III, XXIV,XXVI.
13. A.PIGANIOL, *op.cit.*, p.486.
14. H.SEYRIG, Eres de quelques villes de Syrie, *Syria*, XXVI, Paris, p.14.
15. C.CHAD, *Les dynastes d'Emèse,* Beyrouth, 1972, p.43.
16. STRABON, *La géographie*, XVI, 10.
17. C.CHAD, *op.cit.*, p.43.
18. CICERON, *Epistulae ad Familiares*, XV, I, Paris, 1967.
19. *Ibid*, XV,I.
20. C.CHAD, *op.cit.*, p.43.
21. PLUTARQUE, *Vie d'Antoine*, XXXVII, 1-2, Paris, 1977.
22. *Ibid*, LXI,1-3.
23. DION CASSIUS, *Histoire romaine*, L,XIII, 7, Paris, 1991.
24. *Ibid*,LI,II.
25. *Ibid*, LIV,IX,2.
26. C.CHAD,*op.cit.*58.
27. H.SEYRIG, *Caractère de l'histoire d'Emèse,* Syria, XXXVI, Paris, 1959, p.184.
28. R.D.SULLIVAN, Tha dynasty of Emesa, in: *Aufstieg und Niedergang des Romischen Welt*, Berlin, 1977, p.210.
29. C.CHAD, *op.cit.*, p.46.
30. *IGLS*, N°2085.
31. C.CHAD. *op.cit.*, p.46.

32. H.SEYRIG, *op.cit*, 1950, p.14.
33. J.CANTINEAU, Textes palmyréniens du temple de Bèl, *Syria*, XII, Paris, 1931, p.141.
34. C.CHAD, *op.cit.*, p.62.
35. TACITE, *Annales* , XIII, 7, Paris, 1958.
36. TACITE, *Histoire*, II, 81.
37. *IGLS*, N° 2212.
38. C.CHAD, *op.cit.*92.
39. STRABON, *op.cit.*, XVI, 10.
40. R.DUSSAUD, *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale*, Paris,1927, p.103.
41. H.SEYRIG, *op.cit.*, 1959, p.,184.
42. M.DODINET et al Le paysage antique en Syrie: l'exemple de Damas, *Syria*, LXVII, Paris, 1990, p.339-368.
43. M.ABDULKARIM, *Recherches sur la cite d'Emèse á l'époque romaine*, Thèse de Doctorat, Université de Versaille, 1997.
44. *PLINE* L' ANCIEN, Histoire naturelle, V, Paris, 1

المصادر والمراجع

ABDULKARIM M., *Recherches sur la cité d'Emèse á l'epoque romaine,* Thèse de Doctorat, Université de Versaille. 1997.

BOUCHE-LECLERCQ A., *Histoire des Séleucides*, Bruxelles, 1963.

CANTINEAU J., Textes palmyréniens du Bél, *Syria*, XII, Paris, 1931, p.139-141.

CHAD C., *Les dynastes d'Emèse*, Beyrouth, 1972.

CICERON, *Epistulae ad Familiares*, XV, Paris 1967.

DIODORE DE SICILE, *Exceprta, in Fragmenta Historicum Graecorum*, Paris, 1848.

DION CASSIUS, Histoire romaine, L, XIII, Paris, 1991.

DODINET M., et al, Le paysage antique en Syria: l'exemple de Damas, *Syria*, LXVII, Paris, 1990, p.339-368.

DUSSAUD R., *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale*, Paris, 1927.

EDOUARD W., *Histoire politique du monde hellénistique*, Nancy, 1967.

JALABERT L., MOUTERDE R., et MONDESERI CH., *Inscriptions grecques et latines de la Syrie*, V, Paris, 1959.

PIGANIOL P., *La conquête romaine*, Paris, 1974.

PLINE L'ANCIEN. *Histoire naturelle*, V, Paris, 1860.

PLUTARQUE, *Vie d'Antoine*, XXXVII, Paris, 1977.

REY-COQUAIS J.P., La Syrie de Pompée á Dioclétien, in: *Histoire et Arckéologie de la Syrie*, II, Sarrebruck, 1989, 45-62.

SARTRE M., *D'Alexendre á Zénobie*, Paris, 2001.

SEYRIG H., Eres de quelques villes de Syrie, Syria, XXVI, Paris, 1950, p.5-50.

Id., Caractère de l'histoire d'Emèse, *Syria*, XXXVI, Paris, 1959, p.184-192.

STRABON, *La Géographie*, XVI,10.

SULLIVAN R.D., The dynasty of Emesa, in: *Aufstieg und Niedergang des Romischen Welt*, Berlin, 1977, 198-219.

TACITE, *Annales*, XIII, Paris, 1958.

TACITE, *Histoire*, II, Paris, 1968.

دور العلماء المسلمين في المقاومة ضد الصليبيين في بلاد الشام ٤٩١-٦٩٠هـ/ ١٠٩٨-١٢٩١م

رجب ١٤٢٦هـ/ أغسطس ٢٠٠٥م

غزة - فلسطين

الدكتور
رياض مصطفى أحمد شاهين

الدكتور
عبد الحميد جمال الفراتي

الجامعة الإسلامية - غزة

الملخص

لعب العلماء "من الفقهاء والأدباء والشعراء" دوراً مهماً في الصراع الإسلامي الصليبي في الفترة ما بين ٤٩١-٦٩٠هـ/ ١٠٩٨-١٢٩١م، حيث كان لهم دور فاعل في المقاومة ضد الغزو الصليبي، هذا الدور اتخذ عدة أوجه بدءاً بتحريض الحكام والأمراء والناس على المقاومة والانخراط فيها، إلى مرحلة المشاركة في صد العدوان ثم المشاركة الفعلية في معارك التحرير التي خاضتها الجيوش الإسلامية والمقاومة الشعبية.

وهذا ما سنحاول أن نلقي الضوء عليه من خلال هذه الدراسة للكشف عن طبيعة هذا الدور.

Abstract

Scientists, authers, educators and poets played a serious role in the Islamic- crusade struggle in the time between 491-690AH/1098-1291 AB. They had an effective side in the resistance against the orusade occupation. This role, moreover, had several faces, starting from instigating governors, leaders and people to fight; then through participating in repulsing the enemy and real sharing of liberation battles which had been led by the Muslim armies and some civil resistance.

Therefore, this study is going to shid the light on this role to reveal its nature.

أولاً: دور الفقهاء والعلماء المسلمين:

كان للفقهاء والعلماء دور فاعل في المقاومة الشعبية ضد الصليبيين، وهذا الدور لا يقلّ بل يزيد على ما قام به الجنود المحاربون لمقاومة الغزو الصليبي، فحمل السلاح لم يكن هو الوسيلة الوحيدة التي استخدمها الفقهاء والعلماء في المقاومة الشعبيّة ضد المحتلين، بل كان للوعظ والإرشاد والحثّ على الجهاد والتحريض والتوعية المستمرة بين الجنود، ومشاركتهم، وتبيان فضل الجهاد والمجاهدين عند الله، وشحذ الهمم والتشجيع والخطابة الدائمة فيهم، وتلاوة القرآن الكريم، كل ذلك كان له الأثر في تعزيز المقاومة الشعبية وحثّها للالتفاف حول الزعماء والقادة[١]، وقد وقف الفقهاء والعلماء بجانب القادة في المعارك يذكرونهم، ويعلمونهم ويفقهونهم أحكام القتال، والفيء والغنائم، لذلك كان دورهم أهم وأعمق وأدق.

اتخذ هؤلاء الفقهاء والعلماء من المساجد[٢] مكاناً خاصاً للقيام بهذا الدور، الذي لم يكن مقصوراً على الصلاة وأداء الشعائر الدينية فحسب، وإنما كان مكان مشاوراتهم، والمكان الذي ينطلق منه المقاومون والمحاربون في سبيل الله.

ولعلّ بداية المقاومة الشعبية لتلك الفئة؛ من مدينة القدس، فبعد اجتياح الصليبيين الفرنجة للمدينة جاسوا خلال الديار، وانطلقوا في شوارعها وبيوتها ومساجدها يقتلون

كل من صادفهم من الرجال والنساء والأطفال ولبث الإفرنج في البلد أسبوعاً يقتلون المسلمين(٣)، قم اقتحم الغزاة المحتلين المسجد الأقصى وارتكبوا فيه مذبحة وحشية ضد من لجأ إليه وكان منهم "جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف"(٤).

ويبدو مما سبق في تركز العلماء والعباد والفقهاء في المسجد الأقصى أنهم كانوا هم آخر من استسلم، ودليل واضح وقوي على أن رجال الدين آنذاك والعلماء أيضاً لم يقتصر دورهم على مهمة الوعظ والإرشاد وشحذ الهمم وتقوية النفوس وإنما حملوا السلاح، وقاتلوا حتى نالوا شرف الشهادة في سبيل الدفاع عن المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، ومسرى النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد حفلت كتب التاريخ والتراجم بالكثير من الأمثلة حول علماء وفقهاء ساهموا مساهمة إيجابية بالسلاح واللسان للتصدي للصليبيين، فقد كانوا هم عماد دعوة الجهاد لأنهم أحسوا بخطر الصليبيين، وكانت دعوتهم إلى التجمع ونسيان الخلافات والأطماع الدنيوية والنزاع الذي كان سبباً للفرقة والضعف، وكان قد بلغ الحماس الديني بالعامة مبلغه، ولم يستجب الأمراء والحكّام -أول الأمر- لذلك الحماس الديني لأنهم لم يكونوا ليستشعروا مسؤوليتهم في مواجهة العدوان، لكنهم استجابوا بعد ذلك في عهد صلاح الدين الأيوبي، وبشكل كبير حتى أن استجابتهم تلك تحولت في بعض الأحيان إلى معاتبة لبعض العلماء على تقصيرهم في عدم الوقوف ضد المتخاذلين، ومن أمثلة ذلك ما حدث بعد وفاة نور الدين محمود زنكي عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، حيث هاجم الصليبيين بانياس فـ "ظهرت خيبتهم وبان اليأس"(٥)، ثم خرج إليهم شمس الدين بن المقدم قائد عساكر دمشق واتفق معهم على الهدنة، وأن تدفع دمشق مبلغ مستعجل من المال، كما يتم إطلاق عدد من الأسرى الصليبيين(٦)، وقد وصلت أخبار هذه الهدنة إلى صلاح الدين في مصر واعتبرها "مؤذنة بذلّ الإسلام"(٧)، وأرسل كتباً إلى أعيان وعلماء دمشق، منهم الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون(٨) فيها ملام وعتاب يقول

فيها "وسيدنا الشيخ أول من جرّد لسانه الذي تغمد له السيوف وتجرد، وقام في سبيل الله قيام من يقطّ عادية من تعدى وتمرد"(٩).

ويعتبر الخطيب أبو الحسن علي بن مسلم بن الحسن السلمي الدمشقي (٤٥٢-٥٣٣هـ/١٠٦٠-١١٣٨م)، أحد هذه الأمثلة على بروز الفكرة السابقة -الجهاد والوحدة وضرورة نبذ الفرقة والتشرذم- فقد شهد السلمي وهو في أواخر عمره غزو الصليبيين للشام، فخصّص دروسه في جامع بني أمية الكبير للحديث عن فضائل الجهاد، تحريضاً لأهالي الشام على مقاومة المحتلين، وألّف كتاباً في اثني عشر جزءاً أسماه "كتاب الجهاد"(١٠)، ذكر فيه معارك الإسلام الأولى ودور المجاهدين، مع ذكر الآيات والأحاديث النبوية التي تحضُّ على الجهاد وتبيّن مكانة المجاهدين، كما شرح فيه أبعاد الاحتلال الصليبي، وهو أول من بيّن أنه هجوم غربي على العالم الإسلامي كله ذو ثلاث شعب: الأولى في الأندلس، والثانية في صقلية، والثالثة في بلاد الشام(١١).

وقد اعتبر السلمي في إحدى خطبه وهي بعنوان: "الغزو واجب"(١٢)، توقف المسلمين عن ممارسته سبباً في اختلاف كلمتهم وتمزق وحدتهم من جهة، وفي طمع الأعداء بهم واحتلال بلادهم مبتدئين بالمناطق الأقرب متابعين حتى بلاد الشام التي وجدوها ممالك مختلفة متنافسة، ومذاهب متعددة مما أغرى باحتلالها، ثم شرح مسؤولية الإمام في قيادة الجهاد وفق مصلحة المسلمين، وبعد ذلك يقول: "فقد تبيّن مما ذكرت أنه إذا احتيج إلى الجماعة بغزو كلهم فرضاً واجباً عليهم وذلك في مثل هذه الحال التي نحن عليها الآن مع هذه الفرقة الهاجمة على بلاد الشام -يقصد الصليبيين"(١٣).

ثم يبيّن السلمي ضرورة النفير في الحال لاسيما مع قلة العدو وبعد ناصرهم، ثم ينادي: "فشمروا عن سوق الاجتهاد إلى مفترض هذا الجهاد ومتعين الذنب عن دينكم وإخوانكم بالمؤازرة والإنجاز"، وفي هذا حثّ على المقاومة الشعبية ضد الصليبيين مع

علمه أن هذا العدو لا يمكن أن يستمر دون أن يأتيه المدد من أوروبة لأنه يعاني من نقص العنصر البشري وهذا في مصلحة المقاومة الشعبية.

ويبيّن أن الجهاد متوجب على الجميع، ثم يتحدث السلمي في خطبته عن ضرورة تآلف ووحدة المسلمين في كل ديار الإسلام لمواجهة الغزو الصليبي، ويطالب بعودة الوئام والصفاء مستشهداً بما كان يفعله العرب حتى قبل الإسلام، ثم يصل إلى نقطة هامة فيطالب بمساعدة أهالي الساحل المحاصرين المجاهدين لأنهم الآن شاغلون للعدو عن هذه البلاد وما يليها من مصر ونواحيها"(١٤).

ومن خلال عرض المقتطفات السابقة من خطبة السلمي يتضح -كما سبق أن قدمنا- مدى إحساس العلماء والفقهاء بمخاطر الغزو الصليبي على بلاد الشام، ويمكن أن نستنتج هؤلاء العلماء والفقهاء استندوا في حثّهم الناس على المقاومة والجهاد من خلال استفادتهم من فكرة الجهاد التي رسخها الإسلام كمفهوم أساسي وواجب على جميع المسلمين للدفاع عن الأمة، وتأمين استمرارية حيويتها ونشاطها.

ولم يكن السلمي وحده من ركّز في مؤلفاته على الجهاد وبيان فضائله، ولكنه يعتبر بداية من افتتح هذا التوجه نحو هذا النوع من المؤلفات، أن طبيعة العصر وما حدث فيه من تحولات سياسية جذرية بعد احتلال الصليبيين لأجزاء كبيرة من بلاد الشام أثرت حتى على نتاجات ومؤلفات الفقهاء الذين ركّزوا في طروحاتهم الفكرية ونتاجاتهم العقلية على الجهاد وفضائله وذلك من أجل شحذ همم السكان المحليين في بلاد الشام لمقاومة الصليبيين(١٥)، وينطبق ذلك بصورة واضحة على ابن عساكر، الذي ألّف كتاباً احتوى أربعين حديثاً عن فضائل الجهاد(١٦)، وطاهر بن نصر الله بن جهبل المتوفى سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م، الذي ألّف لنور الدين محمود زنكي كتاباً في فضل الجهاد(١٧)، ولشغف نور الدين بالجهاد وضع فيه كتاباً بقلمه(١٨)، وذكر ابن شداد(١٩)، أن حب الجهاد قد استولى على قلب صلاح الدين ولهذا جمع له ابن شداد كتاباً جمع فيه كل آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث روي في فضله(٢٠)، ومن

هذه الكتب كتاب ألّفه محمود بن محمد بن صفي، ومنها كتاب لعز الدين ابن الأثير[٢١]، وكتاب لأبي العوالي[٢٢]، وفرغ منه سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م.

ومن الفقهاء والعلماء الذين برزوا في بداية الغزو الصليبي وحمل السلاح ضدهم الشيخ أبو القاسم الأنصاري[٢٣]، الذي كان قاضياً للقدس عندما اجتاحها الصليبيون، وقد تزعم حركة المقاومة الشعبية ضد الصليبيين، ولعب دوراً بارزاً في القتال وتحريض الناس على الجهاد في سبيل الله، وقد قاموا بالقبض عليه وساقوه أسيراً وبدأوا ينادون في فكاكه بألف دينار فلما علموا أنه من علماء المسلمين، أقدموا على إعدامه، حيث رمي بالحجارة على باب إنطاكية[٢٤]، ومن هؤلاء العلماء أيضاً الشيخ أبو القاسم الرازي[٢٥]، الذي استشهد مدافعاً عن ثرى القدس الشريف[٢٦].

ولم تقتصر المقاومة الشعبية على علماء المشرق فقط، بل شاركهم ومنذ بدء الحركة الصليبية علماء وفقهاء مغاربة[٢٧]، كانوا ضمن جيوش الأفضل بن بدر الجمالي، "وأبلوا بلاء حسناً"[٢٨]، ومن هؤلاء العلماء فقيه مغربي كان قد وفد من الملثمين (المرابطين) إلى بغداد حيث قام بالوعظ والتحريض في جامع دار الخلافة "واجتمع به العالم الطيب"[٢٩]، ثم غادر بغداد ليشارك في المقاومة الشعبية بحيث "لم يكن للمصريين حرب مع الإفرنج إلا من شهدها فقتل في بعضها شهيداً، وكان شجاعاً فتاكاً مقداماً" [٣٠].

وممن استشهد في بداية الغزو الصليبي مدافعاً عن مدينة إنطاكية قبيل سقوطها عام ٤٩١هـ/١٠٩٨م، الفقيه أبو عبد الله الحسين بن الحسن الشهرستاني[٣١]، الذي "خرج مع الجموع إلى إنطاكية فاستشهد بها"[٣٢].

وقد أثار استيلاء الصليبيين على القدس المسلمين في جميع المناطق، خاصة مصر والشام والعراق، وخلق ذلك الاحتلال توتراً في العالم الإسلامي، "وانزعج المسلمون في سائر ممالك الإسلام بسبب أخذ بيت المقدس غاية الانزعاج"[٣٣]، قاد زعامته الفكرية، الشعراء، والكتاب، والعلماء، والفقهاء، الذين جردوا حملة إعلامية لإثارة

الناس ودفعهم لتحرير الأراضي المقدسة(٣٤)، وبدأت دعوة الجهاد تسري بين الناس في العالم العربي الإسلامي بشرعة كبيرة(٣٥)، وفي رحم الحركة الفكرية التي قادها المفكرون تبلورت اتجاهات المقاومة الشعبية ضد المحتلين الصليبيين، فخرجت دمشق، خاصة وبلاد الشام عام سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، جماهير شعبية حاشدة بزعامة القاضي زين الدين أبي سعد الهروي(٣٦)، إلى بغداد ليشكلوا رأي عام ضاغط على الحكّام المتخاذلين "فأوردوا كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب، وقاموا في الجامع يوم الجمعة فاستغاثوا، وذكروا ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظّم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد"(٣٧)، وبناءً على ما سبق "ندب الخليفة ببغداد(٣٨)، الفقهاء إلى الخروج في البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد. فخرج الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي، وغير واحد من أعيان الفقهاء وساروا في الناس"(٣٩). ليحرضوهم على المقاومة.

ونتيجة لذلك تجمهر الناس في المحلات العامة في دمشق وحلب، ودخل الكثير منهم بقيادة علماء الدين المساجد وأخذوا يدعون للجهاد والمقاومة ضد المحتلين(٤٠)، فقد كان المسلمون إذ لمسوا تهاوناً من الحكّام المسلمين. بصدد الجهاد ضد المحتلين الصليبيين، اجتمعوا ومعهم رجال الدين وتوجهوا إلى المساجد لإعلان احتجاجهم كي تصل صرخاتهم إلى الحكّام، وقد استمرت حملات الاستنفار والاستغاثة الشعبية رغم مرور أكثر من عقد على سقوط القدس وغيره من المدن الإسلامية ففي أول جمعة من شعبان سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م، سار جماعة من "أهل حلب وجماعة من الصوفية والتجار والفقهاء إلى جامع السلطان(٤١)، ببغداد فاستغاثوا وأنزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه وصاحوا وبكوا لما لحق الإسلام من الإفرنج وقتل الرجال وسبي النساء والأطفال، ومنعوا الناس من الصلاة(٤٢)، وأخذ الخليفة في الاستعداد ويتهيأ السلطان للغزو نتيجة لتلك الضغوط "فلم يتم ذلك لضعف عساكر العراق"(٤٣)، ولم تنجدهم عساكر مصر(٤٤) وفي سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م، خرج أهالي حلب وبزاغة. من النساء والصبيان والرجال

في مظاهرة كبيرة دخلوا بها المساجد ومنعوا الناس من إقامة الصلاة، ودفعوهم لقتال الأعداء واضطروا لكسر المنابر(٤٥).

وواصل الفقهاء ورجال الحركة الفكرية تزعمهم لردود الأفعال الشعبية ضد أي تخاذل أو تفريط يلمسوه من جانب زعماء السياسيين، فقد اعتبر المسلمون بلاد الشام أن معاهدة السلام التي عقدها السلطان الأيوبي الكامل مع الإمبراطور فريديريك الثاني في السابع والعشرون من جمادى الأولى عام ٦٢٦هـ/٢٣ نيسان (أفريل) ١٢٢٩م(٤٦)، والتي تقضي بتسليم القدس للصليبيين كارثة حقيقية، وكان ردّ فعل العلماء عنيفاً ضد السلطان الذي برّر موقفه بقوله: "إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدر (أديرة)، خربة والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه، ووالي المسلمين متحكّم على رساتيقه وأعمال"(٤٧)، وعلى الرغم من ذلك "استعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه"(٤٨)، وعندما قرّر تطبيق الاتفاقية على أرض الواقع "نودي بالقدس بخروج المسلمين وتسليم القدس إلى الفرنج، فوقع في أهل القدس الضجيج والبكاء"(٤٩).

"والصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذنوا على بابه في غير وقت الآذان، فعزّ عليه ذلك"(٥٠)، وهذا أكبر دلالة على درجة التأثير التي تركتها الأفعال الشعبية بقيادة الفقهاء والعلماء على ما فعله الكامل، أضف إلى ذلك ما قام به الشيخ الفقيه الواعظ سبط ابن الجوزي(٥١)، بأمر من الناصر داود، أن يعقد مجلساً للوعظ يذكر فيه فضائل بيت المقدس، وما حلّ بالمسلمين من تسليمه إلى الصليبيين، وقد وصف سبط ابن الجوزي ذلك المجلس وردة الفعل الشعبية الإسلامية على تسليم الكامل القدس للصليبيين بقوله: بأنه عندما وصلت الأخبار بذلك "قامت القيامة في جميع بلاد الإسلام، واشتدت العظائم، بحيث أقيمت المآتم، وأشار الملك الناصر داود أن أجلس بجامع دمشق، وأذكر ما جرى على البيت المقدس، فما أمكنني

مخالفته، ورأيت من جملة الديانة الحمية للإسلام موافقته، فجلست بجامع دمشق، وحضر الناصر داود، على باب مشهد علي، وكان يوماً مشهوراً، لم يتخلف من أهل دمشق أحداً"[٥٢]، وأورد كلاماً كثيراً عن هذه الحادثة العظيمة والمصاب الجلل الذي أصاب الأمة.

وقد وصف ابن واصل[٥٣]، والذي حضر مجلس سبط ابن الجوزي بأنه "كان مجلساً عظيماً.. وارتفع ضجيج الناس وبكاؤهم، فلم يرَ إلا باكٍ أو باكية".

وعندما سلّم الصالح عماد الدين اسماعيل[٥٤]، قلعة صفد وقلعة الشقيف وبلادها ومناصفة صيدا وطبريا وأعمالها، وجبل عاملة، وسائر المناطق الساحلية للصليبيين سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م، "وإذن للفرنج في دخول دمشق وشراء السلاح، فأكثروا من ابتياع الأسلحة وآلات الحرب من أهل دمشق، فأنكر المسلمون ذلك، ومشى أهل الدين منهم إلى العلماء واستفتوهم، فأفتى الشيخ عز الدين بن عبد السلام[٥٥]ـ بتحريم بيع السلاح للفرنج، وقطع الخطبة بجامع دمشق الدعاء للصالح اسماعيل، وصار يدعو في الخطبة بدعاء منه: "اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد تعز فيه أولياءك، وتذلّ في أعداءك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهي عن معصيتك، والناس يضجون بالدعاء"[٥٦]، وعندما علم بذلك الصالح اسماعيل أمر بحبسه هو وابن الحاجب[٥٧]، الذي أنكر ما فعله الصالح اسماعيل بفرض الإقامة الجبرية عليه بعد أن عزله عن الخطابة، ومنعه من الفتوى وأن لا يدخل عليه أحد إلا الطبيب أو المزين –الحلاق-[٥٨]، ثم نزح إلى بيت المقدس، ومنها إلى نابلس بناءً على طلب من الملك الناصر حاكم الكرك ونابلس، الذي استدعاه لتحريض الناس على مقاومة الصليبيين والصمود أمام المذابح التي أوقعها هجوم الداوية على نابلس في ذي الحجة ٦٣٧هـ/ يونيه – يوليه ١٢٤٠م، ويصف له فداحة الهجوم وما أحدثه من خسائر[٥٩].

وبعد نزوله عند الناصر وصل الصليبيون وحلفاءهم من العساكر الإسلامية بقيادة الصالح اسماعيل، والملك المنصور صاحب حمص، وعسكروا في القدس ليستأنفوا

بعدها الهجوم على مصر، ولأنهم خشوا من تحريض العز ابن عبد السلام، أمر الصالح اسماعيل جنوده بإحضاره من نابلس إلى القدس، ثم "اعتقله في خيمة إلى جانب خيمة السلطان"(٦٠)، وقد سأل الصليبيون، من يكون هذا الشيخ؟ فردّ عليهم قائلاً: "هذا أكبر قسوس المسلمين وقد حبسته لإنكاره علي تسليمي لكم حصون المسلمين وعزلته عن الخطابة بدمشق، وعن مناصبه، ثم أخرجته فجاء إلى القدس، وقد جددت حبسه واعتقلته لأجلكم، فقالت له ملوك الفرنج لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها"(٦١).

وقد برز دور الفقهاء والعلماء واضحاً في الدفاع عن المدن الإسلامية أثناء حصار الصليبيين للمدن الشامية، يدلنا على ذلك ما ذكره ابن القلانسي(٦٢)، من أن أهل صيدا وبعد أن فشلوا في مقاومتهم للصليبيين سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م، قاموا "بإخراج قاضيها وجماعة من شيوخها وطلبوا من بغدوين -بلدوين الأول- الأمان فأجابهم إلى ذلك"، ويبدو من رواية ابن القلانسي أن القاضي وهو من الفقهاء كان يقود المقاومة الشعبية ضد الصليبيين المحاصرين لمدينة صيدا، وتدلّ روايته على أن أهل صيدا هم من قاوم الصليبيين، ولم يكن هناك أي قوة نظامية أو حامية فاطمية رسمية تدافع عن المدينة وإلا فلماذا خرج القاضي والشيوخ لطلب الأمان، وإذا كانت قوة رسمية أو نظامية تدافع عن المدينة فلماذا لم يخرج قائد الحامية، أو من يمثله ليتفاوض مع القوات الصليبية؟!

وقد ظهرت معالم أخرى لدور الفقهاء كمتطوعين في المقاومة في شمال بلاد الشام، حيث تزعم الفقيه الحلبي القاضي أبو الفضل ابن الخشاب المقاومة ضد الصليبيين، خاصة في معركة البلاط(٦٣)، سنة ٥١٣هـ/١١١٩م، إذ عمل ابن الخشاب على شحذ همم مجموعات المقاومة الشعبية والجنود على قتال الصليبيين، وأقبل يحرّض الناس على القتال، وهو على حجر وبيده رمح، "وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم، واسترهف هممهم بين الصفين، فأبكى الناس وعظم في أعينهم"(٦٤).

وقُدّر للحملة الصليبية الثانية ٥٤٣هـ/١١٤٨م، أن تشهد دوراً مقاوماً من جانب الفقهاء والعلماء الشاميين كنوع من المقاومة الشعبية ضد الصليبيين، وقد تمثّل ذلك في دور اثنين من الفقهاء هما أبو الحجاج يوسف بن دوناس الفندلاوي(٦٥)، وعبد الرحمن الحلحولي(٦٦)، اللذان تزعما المقاومة الشعبية ضد الصليبيين المهاجمين لدمشق، ويصوّر لنا أسامة بن منقذ(٦٧)، الحوار الذي دار بين الفقيهين حيث قال الحلحولي للفندلاوي: هل هؤلاء الروم؟ (يعني الصليبيين)، قال: نعم فإلى متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم الله فتقدما فقاتلا حتى استشهدا رحمهما الله في مكان واحد". وكان معين الدين أنر حاكم دمشق قد طلب منهما ألا يشاركا في القتال نظراً لتقدم سنهما، ولكنهما رفضا إلا الجهاد والمقاومة، ويصور لنا ذلك الحوار رغبة دفينة للفقهاء لكي يشاركوا في المقاومة الشعبية ضد الصليبيين، وقد كان لاستشهادهما أكبر الأثر في إثارة المسلمين في دمشق ضد الصليبيين.

واستمر الفقهاء والعلماء في لعب دور هام كمتطوعين في المقاومة الشعبية في عهد نور الدين محمود فشاركوه الفتوح وصحبوه، فكانوا يساندونه بالدعاء له وقراءة القرآن، ومن أمثلة ذلك ما حدث في عام ٥٤٥هـ/١١٥٠م، عندما هاجم قلعة اعزاز(٦٨)، واستطاع فتحها، حيث اشترك الفقهاء في هذا الفتح(٦٩)، ويظهر ذلك فيما أورده ابن العديم(٧٠)، من أن أبو الحسين بن أبي عبد الله بن حمزة بن الصوفي المقدسي الزاهد أحد الأولياء المذكورين والأصفياء المستورين وأرباب الكرامات المشهورين، قد طلب من نور الدبن فتح عزاز بعد أن أسر حاكمها جوسلين وقال له: "تعال حتى نحاصر عزاز ونعاون المسلمين ثم عمل صورة قلعة من طين وقال لي امش حتى نزحف عليها، ثم جعل يقول نصر من الله وفتح قريب، نصر من الله وكسر الصليب وجعل يكرر ذلك، ثم قال ها أخذناها أخذناها".

وخلال أحداث معركة بانياس عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م، التي تعتبر من أهم المعارك الحربية، التي جرت ضد الصليبيين في العهد النوري، اشترك فيها عناصر من "الفقهاء الصوفية والمتدينين العدد الكثير"(٧١).

ويبدو من الرواية السابقة بروز عناصر أخرى إلى جانب الفقهاء ألا وهم المتصوفة والمتدينين الذين لا يقلون أهمية عن الفقهاء والعلماء.

ويلاحظ أن هذا الدور من المتصوفة إلى جانب الفقهاء يجعلنا لا نأخذ كحقيقة مسلمة ما قد أشار إليه ابن جبير(٧٢)، خلال رحلته في بلاد الشام من أن المتصوفة قد كفاهم الله "مؤن الدنيا وفرغ خواطرهم للعبادة من الفكر في أسباب المعايش".

فإن ابن جبير بحكم المدة القصيرة التي أمضاها هناك لم يلتمس كافة جوانب نشاط المتصوفة الشاميين، ومن ثم فقد تصور تفرغهم لأمور العبادة(٧٣).

وسجل العلماء والفقهاء حضوراً في أول المعارك التي خاضها صلاح الدين في الثاني من جمادى الآخرة عام ٥٧٣هـ/السادس والعشرين من نوفمبر ١١٧٧م، في معركة الرملة أو تل الصافية أو كما يسميها البعض بكسرة الرملة(٧٤)، ومما يدل على مشاركة الفقهاء في هذه المعركة، أنه بعد هزيمة المسلمين الذين "قدر الله كسرتهم... وأسر منهم الفقيه عيسى(٧٥)" (٧٦).

وظل الفقيه عيسى أسيراً لدى الصليبيين مدة سنتين أي سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م، حيث افتداه السلطان صلاح الدين بستين ألف دينار وعدد من أسرى الصليبيين(٧٧)، وما فعله صلاح الدين لإطلاق سراح الفقيه عيسى إنما يدل على ما حظي به من الفقهاء من أهمية، وتقديراً لدورهم في شحذ الهمم لمقاومة الاحتلال.

ارتبط الفقهاء والعلماء كذلك كمتطوعين في جيش صلاح الدين، مما يعني مشاركتهم في المقاومة الشعبية وبرز دورهم في فتح مدينة القدس، وهذا يجعلنا نتصور احتمال اشتراكهم في معركة حطين التي سبقت الفتح المبارك للقدس عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وهذا ما يؤكده ابن كثير(٧٨)، بأنه عندما عزم صلاح الدين على فتح القدس الشريف

"قصده العلماء والصالحون تطوعاً". وما تؤكده المصادر من أنه وبعد انتهاء المعركة فإن القاضي ابن أبي عصرون وهو من الفقهاء، قاد الأسرى الصليبيين من الملوك والأمراء ودخل بهم دمشق وهو يحمل صليب الصلبوت منكساً"(٧٩).

وكان للفقهاء دور واضح في المشاركة في حصار الحملة الصليبية الثالثة المعاصرة لمدينة عكا، ومن بينهم الفقيه عيسى الهكاري الذي سبقت الإشارة إليه وقد وافته المنية خلال هذا الحصار، ثم نقل جثمانه ليدفن في القدس(٨٠).

كما واستشهد عدد من الفقهاء والعلماء خلال المعارك حول عكا منهم العالم الشاعر الزاهد الشيخ جمال الدين أبو علي الحسين بن عبد الله، الذي ينتهي نسبه إلى ابن رواحة الأنصاري الخزرجي(٨١)، والفقيه اسماعيل الصوفي الأرموي المكّبس وشيخ آخر لم يعرف اسمه(٨٢).

وأفادت إشارة ابن شداد(٨٣)، أنه شارك في الجهاد هو وعدد كبير من الفقهاء حين ذكر بأنه بعد استشهاد أحد الجنود قام بالصلاة "عليه مع جماعة من الفقهاء".

تعدى دور الفقهاء في المشاركة في المقاومة الشعبية إلى مشاركتهم في تحصين المدن الشامية من خلال بناء الأسوار وحفر الخنادق، ويدلنا على ذلك ما ذكرته المصادر الشامية من أنه عندما شرع السلطان صلاح الدين في تحصين القدس وعمارة أسواره، وحفر خنادقه سنة ٥٨٧هـ، عمل السلطان ذلك بنفسه وشاركه في نقل الحجارة "جماعة خواصه والأمراء، واجتمع لذلك العلماء والقضاة والصوفية والأولياء، وحواشي العساكر والأتباع وعوام الناس، فبنى في أقرب مدة ما يتعذر بناؤه في سنين"(٨٤).

وواصل الفقهاء والعلماء جهودهم في مقاومة المحتل لنجدهم يشاركوا في صد العدوان الذي وقع على مدينة حماة سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م، على الرغم من هروب الكثير من الأهالي أثناء هذا الهجوم الصليبي(٨٥)، فهذا الفقيه شهاب الدين أبو القاسم ابن البلاعي، والذي يذكره ابن الفرات(٨٦)، بأن كان من أكابر حماة "فقيهاً ورعاً شجاعاً يتزيى بزي

الجند"[٨٧]، فكان من أوائل المقاومين الذين تصدوا لهذا الهجوم "فقاتل ذلك اليوم ورمى فارساً من الفرنج"[٨٨]، غير أن فرسه وقعت به فوقع أسيراً بأيدي الصليبيين وتم أخذه إلى إمارة طرابلس مع عدد كبير من الناس، ولكنه استطاع الهرب بعد وصوله إلى طرابلس بحيث لم يبت في حبس طرابلس ولا ليلة واحدة وعاد إلى أهله سالماً[٨٩].

وفي سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، تزعم الفقيه العالم المؤرخ الواعظ سبط ابن الجوزي – وكان خطيباً بارعاً في الوعظ وتحبه العامة[٩٠]، مجموعات المقاومة الشعبية للهجوم على الصليبيين حول عكا[٩١].

وخلال المرحلة الأيوبية يمكن أن نلتمس ملامح الدور الجهادي للفقهاء والعلماء المشاركين في المقاومة الشعبية في تراجم أعلام الفقهاء والعلماء، فنجد كلاً من ابن مفلح[٩٢]، والنعيمي[٩٣]، وابن العماد[٩٤]، وخلال ترجمتهم للفقيه عز الدين عبد الهادي ابن شرف الإسلام الحنبلي المتوفى سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م، يستشهدون على قوته الجسدية بقولهم أنه "بارز فارساً من الإفرنج بدبوس فقطع ظهره، وظهر الفرس فوقعا جميعاً".

وفي ترجمة الشيخ الفقيه أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد قدامة المقدسي، المولود بقرية الساويا، من أعمال نابلس سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م، والمتوفى سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، نجد أن من ترجم له من المؤرخين[٩٥]، يؤكدون على دوره الجهادي في مقاومة الاحتلال الصليبي في عهد صلاح الدين، بحيث كان "مسارعاً إلى الخروج في الغزوات قلما يتخلف عن غزاة"[٩٦]، وقدمت بعض المصادر بعض التفاصيل عن تلك الأنشطة الجهادية، حيث ذكرت أنه اشترك في المعارك التي سبقت دخول المسلمين للقدس وكذلك معارك الساحل الشامي[٩٧]، ومن ناحية أخرى فإن الشيخ أبو محمد عبد الله بن عثمان بن جعفر اليونيني المتوفى سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، قد قيل عنه أنه لم تفته غزوة من الغزوات بين المسلمين والصليبيين إلا اشترك فيها[٩٨]، وكان يطلب الصليبيين في مكامنهم "ولا يبالي بالرجال قلوا أو كثروا"[٩٩]،

وكان له معداته الخاصة بالحرب والقتال ويفرح فرحاً شديداً إذا ما التقى بالصليبيين متمنياً الشهادة، ويلقي نفسه بالمهالك، ومن الأمور ذات الدلالة أن اليونيني، قد لقب بلقب "أسد الشام"[١٠٠]، ومن الطبيعي أن هذا اللقب جاء نتاجاً لدوره الجهادي ضد الصليبيين.

وقد كان طبيعياً والأمر كذلك أن وجدنا للفقهاء والعلماء دورهم الجهادي في المقاومة خلال عصر سلاطين المماليك، وقد وجد لهم نشاطهم الجهادي خلال حصار قلعة أرسوف عام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م، ويقرر أن عبد الظاهر[١٠١]، ومن بعده المقريزي[١٠٢]، أنهم حضروا أحداث الحصار وشاركوا فيه، بل لدينا أسماء بعض أولئك الذين حضروا وشاركوا في إسقاط القلعة الحصينة ومنهم الشيخ علي البكا، والشيخ الياس[١٠٣].

وسجل المقريزي[١٠٤]، حضور الفقهاء في فتح صفد سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م، فقال عن ذلك خلال حديثه عن فتح المسلمين لمدينة صفد: "وقدم الفقهاء للجهاد"[١٠٥]، كذلك خلال خروج الجيش لحصار الثقيف في سنة ٦٦٦هـ /١٢٦٧م.

كما شكل الفقهاء أحد عناصر المتطوعة من المقاومة الشعبية خلال حصار مدينة طرابلس سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م، بحيث حضر عدد من الفقهاء هذا الحصار ومنهم قاضي القضاة الحنبلي نجم الدين أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن أبي عمر بن محمد بن قدامة المقدسي، المتوفى سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م[١٠٦]، وفي خلال أحداث سقوط عكا في أيدي المماليك عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م، اشتركت عناصر "الفقهاء والمدرسين والعلماء"[١٠٧]، في تلك الوقائع التاريخية كمتطوعين من أفراد المقاومة الشعبية في مواجهة الاحتلال الصليبي.

ومن ناحية أخرى شهدت بلاد الشام فصلاً ثانياً من الدور الجهادي للفقهاء، عندما تم صدامهم مع عناصر الرهبان الفرسان من الاسبتارية والداوية، ثم إن أحداث المواجهة بين الطرفين تعتبر من اخطر الأحداث التي زخرت فيها قصة الصراع الإسلامي

الصليبي نظراً لنوعية الفرسان الصليبيين، ثم حقيقة موقف الفقهاء منهم وقتلهم لهم في بعض المعارك التي خاضها المسلمون(١٠٨)، وقد أدرك الفقهاء الشاميون خطورة هذه العناصر الرهبانية ومدى دورهم الحربي العنيف، ومن هؤلاء الفقهاء الشيخ عبد الله اليونيني(١٠٩)، ومن المحتمل أن إدراكه هذا كان يعكس إدراك قطاعات كبيرة من الفقهاء والعلماء بشأن التنظيمات الدينية الصليبية.

ثانياً: مشاركة الأدباء والشعراء في المقاومة:

حمل الأدباء والشعراء وهم من الطبقة المثقفة في مجتمع بلاد الشام على عواتقهم عبء الدعوة إلى الجهاد ومقاومة المحتلين، وتوحيد الجهود الإسلامية المشتتة، لمقاومة العدو الذي جاء ليقضي على المسلمين، ويحتل ديارهم، ومن هذا المنطلق بدأ الشعراء بمهمة التحريض على جهاد ومقاومة الصليبيين، وبثّ دعوة الجهاد والكفاح بين الناس(١١٠)، وكان لهذه القصائد التي امتلئت حماسة وقوة أثر عظيم في دفع الأهالي إلى مواصلة كفاحهم، وتكثيف جهودهم، حتى يستردوا ديارهم، ولم ينسَ شعراء الجهاد(١١١)، أن يخصصوا جزءاً من أشعارهم لمدح القادة العظام، وفي الوقت نفسه هاجموا المتخاذلين المتقاعسين، كما نلاحظ أيضاً أن شعر الجهاد خلّد عظماء المسلمين، الذين استشهدوا في سبيل الله؛ بقصائد رثائية رائعة(١١٢). كان الشاعر ابن الخياط(١١٣)، من أوائل الشعراء الذين دعوا إلى الجهاد فقد سمع بمجيء الصليبيين فثارت حميته، وأنشد قصيدة طويلة قدمها إلى عضب الدولة مقدم جيوش دمشق، حثّه فيها على الجهاد، وذكر فيها بأن جيوش المشركين قد أقبلت إلى بلاد المسلمين، وهي كالسيل المنحدر، بل هي أعظم منه وأكبر حيث يقول:

وإني كمهده إليك القريض ... يطوي على النصح والنصح يهدى
إلى كم وقد زخر المشركون ... بسيل يهال له السيل مدا
وقد جاش من أرض إفرنجة ... جيوش كمثل جبالٍ تردا(١١٤)

ثم بعد هذه الأبيات التي لم يرد لها صدى يثور الشاعر ثورة عنيفة، ويستنكر الحالة المزرية التي وصل إليها المسلمون، وهو يرد بذلك دفع الناس لسرعة الاستعداد لمقاومة الصليبيين، فيقول:

أنوماً على مثل هدّ الصفاة وهزلاً وقد أصبح الأمر جداً
وكيف تنامون عن أعينٍ وترتم فأسهر تموهن حقداً(١١٥)

وحتى يستثير الشاعر ابن الخياط همم ونخوة الأهالي للمقاومة، يصف لهم أفعال الصليبيين التي ارتكبوها في بلاد الشام، ووصف حالة الشعب المسلم وتعاسته وشقائه، فيقول:

بنو الشرك لا ينكرون الفساد ولا يعرفون مع الجوار قصدا
ولا يردعون عن القتل نفساً ولا يتركون من الفتك جهدا
فكم مم فتاة بهم أصبحت تدق من الخوف نحراً وخدا
وأم عوائق -الشابة العزباء- ما إن عرف ن حراً ولا ذقن في الليل برداً
تكاد عليهن من خيفة تذوب وتتلف حزناً ووجداً
فحاموا عن دينكم الحريم محاماة من لا يرى الموت فقدا
وسدّوا الثغور بطعن النحور فمن حق ثغرٍ بكم أن يسدا
فقد أينعت أروس المشركين فلا تغفلوها قطافاً وحصداً
فلا بدّ من حدّهم أن يفلّ ولا بدّ من ركنهم أن يهدا(١١٦)

ثم يقول الشاعر في آخر قصيدته بأن العز في هذه الأيام مقترنات بجهاد الصليبيين، وإن الذي يريد العزة لنفسه يجب عليه أن يخلع الحديد عن جسمه، وأن يواصل الجهاد حتى طرد المحتل، فيقول في ذلك:

فما ينزع اليوم عنه الحديد من رام أن يلبس العز رغداً

وأيســـر مـــا كابدتـــه النفـــوس   من الأمـــر مـــالم تجـد منـــه بـــدّا[١١٧]

ومن المؤكد أن قصائد ابن الخياط قد أثّرت تأثيراً كبيراً في أهل دمشق لذلك نجـــدهم يدافعون عنها ببسالة عندما قرّر الصليبيون اجتياحها كما بيّنا ذلك من قبل.

وعندما احتّل الصليبيون بيت المقدس بعد المعرة ســـنة ٤٩٢هــــ/١٠٩٩م، تأججــت عواطف المسلمين وثارت ثائرتهم وكان لهذا الحدث الجلل رد شعبي كبير، وكان من بينهم الشعراء الذين عبّروا عن حزنهم العميق وندبوا أنفسهم وأقلامهم لتحريض الناس على المقاومة، ومن هؤلاء الشعراء شاعر أبو المظفر الأيبـــوردي[١١٨]، الـــذي قـــال قصيدة، مطلعها:

مزجنـــا دمـــاء بالـــدموع الســـواجم   فلم يبـــقَ منـــا عرصـــة للمـــراجم[١١٩]

وشرّ ســـلاح المـــرء دمـــع يفيضـــه   إذ الحـــرب شـــبت نارهـــا بالصـــوارم

فاءيهـــا بنـــي الإســـلام، إنّ وراكـــم   وقـــائع يلحقـــن الـــذري بالمناســـم[١٢٠]

والشاعر الأيبوردي كغيره من شعراء الجهاد في قصدته الطويلة والتي اقتصرنا فيهـــا على مطلعها فقد، يعبّر عن أحاسيسه التي يثيرها في نفسه اعتداء الصليبيين على بلاد الشام وأهلها، ولذا فإن كلماته كانت تأتي صادقة عن الواقع الذي يعيشونه دون مبالغة أو تزييف في المشاعر لجمع المال أو نيل الشهرة[١٢١].

وغـــداً يلقـــي علـــى القـــدس لهـــا   كلكـــل يدرســـها درس الـــدرين[١٢٢]

همســـة تمســـي وتضـــحي عزمـــةً   ليس حصنٍ –إن تحطـــه- بحصـــين[١٢٣]

واستغل الشعراء كل فتح من الفتوح الإسلامية لتذكير الناس بمتابعة الجهاد ومواصـــلة المقاومة لتحرير باقي المدن ومنها مدينة القدس الشريف، فعندما فتح عماد الدين زنكي الرها أنشد ابن القيسراني قصيدة، ومما قاله:

أمـــا آن أن يزهـــق الباطـــل   وأن ينجـــز العـــدة الماطـــل

فـــإن يـــك فـــتح لجـــة   فســـاحلها القـــدس والســـاحل[١٢٤]

وانتهز الشعراء بعض الانتصارات التي حققها المسلمون ليحرضوهم على مواصلة المقاومة، فقال ابن القيسراني أبياتاً ينهئ نور الدين محمود على انتصاره على صاحب إنطاكية سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م[١٢٥]، ويحرضه على النهوض بفتح القدس الشريف، ومما قاله:

أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة فؤاد رومية الكبرى لها يجب
فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجب يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب[١٢٦]

ولما أسر نور الدين الأمير الصليبي جوسلين[١٢٧]، عاود ابن القيسراني ليذكّر المسلمين بفتح القدس وأن هذا الفتح لا يتحقق إلا بالمقاومة وبذل الدم، فيقول:

كأني بهذا الغرام لا فلّ حدّه وأقصاه بالأقصى، وقد قضي الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهراً وليس سوى جاري الدماء له طهرا[١٢٨]

وهذا العماد الأصفهاني يمدح نور الدين محمود بعد استرداده لقلعة منبج سنة ٥٦٣هـ/ م[١٢٩]، ويحثّه على مواصلة جهاده ويحرضه على فتح باقي البلاد ومنها القدس الشريف، فقال:

فانتهض إلى البيت المقدس غازياً وعلى طرابلس ونابلس عج[١٣٠]

وهنأ العماد الأصفهاني نور الدين محمود توحيده مصر مع الشام واستغل ذلك بالقول: إن هذه الوحدة هي السبيل إلى تحرير القدس الشريف، ومما قاله:

اغز الفرنج فهذا وقت غزوهم وحطّم جموعهم بالذابل الحطم
وطهّر القدس من رجس الصليب وثب على البغاث وثوب الأجدل القطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما في عقد عز مـ الاسلام منتظم[١٣١]

ولم يقتصر التحريض على الوقائع المذكورة آنفاً، وإنما كان يظهر حتى في المدح الشخصي، ومن ذلك ما امتدح به ابن منير الطرابلسي نور الدين محمود حين هنأه بحلول شهر رمضان، ومما جاء فيها:

فذاك من صام ومن أفطر ومن سعي سعيك، أو قصرا

أبقاك للدنيا وللدين من خلاك في ليلهما نيرا

حتى ترى عيسى من القدس نجا إلى سيفك مستنصراً[١٣٢]

توفي نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م[١٣٣]، ولم يحقق الله على يديه آمال المسلمين ومنهم الشعراء في فتح القدس الشريف، فجاء بعده صلاح الدين الأيوبي، الذي تطلعت المقاومة الشعبية على لسان قادة الحركة الفكرية ومن بينهم الشعراء والأدباء إليه ليحقق آمالهم في التحرر، وبدؤوا يحرضونه على تحقيق هذا الأمل، فقد مدح العماد الأصفهاني السلطان صلاح الدين وحرضه على الجهاد بقصيدة طويلة، من أبياتها:

ويوم الفرنج إذا ما لقوك عبوس برغمهم قمطرير

نهوضاً إلى القدس يشفي الغليل، بفتح الفتوح، وماذا عسير؟[١٣٤]

وسبق للشعراء والأدباء أن استبشروا ورأوا في صلاح الدين الأيوبي البطل الذي سيحقق للأمة انتصاراتها ويخلّصها من الاحتلال الصليبي لمقدساتها، لذا سبق وأن مدحوه حتى في حياة نور الدين زنكي عندما كان مندوباً عنه في مصر، ووزيراً للدولة الفاطمية، ففي سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م، عندما غزا صلاح الدين بعض بلاد الشام المحتلة، وانتصر على من فيها من الصليبيين، مدحه عمارة اليمني[١٣٥]، بقصيدة شعرية، قال في بعض أبياتها:

أضفت إلى أجر الجهاد زيارة الـ خليل فأبشر أنت غاز موفق

وهيجت للبيت المقدس لوعة يطول بها منه إليك التشوق

وغزوك هذا سلم نحو فتحه قريباً وإلا رائد ومطرق
هو البيت إن تفتحه فالله فاعل فما بعده باب من الشام مغلق[١٣٦]

ولم يقتصر التحريض على تحرير القدس فقط، بل شمل أيضاً مطالبة الشعراء حكامهم بتحرير الثغور التي تشكل تهديد بالنسبة للناس الآمنين، فعندما ملك صلاح الدين حصول إنطاكية، وفتح قلعة (برزوية)[١٣٧]، مدحه أحد الشعراء، وحرضه على فتح مدينة صور، بقوله:

فانهض لصور، فهي أحسن صورة في هيكل الدنيا لمصور
ما سور صورٍ عاصم منه وهل سور المعاصم عاصم لمسور؟[١٣٨]

وقد كان للشعراء والأدباء دورهم في إثارة حماس زعماء المسلمين حتى وهم يعانون من الأسر، فقد "كان في بيت المقدس شاب مأسور من أهل دمشق كتب هذه الأبيات وأرسل بها إلى السلطان صلاح الدين على لسان القدس، فقال:

يا أيها الملك الذي لمعالم الصلبان نكس
جاءت إليك ظلامة وأنا على شرفي منجس

فكانت هذه الأبيات هي الداعية إلى فتح بين المقدس، ويقال: إن السلطان وجد في ذلك الشاب أهلية فولاّه بعد فك أسره خطابة المسجد الأقصى"[١٣٩].

لم يكن التحريض والحثّ على المقاومة مقصوراً على أمراء المسلمين أو ملوكهم، بل تعداه إلى خليفة المسلمين، فعندما قصد الصليبيون جبل الطور قرب عكا سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م، وقاتلوه المسلمين فيه، وحاصروهم[١٤٠]. فأرسل أحد الشعراء كتاباً إلى الخليفة فيهما بيتين من الشعر وهما:

قل للخليفة لا زالت عساكره لها إلى النصر إصدار وإيراد
إن الفرنج بحصن الطور قد نزلوا لا تغفلن فحصن الطور بغداد[١٤١]

وفي عصر المماليك لم يدخر الشعراء والأدباء وسعاً في تحريض السلاطين على مواصلة الجهاد والمقاومة تأسياً بأسلافهم حتى يتم القضاء على المحتلين قضاءً مبرماً، فعندما فتح المماليك طرابلس الشام سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، وخرّبوا حصنها، ابتهج لذلك الشعراء، ومما قالوه في حده أحدهم(١٤٢):

ألا هكذا ياوارث الملك فليكن جهاد العلا وما توالى به الدهر

نهضت إلى عليا طرابلس التي أقل عناها أن خندقها البحر(١٤٣)

وقد ذكر ابن تغري بردي(١٤٤): أن القصيدة طويلة كلها على هذا المنوال، وأشار إلى أن الشعراء عملوا في الفتح عدة قصائد، إذ إن أخباره كتبت فيها البشائر، وزينت المدن وعملت القلاع في الشوارع(١٤٥).

تلك هي صورة عابرة اقتطفناها من الأحداث الكبرى، وننتهي من ذلك كله لنؤكد على أن الشعراء في ذلك العصر خرجوا عن نطاقهم التقليدي، وأدّوا واجبهم كاملاً في حومة الصراع المرير، وكان لشعرهم أثر كبير في تهيئة النفوس وتحريضها على الجهاد ومقاومة المحتل، لأنهم يعبرون في قصائدهم عما يختلج في نفوسهم من بغض الأعداء، ورغبة ملحّة في طردهم من بلاد المسلمين. كما كانوا يعبرون في الوقت نفسه عن أماني الشعب المسلم وتطلعاته في استعادة بلاده ومقدساته، وقد خرج شعر الجهاد من رحم المعاناة التي عايشها هؤلاء الشعراء من بلاد الشام ومعبراً(١٤٦).

لم يقتصر دور الشعراء والأدباء في مشاركتهم في المقاومة الشعبية على مجرد التحريض وشحذ همم الحكّام بين الناس من أجل طرد جيش المحتلين، بل تعدّى ذلك إلى مجال أكثر حيوية ألا وهو المشاركة في المعارك، فحين قصد الصليبيون دمشق في عام ٥٤٨هـ، وكان من بينهم الشاعر الأندلسي أبي الحكم بن المظفر(١٤٧). الذي وصف لنا هذا الاجتياح، وأكد على مشاركة كافة شرائح المجتمع ومنهم الشيخ الفندلاوي ، ويقول فيها:

وقلنا إذا رأيناهم لعل الله يكفينا

سـمالهم معـين قـد أعـان الخلـق والـدنيا
وفتيـان تخـالهم لـدى الهيجيـا شـياطينا
وشـيخاً منـذ لاويـاً فقيهـاً يعضـد الـدنيا
وفتيانـاً تغـانوا مـن دمشـق نحـو سـبعينا
ومـنهم مئتـا علـج وخيـل نحـو تشـعينا
وبـاقيهم إلـى الآن مـن القتـل يفرونـا[١٤٨]

وتظهر مشاركة الأدباء والشعراء من خلال ما أورده البنداري[١٤٩]، من قول العماد الأصفهاني بأنه عند نزول الصليبيين من حماة ليقصدوا حلب سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م، كنا سائرين في رفقة من أهل الأدب، ترى ماذا كان يفعل هؤلاء الأدباء في رفقة جيش صلاح الدين المتجهة لنجدة مدينة حلب؟!

ومن الشعراء من شارك في معركة حطين، ثم صحب صلاح الدين لفتح القدس الشريف في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/١١٨٧م، ويظهر من خلال ما أورده الشاعر ابن الساعاتي، حيث تعرّض الشاعر في قصيدته لحادثة وقعت له وهو في طريقه إلى صلاح الدين، فأتت على كل ماله، وأصبح معدماً[١٥٠]، ويتضح ذلك من قوله:

فيا كاشف الجلى ويا محـي الهـدى ويـاقاتل البلـوى، ويـا كاشـف الغمـا
رمتنـي الليـالي والليـالي مصـيبة فكم لسهام الحـزن فـي كبـدي كلمـا
وأصبحت من مالي وصبري معدوماً وفي رأسي باغي ثـروة عـدلت قـدما
لقد جـازت الأقـدار فـيّ بحكمهـا ولم تـزل الأقـدار تقهرنـا حكمـا[١٥١]

ومهما يكن من أمر، فقد دلّت الأبيات الشعرية التي أوردها الكثير من شعراء الجهاد أمثال ابن القيسراني وابن منير الطرابلسي وابن الساعاتي وغيرهم من الشعراء حول وصف المعارك والأسلحة، آلات الحصار وصفاً دقيقاً كما وصفوا سقوط الحصون

والمعاقل الصليبية؛ على أن هؤلاء الشعراء قد شاركوا إلى جانب القوات الرسمية في تلك المعارك وإلا فمن أين لهم.بهذه المشاهدة والأوصاف التي تنمّ على أنهم رأوها رأي العين، ولم يصفها لهم أحد، ،غلا لما أجادوا الوصف(١٥٢).

وكم تحدث الشعراء عن المعارك وحرضوا المسلمين وقادتهم على المقاومة والجهاد، فإنهم حملوا على الأمراء والملوك المتقاعسين الذي لا يشاركون في الجهاد، فانتقدوهم بشدة وشنعوا عليهم، فهذا ابن أسعد الموصلي(١٥٣)، يمدح صلاح الدين سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م، ثم يتحدث عن الملوك المتقاعسين عن الجهاد، فيقول:

ليفد حياء وجهك كل وجهه إذا سئل الندى جهم وقاح
ملوك جلهم مغري بظلم ومشغول بلهو أو فرح(١٥٤)

ومن أشكال التنديد ما قاله بعض الشعراء حول تسليم بعض الأمراء لبعض الحصون وبيعها للصليبيين دون الدفاع عنها، فقال العماد الأصفهاني سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م، عندما سلّم الأمير عز الدين أسامة بيروت إلى الصليبيين دون قتال:

إن بيع الحصون من غير حرب سنة سنّها ببيروت سامة
لعن الله كل من باع ذا البيع وأخوى بخزيه من سامة(١٥٥)

كما ندّد الشعراء بموقف الملك الكامل، الذي سلّم القدس للصليبيين سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، وكان موقفهم هذا ضمن الموقف الشعبي العام الذي رفض ذلك العمل، واستشهد سبط ابن الجوزي(١٥٦)، بأبيات شعرية قيلت عندما خرب الملك المعظم عيسى القدس سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م(١٥٧)، عندما علم بوصول الصليبيين، ومن هذه الأبيات:

لتبك على القدس البلاد بأسرها وتعلن بالأحزان والترحات
على قبة المعراج والصخرة التي تفاخر ما في الأرض من صخرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات(١٥٨)

وبعد أن استعاد الملك الناصر داوُد القدس سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م، ابتهج الأهالى ومن بينهم الشعراء بهذا الفتح الجديد، وعبّر عن ذلك قول ابن مطروح[١٥٩]:

المسجد الأقصى له عادة[١٦٠] ... سارت فصارت مثلاً سائراً

إذا غدا بالكفر مستوطناً ... أن يبعث الله له ناصراً

فناصر طهره[١٦١] أولاً ... وناصر طهره[١٦٢] أخراً[١٦٣]

الخاتمة:

- لم يقتصر دور العلماء في فترّة الحروب الصليبية على مهمة الوعظ والإرشاد وشحذ الهمم وتقوية النفوس فحسب، وإنما حملوا السلاح، وقاتلوا حتى نالوا شرف الشهادة في سبيل الدفاع عن المسجد الأقصى المبارك. وهذا راجع إلى استشعارهم وفهمهم لركن الجهاد الذي رسخه الإسلام كمفهوم أساسي وواجب على جميع المسلمين عالمهم وجاهلهم، وهو ما دفع الفقهاء للانضمام للجيش الإسلامي كمتطوعين، وبذلك نرى أن الفقهاء لعبوا دوراً في المقاومة وخاصة في معركة تحرير مدينة القدس تحت قيادة البطل صلاح الدين الأيوبي.
- ومن جهة أخرى شهدت بلاد الشام فصلاً ثانياً من الدور الجهادي للفقهاء، عندما تصدّوا للمنظمات الدينية العسكرية الصليبية أمثال الداوية والاستبارية.
- كما كان لدور الشعراء والأدباء الأثر الأكبر في تحقيق الكثير من الانتصارات في المعارك التي خاضها المسلمين ضد الصليبيين. كما استغل الشعراء والأدباء كل فتح أو انتصار للمسلمين في حثّ الناس على متابعة الجهاد ومواصلة المقاومة لتحرير كافة الأراضي المحتلة.
- ونلاحظ ونستنتج مما سبق أن الأدباء والشعراء شاركوا في المقاومة الشعبية، ولأنهم هم قادة الحركة الفكرية الطبقة المثقفة في المجتمع الشامي، فإنهم قادوا المقاومة الشعبية إلى جانب الفقهاء والعلماء وعضدوا إما بعلمهم وإما بأرواحهم[١٦٤].

الحواشي

(١) انظر: موسى باشا، **الأدب**، ص ٧٩٩.

(٢) عن أهمية دور المسجد وخاصة من الناحية السياسية والجهادية. انظر: أبو القريا، **الدور السياسي للمسجد**.

(٣) ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص ١٩. ابن العبري، **تاريخ مختصر**، ص ١٩٧. أبو الفداء، **المختصر**، ج٢، ص ٢٨. ابن تميم المقدسي، **مثير الغرام**، ص ٣٦٧. العليمي، **الأنس الجليل**، ج١، ص ٣٠٨.

(٤) ابن الأثير، **الكامل** ج٩، ص ١٩. ومن بين هؤلاء العلماء مكي بن عبد السلام الرميلي، وأبو بكر محمد بن أحمد الطوسي، وأبو القاسم سعد بن أحمد النسوي، وديسم بن مجاهد المقدسي، وأبو القاسم عبد الجبار بن أحمد الرازي. انظر: ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج ٢٠، ص ٤٠٤، ج٥١، ص ٨٩. ج ٦٠، ص ٢٥٦. السبكي، **طبقات الشافعية**، ج ٥، ص ٩٨، ٣٣٣. ابن الصلاح، **طبقات الشافعية**، ج ٢، ص ٨٨٦. ابن تغري بردي، **النجوم**، ج٥، ص ١٦٤. العليمي، الأنس، ج١، ص ٢٩٨. ابن العماد، **الشذرات**، ج٢، ص ٣٩٨.

(٥) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ٣٢٢.

(٦) البنداري، **سنا البرق**، ص ٣٣. ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص ٧.

(٧) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ٣٢٢. ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص ٨.

(٨) شرف الدين ابن أبي عصرون، **الروضتين**، ج٤، ص ١٠٩. وورد ذكره في مواضع كثيرة تدل على الدور الكبير الذي لعبه في المقاومة في ج١، ص ٥٨، ٦١، ٧٣، ٧٦، ٧٧، ٢٧٥، ٢٧٦، و ج٢، ص ٣١، ٣٢، ١١٩، ١٢٠، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٩، ٣٢٢، ٣٢٩، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٢، وج٣، ص ٦، ٢٤٨، ٢٩٩، وج٤، ص ١٠٨.

(٩) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ٣٢٢. وقد أورد نص الكتاب كاملاً في ج٢، ص ٣٢٩. وفي الكتاب عتاب يعبر عن مدى احترام صلاح الدين لدور العلماء والفقهاء في المقاومة الشعبية والتحريض عليها.

(١٠) لا يزال هذا الكتاب مخطوطاً، موجود منه في المكتبة الظاهرية بدمشق برقم (٣٧٩٦ عام) أربعة أجزاء فقط، كاهن في كتاب الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية مقتطفات صغيرة جداً مما اعتبره رسالة في الجهاد السلمي، ص ٢٨١-٢٨٢.

(١١) حلواني، ابن عساكر، ص ٤٠-٤١. عوض، الحروب الصليبية، ص ٥٣. وممن تأثر بهذه الرؤية ابن الأثير عندما أشار إلى الأصول الأندلسية لمرحلة الصليبيات واعتبرها حرباً ثأر بين المسيحية والإسلام. انظر: **الكامل**، ج٩، ص ١٣.

(١٢) حلواني، ابن عساكر، ص ٤١.

(١٣) **المرجع نفسه**، ص ٤٢.

(١٤) حلواني، ابن عساكر، ص ٤٣.

(١٥) انظر: بدوي، **الحياة الأدبية**، ص ٥٣٦. **الحياة العقلية**، ص ١٥٧. **عوض السياسة**، ص ٢٧٧. كاهن، **الشرق**، ١٨٦.

(١٦) تحقيق الحلواني، في كتابه ابن عساكر، وانظر: الذهبي، **تذكره الحفاظ**، ج٤ ص١٠٩.

(١٧) ابن الصلاح، **طبقات الشافعية**، ج٢، ص ٧٦٢. الذهبي، **العبر**، ج٣، ص ١١٥. اليافعي، **مرآة الجنان**، ج٣، ص ٤٨٥.

(١٨) سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨، ق ١، ص ٣١٣. ابن قاضي **شبهة**، الكواكب الدرية، ص ٥٧.

(١٩) **النوادر**، ص ١٦.

(٢٠) ابن شداد، **النوادر**، ص ١٧، ٧٠.

(٢١) خليفة، **كشف الظنون**، ج٢، ص ٤١٠.

(٢٢) بدوي، **الحياة الأدبية**، ص ٥٣٧.

(٢٣) الأنصاري، (٤٣٢-٤٩٢هـ/١٠٩٩م)، الشيخ أبو القاسم مكي بن عبد السلام بن الحسين، فقيه شافعي. انظر: ترجمته في: السبكي، **طبقات الشافعية**، ج٥، ص ٣٣٢-٣٣٣. ابن الصلاح، **طبقات الشافعية**، ج٢، ص ٨٨٦. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص ١٦٤. الحريري، **الإعلام**، ص ٦٦. العليمي، الأنس الجليل، ج١، ص ٢٩٨. ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٢، ص ٣٩٨.

(٢٤) العليمي، الأنس الجليل، ج١، ص ٢٩٨.

(٢٥) أبو القاسم الرازي، (ت سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م). عبد الجبار بن أحمد الشافعي، انظر: السبكي، **طبقات الشافعية**، ج ١، ص ٢٩٩.

(٢٦) السبكي، **طبقات الشافعية**، ج ٥، ص ٩٨، العليمي، الأنس الجليل، ج١، ص ٢٩٩.

(٢٧) حول دور المغاربة في مقاومة الصليبيين في بلاد الشام، انظر: ابن جبير، **الرحلة**، ص ٢٤٧. أحمد، **الأندلسيون والمغاربة**، ص ١٣٣. العبادي، **دور المغاربة**، ص ٨١-١٠٢. المغربي، **طائفة المغاربة**، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس، مصر، عام ٢٠٠٠م.

(٢٨) ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص ٩٧.

(٢٩) **المصدر نفسه**، ج٩، ص ٩٧.

(٣٠) **المصدر نفسه** والجزء والصفحة.

(٣١) الشهرستاني: نسبة إلى شهرستان من بلدان خراسان فيما يلي خوارزم يقال رباط شهرستانية واسمه الحسين بن الحسن كان قاضياً لدمشق زمن تاج الدولة تتش سنة ٤٧٧هـ، انظر ترجمته في: ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج١، ص

٣١٤. السبكي، **طبقات الشافعية**، ج ٧، ص ٧٣-٧٤. ابن الأثير، **اللباب**، ج٢، ص ٢١٧.

(٣٢) ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج١، ص ٣١٥.وانظر: السبكي، **طبقات الشافعية**، ج ٧، ص ٧٤.

(٣٣) العليمي، لأنس الجليل، ج١، ص ٢٠٨.

(٣٤) عبد القادر، **سياسة صلاح الدين**، ص ٥٨.

(٣٥) قاسم، **ماهية الحروب**، ص ١٣٦.

(٣٦) أبو سعد محمد بن نصر بن منصور الهروي أحد كبار القضاة المشهورين في الشام، قتله الباطنية سنة ٥١٩هـ، انظر: ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص ٢٣٤.

(٣٧) ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص ١٩. وانظر: سبط، ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج١، ص ٣٢٧-٣٢٨. أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص ٢٨. العليمي، لأنس الجليل، ج١، ص ٣٠٨.

(٣٨) كان الخليفة المعاصر لتلك المحنة هو المستظهر بأمر الله أبو العباس أحمد العباسي.

(٣٩) العليمي، لأنس الجليل، ج١، ص ٣٠٨. ومن الفقهاء الذين أخرجهم لتحريض أمراء السلاجقة على نجدة الشام، القاضي أبو محمد الدمغاني، وأبو بكر الشاشي وأبو القاسم الزيجاني وأبو سعيد الحلواني، وأبو الحسين بن سماك. انظر: ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص ١٩. النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص ٥٣٦. ابن خلدون، **العبر**، ج٥، ص ١٢٧.

(٤٠) كاهن، **الشرق والغرب**، وثيقة رقم (٤)، ص ٨٥.

(٤١) سلطان السلاجقة غياث الدنيا والدين محمد بن ملك شاه.

(٤٢) ابن القلانسي، **الذيل**، ض ١٧٣. الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٢، ص ٥٣٦. ابن العديم، **زبدة الحلب**، ص ١٥٨.

(٤٣) سبط الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٢، ق ١، ص ٥٣٦. ابن العديم، **زبدة الحلب**، ج٢، ص ١٥٧-١٥٨.

(٤٤) الحريري، **الإعلام**، ص ٧٣.

(٤٥) سبط الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨، ق ١، ص ١٦٣.

(٤٦) حول هذه الاتفاقية وما أحدثته من ضجة وردة فعل شعبية غاضبة، انظر: سبط الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨، ق ١، ص ٤٣٢. ابن الأثير، **الكامل**، ج١٠، ص ٤٨١. ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٤، ص ٢٤١-٢٤٦. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ١٢٣-١٢٤. ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص ٢٤٤. أبو الفداء، **المختصر**، ج٢، ص ٢٤٠. الحموي، **التاريخ**، ص ١٧٦. المقريزي، **السلوك**، ج١، ص ٣٥٣-٣٥٤.

(٤٧) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٤، ص ٢٤٣-٢٤٤. المقريزي، **السلوك**، ج١، ص ٣٥٤.

(٤٨) ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص ٣٧٨. وانظر: الغساني، **العسجد المسبوك**، ج٢، ص ٤٣٦. ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٤، ص ٢٤٣. المقريزي، **السلوك**، ج١، ص ٣٥٤.

(٤٩) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٤، ص ٢٤٣.

(٥٠) المقريزي، **السلوك**، ج١، ص ٣٥٤.

(٥١) سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨، ق ٢، ص ٦٥٤.

(٥٢) كان من جملة ما قاله سبط ابن الجوزي بهذه المناسبة الحزينة "انقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين، ياوحشة المجاورين، كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة، وكم خرت لهم على تلك المساكن من دمعة، الله لو صارت عيونهم عيوناً لما وفت، ولو انقطعت قلوبهم أسفاً لما شفت، أحسن الله عزاء المؤمنين، ياخجلة

ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات، لمثلها تنقطع القلوب من الزنرات، لمثلها تعظم الحسرات"، **المصدر نفسه**، ج٨، ق ٢، ص ٦٥٤.

(٥٣) مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٤٦. وانظر: أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص ٢٤٠. المقريزي، **السلوك**، ج١، ص ٣٥٦. العليمي، **الأنس الجليل**، ج١، ص ٤٠٧.

(٥٤) الملك الصالح اسماعيل (الأول) عماد الدين، وقيل أبو الجيش ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد (الأول) ابن الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شاذي، سادس ملوك الأيوبيين في دمشق وبصرى، وخامسهم في بعلبك قتل بمصر سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م)، كان في البداية حاكم لبعلبك وبصرى، ثم حكم دمشق خلفاً لأخيه المتوفى الملك الأشرف في سنة ٦٣٥هـ، وقد رفض الكامل صاحب دمشق تولي الصالح اسماعيل لدمشق، فهاجمها وأخذها منه ثم رحل الصالح اسماعيل إلى بعلبك وعاد متحالفاً مع المجاهد صاحب حمص ليأخذ دمشق من الكامل سنة ٦٣٧هـ /١٢٣٩م، وحتى يضمن الاحتفاظ بدمشق لنفسه قام بالتحالف مع الصليبيين وعقد معهم اتفاقاً. انظر: ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٣، ص ٢٧٥. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ٢١٠. الصفدي، **تحفة ذوي الألباب**، ج١، ق ٢، ص ١٢٩-١٣٠. المقريزي، **السلوك**، ج١، ص ٤٠٧. ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٥، ص ٢٤١.

(٥٥) العز بن عبد السالم: هو شيخ الإسلام أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، عز الدين، الملقب بسلطان العلماء، ولد في دمشق سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م، وتولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع الأموي، ثم نزل مصر، فولاه صاحبها الصالح نجم الدين أيوب القضاء والخطابة ومكنه من الأمر والنهي، ثم اعتزل ولزم بيته، وكان من أكثر المحرضين على حرب الفرنج ثم التتار حتى وفاته سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م. انظر

ترجمته: أبو شامة، **الذيل**، ص ٢١٦. ابن واصل **مفرج الكروب**، ج٥، ص ٣٠٢-٣٠٣. أبو الفداء، **المختصر**، ج٢، ص ٣٢٦. السبكي، **طبقات الشافعية**، ج٨، ص ٢٤٠-٢٤٥. اليونيني ذيل، **مرآة الزمان**، ج١، ص ٥٥. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ٢٣٥. المقريزي، **السلوك**، ج١، ص ٤١١. ابن تغري بردي، **النجوم**، ج٨، ص ٧٢٠. الكتبي، **فوات الوفيات**، ج٢، ص ٢٨٧. العيني، **عقد الجمان**، ج١، ص ٣٣٨-٣٣٩.

(٥٦) السبكي، **طبقات الشافعية**، ج٨، ص ٢٤٣. وانظر: ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٥، ص ٣٠٢-٣٠٣. المقريزي، **السلوك**، ج١، ص ٤٠٧. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ٢٣٦. العيني، **عقد الجمان**، ج١، ص ٣٣٩.

(٥٧) ابن الحاجب: هو عثمان بن عمر، جمال الدين، فقيه مالكي، من كبار العلماء، ولد في أسنا بصعيد مصر سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م، وسكن دمشق، ومات بالاسكندرية سنة ٦٤٩هـ/١٢٤٩م، وله مصنفات كثيرة. انظر: ابن خلكان، **وفيات**، ج٢، ص ٤١٢-٤١٤. ابن تغري بردي، **المنهل**، ج٤، ص٤٤. **النجوم**، ج٦، ص ٣٦٠. الإدفوي، **الطالع**، ص ٣٥٢-٣٥٧.

(٥٨) السبكي، **طبقات الشافعية**، ج٨، ص ٢٤٣. وانظر: المقريزي، **السلوك**، ج١، ص ٤٠٧.

(٥٩) انظر نص الرسالة التي أرسلها الناصر للعز بن عبد السلام في الملاحق. وعن الهجوم الذي شنته الداوية على نابلس. انظر: اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ج١، ص ١٥٧-١٥٨. السبكي، **طبقات الشافعية**، ج٨، ص ٢٤٣. [illegible]شاوي، **نابلس**، ص ١٦٠-١٦١. العزة، **نابلس**، ص ٥٦.

(٦٠) السبكي، **طبقات الشافعية**، ج٨، ص ٢٤٤.

(٦١) **المصدر نفسه**.

(٦٢) **الذيل**، ص ١٧١.

(٦٣) البلاط: مدينة عتيقة بين مرعش وإنطاكية من أعمال حلب، ياقوت، **معجم**، ج١، ص ٤٧٧.

(٦٤) ابن العديم، **زبدة الحلب**، ج٢، ص ١٨٨.

(٦٥) يوسف بن درناس، أو دوناس المغربي أبو الحجاج فقيه، أصله من المغرب قدم من دمشق ليحج منها، فسكن بانياس مدة، وكان خطيباً لها، انتقل إلى دمشق ودرّس لها المذهب امالكي. انظر ترجمته في: ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج١٤، ص ٤٩، ج٣٧، ص ٣٤٢. ابن القلانسي، **الذيل**، ص ٢٩٨. ابن منقذ، **الاعتبار**، ص ٤٩. ابن الأثير، **ألكامل**، ج٩، ص ٣٥٣. ياقوت، **معجم البلدان**، ج٤، ص ٢٧٧. أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص ١٨٦، ١٩١. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٢، ص ٤٥٢. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٢٠، ص ٢٠٤-٢٤١٠. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٢، ص ٢٢٤. النعيمي، **الدارس**، ج٢، ص ٢٦٩. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص ٢٨٢. الحريري، **الإعلام**، ص ٧٦. ابن العماد، **شذرات**، ج٢، ص ١٣٦.

(٦٦) الحلحولي: عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الحلحولي نسبة إلى قرية في الخليل. انظر ترجمته: ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج٢، ص ٨٦. ياقوت، **معجم البلدان**، ج٢، ص ٢٩٠. أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص ١٨٦. وهامش (٢) من نفس الصفحة.

(٦٧) **الاعتبار**، ص ١٤.

(٦٨) عزاز، العزاز الأرض الصلبة وهي بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب. ياقوت، **معجم**، ج٤، ص ١١٨.

(٦٩) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ٢٤٣.

(٧٠) بغية الطلب، ج١٠، ص ٤٤١٩.

(٧١) ابن القلانسي، **الذيل**، ص ٣٤٠. أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص ٣٤١.

(٧٢) **الرحلة**، ص ١٩٩.

(٧٣) عوض، **الحركة الصوفية**، ص ١٠٢.

(٧٤) العماد الأصفهاني، **البرق**، ج٣، ص ٥٣-٥٤. البنداري، **سنا البرق**، ص ١٣١. ابن شداد، **النوادر**، ص ٤٢-٤٣. ابن الأثير، **الكامل**، ج١، ص ٨٦. ابن العديم، **زبدة الحلب**، ج٣، ص ٣٦. ابن أيوب، **منتخبات**، ص ٢٤٧. ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص ٥٩. الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ١١٥. المقريزي، **السلوك**، ج١، ص ١٧٥.

(٧٥) هو ضياء الدين أبو محمد عيسى بن محمد بن محمد بن أحمد وينتهي نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب، ويقال له الهكاري، كان في مبدأ أمره مدرساً بالمدرسة الزجاجية بحلب ثم اتصل بأسد الدين شيركوه وأصبح إمامه في الصلاة، وبعد وفاة الأخير، نجح الفقيه عيسى بإقناع الأمراء بتولية صلاح الدين الوزارة في مصر، وأصبح بعدها من المقربين لصلاح الدين. للمزيد حول الفقيه عيسى انظر: ابن خلكان، **وفيات**، ج٣، ص ٤٩٧. ابن الأثير، **الكامل**، ج١٠، ص ٨٦، ١٤٠، ١٩٠، ٢٥٧. أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ٥٨، ٧١، ١٠٢، ١٠٥، ٢٨٠-٢٨١، ٤٢٨. ج٣، ص ٢٨، ١٧٠، ٣١٠، ٣٣٢، ٣٩٨،، ج٤، ص ٩، ٦٩، ٨٧، ٩٠، ١٠٩-١١٠. السبكي، **طبقات الشافعية**، ج٧، ص ٣٦٥. ابن شداد، **النوادر**، ص ٤٢-٤٣. ابن أيوب، **منتخبات**، ص ٢٦٠، ٢٩٧. ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص ٣٠٩. البنداري، **سنا البرق**، ص ٣١٦-٣١٧. أبو الفداء، **المختصر**، ج٢، ص ١٦٣. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٢، ص ٣١٤، ٣٢٦، ٣٣٤. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٢١، ص ٣٠٢. المقريزي، **السلوك**، ج١، ص ٢٠٩، ٢١٦. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص ٣٥٢، ج٦، ص ١٧، ٢٧، ١١٠. النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ١٧٣. العليمي، **الأنس الجليل**، ج١، ص ٣٢٣.

(٧٦) ابن شداد، **النوادر**، ص ٤٢.

(٧٧) العماد الأصفهاني، **البرق**، ج٣، ص ١٦٦. البنداري، **سنا البرق**، ص ١٣١. ابن شاهنشاه، **مضمار الحقائق**، ص ١٨. أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ٤٦٤. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٢٧.

(٧٨) **البداية والنهاية**، ج١٢، ص ٣٢٢.

(٧٩) أبو شامة، **الروضتين**، ج٣، ص ٢٩٩. الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ١٣٨.

(٨٠) ابن شداد، **النوادر**، ص ١٠٠.

(٨١) العماد الأصفهاني، الخريدة، **قسم شعراء مصر**، ج١، ص ١٤٧. ابن شداد، **النوادر**، ص ٩٤. الحموي، **إرشاد الأريب**، ج١٠، ص ٤٦. ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص ٣٠٠.

(٨٢) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص ٣٠٢.

(٨٣) **النوادر**، ص ٩١.

(٨٤) العليمي، **الأنس الجليل**، ج١، ص ٣٨٤. وانظر: ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص ٣٧٥.

(٨٥) ابن الفرات، **تاريخ**، ج٢، ص ١٣٣-١٣٥. الحموي، **التاريخ المنصوري**، ج٢، ص ٤٤.

(٨٦) **تاريخ**، ج٢، ص ١٣٤-١٤٠.

(٨٧) يقول عنه الحموي بأنه "كان شاطراً شجاعاً" **التاريخ المنصوري**، ج٢، ص ٤٤.

(٨٨) ابن الفرات، **تاريخ**، ج٢، ص ١٤٣.

(٨٩) **المصدر نفسه**، ج٢، ص ١٤٤. الحموي، **التاريخ المنصوري**، ج٢، ص ٤٤.

(٩٠) السبكي، **طبقات الشافعية**، ج٨، ص ٢٣٩. إبن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ٥٨. النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٣٦٦-٣٧٦.

(٩١) **مرآة الزمان**. وانظر: أبو شامة، **الذيل**، ص ٧٠.

(٩٢) **المقصد الأرشد**، ج٣، ص ٥٥.

(٩٣) **الدارس**، ج٢، ص ٥٤.

(٩٤) **الشذرات**، ج٢، ص ٢٨٦.

(٩٥) ابن عبد الواحد المقدسي، **فضائل**، ص ٦٣. سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨، ق٢، ص ٥٤٧، ٥٥١. أبو شامة، **الذيل**، ص ٧١. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ٥٩. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٢٠١.

(٩٦) ابن عبد الواحد المقدسي، **فضائل**، ص ٦٣. وانظر: أبو شامة، **الذيل**، ص ٧١.

(٩٧) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ٥٩. وانظر كذلك: مصطفى، **آل قدامة**، ص ٢٦.

(٩٨) . سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨، ق٢، ص ٦١٥. أبو شامة، **الذيل**، ص ١٢٦. الغساني، **العسجد المسبوك**، ج٢، ص ٣٨١. الذهبي، **العبر**، ج٢، ص ٦٧-٦٨. ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٥، ص ٧٣.

(٩٩) أبو شامة، **الذيل**، ص ١٢٦. الغساني، **العسجد المسبوك**، ج٢، ص ٣٨١.

(١٠٠) أبو شامة، **الذيل**، ص ١٢٦. الغساني، **العسجد المسبوك**، ج٢، ص ٣٨١.

(١٠١) **الروض الزاهرة**، ص ٢٣٨.

(١٠٢) **السلوك**، ج٢، ص ٢١.

(١٠٣) **المصدرين السابقين**.

(١٠٤) **السلوك**، ج٢، ص ٣٤.

(١٠٥) **المصدر نفسه**، ج٢، ص ٤٩.

(١٠٦) انظر ترجمته: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ٣١٧. المقريزي، **السلوك**، ج٢١، ص ٢٢٠. العيني، **عقد الجمان**، ج٣، ص ٤٥-٤٦. وحول اشتراكه في حصار طرابلس، انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ٣١٣. العيني، **عقد الجمان**، ج٢، ص ٣٨٠.

(١٠٧) الجزري، **تاريخ**، ج١، ص ٤٢. وانظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ٣٢٠. العيني، **عقد الجمان**، ج٢، ص ٣٨٠.

(١٠٨) عوض، **الحركة الصوفية**، ص ١٠٣.

(١٠٩) انظر في ذلك الرواية التي أوردها كل من سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨، ق٢، ص ٦١٥. وأبو شامة، **الروضتين**، الذيل، ص ١٢٥.

(١١٠) موسى باشا، **الآداب**، ص ٤٨٠.

(١١١) من أمثلتهم: ابن القيسراني (ت ٥٤٨هـ/١١٥٤م)، موفق الدين خالد بن محمد بن نصر، من أعيان الكتاب أصله من قيسارية الشام، ومولده حلب، انظر عنه: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٢، ص ١٦. الحموي، **إرشاد**، ج٧، ص ١١٢. العماد الأصفهاني، **الخريدة**، قسم الشام، ج١، ص ٩٦. النعيمي، **الدارس**، ج٢، ص ٣٨٨. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ٠ ص ٢٢٤-٢٢٦. ابن الوردي، **تتمة المختصر**، ج١، ص ٤٥. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٤، ص ٣١. الصفدي، **الوافي**، ج٥، ص ١١٢. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص ٣٠٢. وانظر أيضاً: موسى باشا، **الأدب**، ص ١٧٤-٢٠٤. الهرفي، **شعر الجهاد**، ص ٢١٨. ومن هؤلاء الشعراء أيضاً: ابن منير الطرابلسي، أحمد بن منير المتوفى أيضاً في ٥٤٨هـ/١١٥٤م. انظر عنه: العماد الأصفهاني، **الخريدة**، قسم الشام، ج١، ص ٧٦-٩٥. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج١، ص ٤٩. ابن العديم، **بغية الطلب**، ج٣، ص ١١٥٤-١١٦٤. ابن الوردي، **تتمة المختصر**، ج١، ص ٥٣. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٠، ص ٣٢١. ابن تغري بردي، **النجوم**

الزاهرة، ج٥، ص ٢٩٩. سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨، ق١، ص ١٣٢. ابن قاضي، شهبة، **الكواكب**، ص ٥٧. خليفة، **كشف الظنون**، ج١، ص ٧٦٩. وانظر الهرفي، **شعر الجهاد**، ص ٢٥٥-٢٦٠. موسى باشا، **الأدب**، ص ٢٠٥-٢٢٧. ومن هؤلاء الشعراء أيضاً: ابن قسيم الحموي، شرف الدين، أبو المجد مسلم ابن الخضر، مولده في حماة وتوفي سنة ٥٤٢هـ/١١٤٦م. انظر عنه: العماد الأصفهاني، **الخريدة**، قسم الشام، ج١، ص ٤٣٣. ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج١، ص ٨٢. وانظر: موسى باشا، ص ٢٢٨-٢٩٨. ومنهم أيضاً: أبو الحسن بهاء الدين علي بن محمد ابن الساعاتي الذي ولد في دمشق وتوفي سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٩م، وانظر عنه: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج١، ص ٣٦٢. ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، ص ٦١٣-٦١٤. وانظر: موسى باشا، **الأدب**، ص ٢٩٨. ومنهم ولكن أقل شأناً الشاعر عرقلة الكبي، المتوفي سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م، انظر: العماد الأصفهاني، **خريدة القصر**، قسم شعراء الشام، ج١، ص ١٧٨. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٦٤. ومن هؤلاء الشعراء أيضاً ثقة الدين، أبو القاسم المتوفى سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م، عنه انظر: العماد الأصفهاني، **الخريدة**، قسم الشام، ج١، ص ٣٤٧.

(١١٢) الهرفي، **شعر الجهاد**، ص ١٢١.

(١١٣) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن علي التغلبي، شاعر دمشقي مشهور، له ديوان شعر منشور، كانت ولايته سنة خمسين وأربعمائة بدمشق، وتوفي بها سنة سبع عشرة وخمسمائة، انظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج١، ص ١٤٥-١٤٧.

(١١٤) ابن خياط، **ديوانه**، ص ١٨٢.

(١١٥) **المصدر نفسه**، ص ١٨٢.

(١١٦) ابن خياط، **ديوانه**، ص ١٨٤.

(١١٧) **المصدر نفسه**، ص ١٨٤.

(١١٨) أبو المظفر الأيبودي: محمد بن أبي العباس أحمد بن محمد، ينسب إلى أيبورد (مدينة بخراسان بين سرخس ونسا. ياقوت، **معجم**، ج١، ص ٢٨٦)، وكان أديباً مشهوراً توفي سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٣م، عنه انظر: ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص ١٥٢. **اللباب**، ج١، ص ٢٧. ياقوت، **إرشاد الأريب**، ج٦، ص ٣٤١. سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٢، ص ٥٨٢. أبو الفداء، **المختصر**، ج٢، ص٤٧. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٤، ص ٤٤-٤٤٩. السبكي، **طبقات الشافعية**، ج٦، ص ٨١-٨٤. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٢، ص ١٧٦. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ١٩، ص ٢٨٣-٢٩٢. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص ٢٠٦.

(١١٩) جمع مرجمة وهي الكلام القبيح.

(١٢٠) ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص ٢٠. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٢، ص ١٥٦. ابن خلدون، **العبر**، ج٥، ص ٢١٧. العليمي، **الأنس الجليل**، ج١، ص ٣٠٩.

(١٢١) انظر: الهرفي، **شعر الجهاد**، ص ٩٥.

(١٢٢) الدرين: هو الحشيش اليابس.

(١٢٣) أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص ١٤٨.

(١٢٤) أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص ١٧٧.

(١٢٥) انظر: ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص ٣٦٣. أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص ٢٠٦. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٢، ص ٢٢٦.

(١٢٦) ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص ٣٦٣. أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص ٢٠٦. وهو يورد القصيدة كاملة منذ البداية حتى نهايتها. انظر: **الروضتين**، ج١، ص ٢٠٧-٢١٠.

(١٢٧) انظر: ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص ٣٧٠. أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص ٢٤٧. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٢، ص ٢٢٨.

(١٢٨) أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص ٢٤٩. ياقوت، **إرشـــاد الأريـــب**، ج٧، ص ١١٣.

(١٢٩) ابن الأثير، **الكامل**، ج١٠، ص ٧٥. أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ٢٤.

(١٣٠) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ٣٣. وهو يورد القصيدة كاملة.

(١٣١) **المصدر نفسه**، ج٢، ص ١٢٣.

(١٣٢) أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص ٢٠٣.

(١٣٣) **المصدر نفسه**، ج٢، ص ٣٠٥-٣١١. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٢، ص ٢٨٥.

(١٣٤) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ٣٧٣.

(١٣٥) هو الفقيه أبو محمد بن أبي الحسن بن أحمد، شاعر مشهور به ديوان شعر، قتله صلاح الدين سنة ٥٦٩هـــ/١١٧٤م، وذلك بسبب تآمره مـــع جماعـــة مـــن المصريين لإعادة حكم الفاطميين لمصر. عنه انظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٣٤، ص ٤٣١-٤٣٦. أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ٢٨٢-٣٠٤. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٢، ص ٢٧٥-٢٧٧. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج١٠ ص ٣٩٥. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٧٠.

(١٣٦) أبو شامة، **الروضتين**، ج٢، ص ١٨٩.

(١٣٧) برزويه: وتسميتها العامة برزيه، حصن قرب السواحل الشامية علـــى ســـن جبل شاهق، يضرب بها المثل في جميع بلاد الإفرنج بالحصانة، الحموي، **معجم**، ج١، ص ٣٨٣.

(١٣٨) أبو شامة، **الروضتين**، ج٤، ص ٣٨.

(١٣٩) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٣، ص ٢٦. العليمي، **الأنس الجليل**، ج١، ص ٣٠٩. وتنظر: ابن تميم المقدسي، **مثير الغرام**، ص ٣٧٥.

(١٤٠) ابن الأثير، **الكامل**، ج١٠، ص ٣٧٥. أبو شامة، **الذيل**، ص ١٠٢-١٠٣. ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٣، ص ٢٥٦. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ٧٧. الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ٢١٨. النعيمي، **الدارس**، ج٢، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(١٤١) أبو شامة، **ذيل الروضتين**، ص ١٠٣. الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ٢١٨.

(١٤٢) وهو السلطان المنصور قلاوون.

(١٤٣) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص ٣٢٣-٣٢٤.

(١٤٤) **النجوم**، ج٧، ص ٣٢٢.

(١٤٥) انظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٧، ص ٣٦٦-٣٧٠. تدمري، طرابلس، ص ٦٤٧-٦٦٧. الهرفي، **شعر الجهاد**، ص ١٥٨-١٨٦. موسى باشا، **الأدب**، ص ٥٣١. الغامدي، **جهاد المماليك**، ص ٢٧١.

(١٤٦) انظر: الهرفي، **شعر الجهاد**، ص ١١٥-١١٦.

(١٤٧) عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي الحكيم المغربي الأندلسي عالم بالطب والهندية، أصله من الأندلس، اشتهر ببغداد، وخدم السلطان محمود بن ملكشاه وأنشأ له في معسكره مارستاناً ينقل على أربعين جملاً، ثم انتقل إلى دمشق وتوفي بها سنة ٥٤٩هـ عنه انظر: ابن أبي أصبيعة، **طبقات الأطباء**، ص ٦١٤-٦٢٧. العماد الأصفهاني، **الخريدة**، قسم شعراء الشام، ج١، ص ٣٦٩-٣٨٢. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٣، ص ١٢٣-١٢٥.

(١٤٨) أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص ١٩٢-١٩٣.

(١٤٩) **سنا البرق**، ص ١٣٧. وفي المجال ينقل البنداري عن الأديب الشاعر العماد الأصفهاني قوله: "ما انقطعت عن السلطان في غزواته إلا في هذه الغزوة"، يقصد غزوة الرملة سنة ٥٧٣هـ. انظر: **المصدر نفسه**، ص ١٢٨.

(١٥٠) انظر: موسى باشا، **الأدب**، ص ٣٠٣.

(١٥١) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص ٣٣٤.

(١٥٢) العماد الأصفهاني، **الخريدة**، قسم شعراء الشام، ج١، ص ٣٤-٣٥، ١١١، ص ١٥٤-١٥٥، ١٥٩-٢٥٧. ياقوت، **إرشاد الأريب**، ج٧، ص ١١٢-١١٦. ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج١٢، ص ١٢٤-١٢٥. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٢، ص ٢٢٦-٣٢٧، ٣٢٩. وانظر: الهرفي، **شعر الجهاد**، ص ١٠١، ١٣١، ١٤٢.

(١٥٣) ابن أسعد، عبد الله فقيه فاضل وشاعر مجيد، كان مدرساً بحمص، وقد مدح نور الدين وأثنى عليه في مواقفه الجهادية في أكثر من مكان، وتوفي سنة ٥٨١هـ. عنه انظر: العماد الأصفهاني، **الخريدة**، قسم شعراء الشام، ج٢، ص ٢٧٩-٢٩٤. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٣، ص ٥٧-٦١. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٢١، ص ١٧٦-١٧٧. وقد حقق ديوانه وأعد تكملته عبد الله الجبوري. بغداد، سنة ١٩٦٨م.

(١٥٤) ابن شاهنشاه، **مضمار الحقائق**، ص ٤٤.

(١٥٥) ابن شداد الحلبي، **الأعلاق الخطيرة**، ج٢، ق٢، ص ١٠٣. الغساني، **العسجد**، ج١، ص ٢٤٠. ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج ٣، ص ٧٤. وهو الذي أورد الأبيات وذكر بأنه حيث استولى الفرنج على بيروت "لعن الله أسامة لتفريطه فيها".

(١٥٦) **مرآة الزمان**، ج٨، ق٢، ص ٦٥٤.

(١٥٧) انظر: الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص ٢٦٢. أبو شامة، **الروضتين**، ج٤، ص ٣٣٤. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٢٤٥. المقريزي، **السلوك**،

ج١، ص ٣٠٧. الحريري، **الإعلام**، ص ٩٣-٩٤. العليمي، **الأنس الجليل**، ج١، ص ٤٠٢.

(١٥٨) أبو شامة، **الروضتين**، ج٤، ص ٣٣٦. المقريزي، **السلوك**، ج١، ص ٣٥٦.

(١٥٩) ابن مطروح: جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عيسى شاعر وقته ولد سنة ٥٩٢هـ/ وتوفي سنة ٦٤٩هـ. عنه انظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٦، ص ٢٥٨-٢٩٩. وكان معاصراً له وكانت بينهم مودة ومراسلات وحين مات صلى عليه أشد المعجبين به. وانظر ابن تغري بردي، **النجوم**، ج٧، ص ٢٧-٢٩. ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٣، ص ٢٤٧. الغساني، **العسجد**، ج٢، ص ٥٨٥. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ١٨٢. اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ج١، ص ١٩٧. وأورد وفاته في ٦٥٠هـ.

(١٦٠) المقريزي، **السلوك**، ج١، ص ٤٧٦.

(١٦١) ما بين القوسين في **الأنس الجليل** (آية). العليمي، ج٢، ص ٥.

(١٦٢) ما بين القوسين في **الأنس الجليل** (ظهوره). المصدر نفسه.

(١٦٣) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج ٥، ص ٢٤٧. المقريزي، **السلوك**، ج١، ص ٣٩٩-٤٠٠. اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ج٧، ص ٢٧.

(١٦٤) انظر: علي، **العلاقات**، ص ١٩٧.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

١- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني المقلب بعز الدين (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م):

- "الكامل في التاريخ"، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
- "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل"، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٥م.
- "اللباب في تهذيب الأنساب"، دار صادر، بيروت، د.ط، دت.

٢- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي، (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م): "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، ضبطه وصححه ووضع فهارسه محمد باسل عيون السود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١هـ/١٩٩٨م.

٣- ابن أيوب، تاج الدين:

- "منتخبات من كتاب التاريخ"، مطبوع في ذيل كتاب النوادر السلطانية، المحاسن اليوسفية، لابن شداد، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت.

٤- البنداري، الفتح بن علي بن محمد (ت ٦٢٢هـ/١٢٢٥م):

- "تاريخ دولة آل سجلوق للعماد الأصفهاني" تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، ط٣، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م.
- "سنا البرق الشامي"، مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني، تحقيق فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٩م.

٥- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م):

- "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعه والنشر، القاهرة، د.ت، د.ط.

٦- ابن تميم المقدسي، شهاب الدين أبي محمود (ت ٧٦٥هـ/١٣٦٣م):

- "مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام"، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

٧- ابن جبير، محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م):

- "الرحله المسماة تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار"، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب، المصري، بيروت- مصر.

٨- الجزري، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن ابراهيم بن أبي بكر القرشي (ت ٦٩٩هـ /١٢٩٩م):

- "تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري"، ٣ أجزاء، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط١، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا/ بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٩- الحريري، أحمد بن علي، (ت بعد سنة ٩٢٩هـ /١٥١٩م).

- "الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين"، تحقيق سهيل زكار، مكتبة دار الملاح، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.

١٠- الحموي، أبي الفضائل محمد بن علي بن نظيف (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م):

- "التاريخ المنصوري"، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تحقيق أبو العيد دودو، مراجعة عدنان درويش، مطبعة الحجاز، دمشق، ١٩٨١م.

١١- الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله: (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م):

- "معجم الأدباء" المعروف بإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ٧ أجزاء، حققه وضبط نصوصه وقدم له: عمر فاروق الطباع، ط١، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- "معجم البلدان"، ٧ أجزاء، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

١٢- الحنبلي، أحمد بن ابراهيم (ت ٨٧٦هـ /١٤٧١م):
- "شفاء القلوب في أجبار بني أيوب"، تحقيق وتعليق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ١٩٩٦م.

١٣- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م):
- "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

١٤- ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م):
- "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الومان"، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م.

١٥- خليفة،حاجي مصطفى بن عبد الله القسطنطيني (ت ١٠٦٨هـ/١٦٥٦م):
- "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون"، دار الكتب العربية، بيروت، ١٩٩٢م.

١٦- ابن خياط، أبي عبد الله محمد بن علي التغلبي (ت ٥١٧هـ/ ١١٢٣م):
- "ديوان ابن خياط"، تحقيق خليل مردم بكن المطبعة الهاشمية – دمشق، نشرة مجمع اللغة العربية بدمشق، سنة ١٩٥٨م.

١٧- الذهبي، شمس الدين محمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م):
- "تذكرة الحفاظ"، ٤ أجزاء، وضع حواشيه الشيخ زكريا عميرات، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

- "سير أعلام النبلاء" ١٧ جزء، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٨- سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر، يوسف بن قزاوغلي (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م):

- "مرآة الزمان في تاريخ الأعيان"، تحقيق ودراسة مسفر ابن سالم الغامدي، الجزء الأول، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة، ١٩٨٧م.

- "مرآة الزمان في تاريخ الأعيان"، تحقيق حيدر آباد، الدكن، الهند، ١٩٥٢م، الجزء الثامن.

١٩- السبكي، أبي نصر عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م):

- "طبقات الشافعية الكبرى"، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود الطناجي، ط٢، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيزة، القاهرة، ١٩٩٢م.

٢٠- أبو شامة شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم، (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م):

- "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية"، ط١، تحقيق ابراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م.

- "تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين"، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٢١- ابن شداد، بهاء الدين يوسف، (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م):

"النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت.

٢٢- ابن شاهنشاه، محمد بني تقي الدين عمر الأيوبي (ت ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م):

- "مضمار الحقائق وسر الخلائق"، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، د.ط، د.ت،

٢٣- ابن شداد الحلبي، عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٥٨م):

- "الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة"، تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه سامي الدهان، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٢م.

٢٤- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م):

- "أمراء دمشق في الإسلام"، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٥٥م، "تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب"، تحقيق إحسان خلوصي وزهير حميدان الصمصام، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م.

- "الوفي بالوفيات"، تحقيق مجموعة من الأساتذة، فانز شتاينر بفيسبادن، بيروت، (١٩٦٢-١٩٦٣م).

٢٥- ابن الصلاح، تقي الدين أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، (ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م):

- "طبقات الشافعية"، جزءان، تحقيق محي الدين علي نجيب، ط١، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٢٦- ابن عبد الظاهر، محي الدين عبد الله بن رشيد الدين بن عبد الظاهر السعدي المصري، (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م):

- "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر"، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط١، الرياض، ١٩٧٦م ، د.ن.

٢٧- ابن عبد الواحد المقدسي، ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد (ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م):

- "فضائل الشيخ الإمام العالم الزاهد أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي"، تحقيق الحافظ، ضمن كتابه المدرسة العمرية، ط١، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م.

٢٨- ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون (ت ٦٦٠هـ / ١٢٨٦م):

- "تاريخ مختصر الدول" ، بيروت، د.ط، د.ت، د.ن.

٢٩- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م):

- "بغية الطلب في تاريخ حلب"، تحقيق سهيل زكار، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م.

- "زبدة الحلب من تاريخ حلب"، تحقيق سامي الدهان، دمشق، ١٩٦٨م.

٣٠- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م):

تهذيب تاريخ دمشق الكبير"، هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران، ط٣، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٣١- العليمي، مجير الدين الحنبلي، (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م):

- "الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل"، جزءان، الجزء الأول تحقيق عدنان يونس أبو تبانة، والجزء الثاني تحقيق محمود الكعابنة، ط١، مكتبة دنيس، عمان، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٣٢- العماد الأصفهاني، عماد الدين بن عبد الله بن محمد الكاتب، (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م):

- "البرق الشامي"، تحقيق فالح حسين، ط١، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، الأردن، ١٩٨٧م.
- "خريدة القصر وجريدة العصر"، قسم شعراء الشام، ط١، تحقيق شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، نشره مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٦٨م، قسم شعراء مصر، تحقيق أحمد أمين وآخرون، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د.ت، د.ط.

٣٣- ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي العكري الدمشقي، (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م):
- "شذرات الذهب في أخبار من ذهب"، ٨ أجزاء، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

٣٤- العيني، بدر الدين محمود، (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م):
- "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان"، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج١، سنة ١٩٨٧م، ج٢، سنة ١٩٨٨م، ج٣، سنة ١٩٩٠م.

٣٥- الغساني، الملك الأشرف، (ت ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م):
- "العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك"، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم، دار التراث الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٣٦- أبو الفداء، اسماعيل بن علي بن محمود، (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م):
- "المختصر في أخبار البشر"، جزءان، علق عليه ووضع حواشيه محمود ديوب، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٣٧- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م):

- "تاريخ الدول والملوك المعروف بتاريخ ابن الفرات"، المجلد الرابع في قسمين تحقيق حسن محمد الشماع، البصرة، ١٩٦٧م/١٩٧٩م، د.ط، المجلد السابع والثامن، تحقيق قسطنطين زريق، ونجلاء عز الدين، بيروت، ١٩٣٩م.

٣٨- ابن قاضي شهبة، بدر الدين (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م):

- "الكواكب الدرية في السيرة النورية"، تحقيق محمود زايد، ط١، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١م.

٣٩- ابن القلانسي، أبي يعلي حمزة، (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م):

- "ذيل تاريخ دمشق"، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.

٤٠- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م):

- "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، دار الكتب المصرية، ١٩٦٣م، "مآثر الأناقة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط٢، مطبعة حكومة لكويت، الكويت، ١٩٨٥م.

٤١- الكتبي، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م):

- "فوات الوفيات" ٥ أجزاء، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣.

٤٢- ابن كثير، أبي الفداء اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م):

- "البداية النهاية"، مكتبة المعارف، بيروت، د.ط، د. ت.

٤٣- ابن مفلح، برهان الدين ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد (ت ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م):

- "المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد"، ٣ أجـزاء، تحقيـق عبـد الرحمن بن سليمان العثيمين، ط١، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

٤٤- المقريزي، تقي الدين بن علي بن عبد القادر، (ت ٨٤٥هـم ١٤٤١م):

- "السلوك لمعرفة دول الملوك"، تحقيق محمد علي بيضون، ط١، دار الكتـب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

٤٥- ابن منقذ، مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي الطناني الشيزري (ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م):

- "كتاب الاعتبار"، حرره فيليب حتي، مطبعة جامعـة برسـتون، الولايـات المتحدة، ١٩٣٠م، والدار المتحدة، ١٩٨٦م.

٤٦- النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م):

- "الدارس في تاريخ المدارس" جزءان، أعد فهارسه ابراهيم شـمس الـدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٤٧- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م):

- "نهاية الأرب في فنون الأدب"، ٣١ جزء، مركز تحقيق التـراث، القـاهرة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٤٨- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م):

- "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" ج١-٣، تحقيق جمال الـدين الشـيال، مطبوعات إدارة إحيـاء التـراث القـديم، المطبعـة الأميريـة، القـاهرة، ١٩٥٣/١٩٥٧م.

٤٩- ابن الوردي، زين الدين عمر بن المظفر بن أبي الفوارس، (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م):

- "تتمة المختصر في أخبار البشر"، المعروف بتاريخ ابن الوردي، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٠م.

٥٠- اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان، (ت ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م):

- "مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان"، بيروت، ١٩٧٤م، د. ن، د.ط.

٥١- اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن أحمد، (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م):

- "ذيل مرآة الزمان"، ٤ أجزاء، ط٢، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

ثانياً: المراجع

١- بدوي، أحمد أحمد:

- "الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام"، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د.ط، د.ت.

- "الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام"، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.

٢- البيشاوي، سعيد عبد الله:

- "نابلس، الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في عصر الحروب الصليبية"، ٤٩٢-٦٩٠هـ/ ١٠٩٩-١٢٩١م، د.ن، عمان، الأردن، ط١، ١٩٩١م.

٣- تدمري، عمر عبد السلام:

- "تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، عصر الصراع العربي -البيزنطي والحروب الصليبية، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار الإيمان طرابلس، ١٩٨٤م.

٤- حلواني، احمد عبد الكريم:
- "ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين في عهد الدولتين النورية والأيوبية"، دار الفداء، دمشق، ١٩٩١م، د. ط، د. ب.
٥- عبد القادر، دريد:
- "سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام والجزيرة، ٥٧٠-٥٨٩هـ/ ١١٧٤-١١٩٣م"، بغداد، ١٩٧٩م، د.ط، د.ت.
٦- العزة، رئيسة عبد الفتاح:
- "نابلس في العصر المملوكي" ط١، دار الفاروق، نابلس- فلسطين، ١٩٩٩م.
٧- علي، علي السيد:
- "العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين"، ط١، عين لدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٦م.
٨- عوض، محمد مؤنس:
- "الحروب الصليبية"، دراسات تاريخية ونقدية، ط١، دار الشروق، عمان، ١٩٩٩م.
- "الحروب الصليبية، السياسة، العقيدة، المياه"، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠٠١م.
٩- الغامدي، عبد الله سعيد محمد:
- "جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري"، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، ١٤١٠هـ، د.ط.
١٠- قاسم، قاسم عبده:
- " ماهية الحروب الصليبية، الإيديولوجية -الدوافع- النتائج"، ط٦، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٢م.

١١- موسى باشا، عمر:

- "الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين"، دار الفكر، بيروت، دار الفكر، دمشق، د.ط،

١٢- الهرفي، محمد علي:

- "شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام"، ط١، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٨م.

ثالثاً: المراجع الأجنبية المترجمة:

١- كاهن، كلود:

- "الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية"، ترجمة أحمد الشيخ، سنا للنسر، بيروت، ١٩٩٥م، د.ط.

رابعاً: الرسائل الجامعية:

١- أبو القرايا، بشير سعيد:

- "الدور السياسي للمسجد"، رسالة غير منشورة، إشراف حورية توفيق مجاهد، كلبية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٩٤م.

٢- المغربي، عبد الرحمن:

- "طائفة المغاربة في القدس الشريف ٤٩٢-٩٢٢هـ/ ١٠٩٩-١٥١٦م"، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس، القاهرة، عام ٢٠٠٠م.

خامساً: الدوريات العربية:

١- بدر، أحمد:

- "الأندلسيون والمغاربة في القدس"، مجلة أوراق، المعهد الأسباني العربي للثقافة، العدد (٤)، عام ١٩٨١م.

٢- العبادي، أحمد مختار:

- "دور المغاربة في الحروب الصليبية في الشرق العربي"، ضمن بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، ألقيت في ندوة الحضارة الإسلامية (١٦-٢٠ أكتوبر ١٩٧٦م)، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٧م.

٣- عوض، محمد مؤنس:

- "الحركة الصوفية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية"، ضمن كتاب دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠٠٣م.

٤- مصطفى شاكر:

- "آل قدامة في الصالحية"، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية رقم (٣)، الكويت، ١٩٨٢م.

ظاهرة الرهائن في المملكة المتوكلية اليمنية

الدكتور راغب العلي

قسم التاريخ

جامعة دمشق

كانت ظاهرة الرهائن واحدة من جملة الأساليب التي اتبعها الإمام يحيى حميد الدين(١) في سياسته المركزية القائمة على العنف والقوة العسكرية، وإخضاع الريف اليمني مادياً ومعنوياً. ولم يكن هدفه إلغاء النظام القبلي؛ بل العمل على جعل سلطته فوق سلطة القبيلة وهيمنتها إلا أن هذه الظاهرة لم تكن من ابتداع الإمام يحيى حميد الدين ،فهي ليست حديثة الولادة بل إنها تعود وبجميع أنواعها إلى حقب التاريخ القديمة. فقد استخدم اليونانيون أسلوب الرهائن حتى قام سولون بإلغائه في برنامجه الإصلاحي عام ٥٩٤ ق.م.(٢). وقد طبق الرومان أسلوب الرهائن أيضاً، ففي عشية الحرب البونية الثالثة، وبعد أن أرسلت قرطاجة بعثة سياسية إلى روما لتعلن استسلامها دون قيد أو شرط، تم إبلاغها " بأنه سيسمح للقرطجنيين بالاحتفاظ بحريتهم وقوانينهم وإقليمهم وممتلكاتهم العامة والخاصة بشرط أن يسلموا ثلاثمائة من أبرز رجالهم رهينة، وأن يطيعوا الأوامر التي يصدرها لهم القنصلان اللذان عبرا البحر إلى أوتيقا على رأس الجيش والأسطول" (٣). واتبع البيزنطيون أسلوب الرهائن، فعندما استغل الآفار فرصة انشغال هرقل بمحاربة الفرس عام

٦٢٢ م، ونقضوا المعاهدة التي كانوا قد أبرموها معه، وهددوا بالهجوم على القسطنطينية عاد هرقل إلى عاصمته، وزاد مقدار الجزية التي يدفعها للآفار، وأرسل إليهم عدداً من الأمراء البيزنطيين رهائن (٤). وقد تضمنت شروط السلم، الذي أقره حلف الراين سنة ١٢٥٤م طريقة معاملة الرهائن في مدن حوض الراين المتحالفة من أجل حفظ السلام في الإمبراطورية المقدسة (٥). وقد احتفظ الملك (مينا) في مصر بأسرى الشمال ليطمئن لعدم خروجهم على سلطته (٦). وقد استخدم أسلوب الرهائن في الدويلات القديمة التي قامت في جنوب الجزيرة العربية بهدف حماية القوافل المارة بالصحراء من هجمات القبائل. وكان الملك السبئى (كرب ايل وتر) يحتفظ بالأطفال عند خوضه المعارك من أجل إخضاع الممالك، وغالبا ما تؤخذ الرهائن من أبناء الأمراء، فقد أخذ مالك، أحد الملوك السبئيين امرأ القيس، وابن ملك كنده وآخرين من أبناء سادات كنده رهائن لضمان ولاء تلك الممالك واستمرار طاعتهم وإخلاصهم له (٧). وقد استخدم الأحباش هذا الأسلوب عند دخولهم إلى اليمن (٨). وفي بداية الدولة الإسلامية اعتبر عامل الزكاة زياد بن لبيد رفض عشيرة الملكية من الكنديين دفع الزكاة تمرداً على السلطة الدينية، فقبض على عدد من الكنديين واحتجزهم رهائن ليضمن وصول الزكاة المفروضة (٩). وبعد دخول يحيى بن الحسين إلى اليمن سنة ٨٩٧م عمل بهذا النظام بعد أن تكررت الثورات اليمنية من القبائل (١٠). وعندما ترأس علي بن أحمد الصليحي الحركة الإسماعيلية (١١) وسيطر على اليمن،جمع ملوك البلاد واحتجزهم كرهائن لديه في صنعاء، وعندما قرر السفر إلى مكة سنة ١٠٨٠م اصطحبهم معه خشية أن يثوروا عليه في غيابه (١٢).

وفي المراحل الأولى من تكوين الدولة السعودية الأولى اشترك رئيس نجران حسن بن هبة الله المكرمي، ع زيد بن زامل أمير الدلم في حربه ضد الجيوش السعودية، التي قادها عبد العزيز ابن محمد عام ١١٨٩ [illegible] مقابل دفع أموال طائلة له، ولكن هذه الأموال لم تدفع إليه

إلا بعد أخـــذ رهائن منه (١٣). وقد توسع العثمانيون في سياسة الرهائن أثناء حكمهم في اليمن، وأخذ بعض ولاتهم الرهينة ثلاثية (زوجة وبنتاً وذكراً) (١٤).

العوامل التي دعت لاتباع سياسة الرهائن في اليمن:

اختلفت الأسباب التي دعت لأخذ الرهائن منها: أسباب سياسية لضمان خضوع القبائل للسلطة، ومنها اقتصادية لتأمين الطرق التجارية من اعتداءات القبائل وضمان وصول الضرائب التي تعتبر المورد الأساسي لمالية الدولة وخاصة الزكاة في العصر الإسلامي. ويعود الاعتماد على نظام الرهائن في تثبيت السلطات السياسية والدينية منذ القديم في اليمن إلى عوامل يمكن إجمالها بالتالي:

١- **البيئة الاجتماعية:** إن نظام الرهائن من دون شك وليد البيئة السياسة والاجتماعية التي ترتكز في الأصل على بيئة قبلية. والقبيلة في اليمن هي الوحدة السياسية والاجتماعية التي يتسلسل فيها الولاء من سلطة الأب وعاقل القرية حتى يصل إلى شيخ القبيلة، الذي يملك سلطة مطلقة تجاه أفراد قبيلته (١٥). ومن خلال طبيعة المجتمع اليمني يتبدى لنا ما يمكن أن يحتاجه من يحاول فرض سيطرته على اليمن من إمكانيات عسكرية ومادية،لأن أية سلطة مركزية بحاجة إلى مواجهة ما يشبه الدولة ألا وهي القبيلة، فهي تشعر بعدم حاجتها إلى دولة ما دامت القبيلة موجودة. إن ارتباط الفرد أصبح بقبيلته أقوى من ارتباطه مع أي جماعة أو سلطة أخرى. وعلى مر التاريخ كانت القبيلة تقوم في حالة وجود الدولة بتغليب مصلحتها على مصلحة الدولة (١٦).

لم تتغير هذه النظرة عند دخول الإسلام إلى اليمن، وربما يعود ذلك إلى الصراع القبلي، الذي نشأ في الدولة الإسلامية واشتد في العصر الأموي، عندما ازدادت حدة الصراع بين القيسيين والكلبيين. وقد ظل نظام الجيش وترتيبه في المعارك في الدولة الإسلامية قائماً

على أساس قبلي، وكانت التقسيمات العسكرية تميز كل قبيلة عن غيرها من القبائل الأخرى.

لقد شكلت البيئة القبلية عائقاً أمام مد الدولة سلطتها المركزية على الأقاليم اليمنية كلها، ولاسيما في الأقاليم الشمالية، في الوقت الذي تمكنت السلطة من بسط نفوذها على مناطق أقل عصبية قبلية وبشكل خاص في الأقاليم الإنتاجية، لأن طبيعة عملها الإنتاجي زراعياً كان أو صناعياً بحاجة إلى الأمن والاستقرار، وهذا يفسر استمرار السيطرة العثمانية على المناطق الساحلية والوسطى فترة أطول من استمرارها على الأقاليم الشمالية الفقيرة. لقد استخدمت السلطة الإمامية وسيلتين لإضعاف شوكة القبائل في اليمن أولهما مادية تمثلت بدعم رؤساء القبائل بالأموال لإضعاف مركزها، وخلق التوازن بين الدولة والقبيلة، إلا أن هذه الطريقة كانت مؤقتة حيث تبين أن إخضاع القبائل عن طريق الدعم المادي لم ينجح دائماً فسرعان ما تعود القبيلة للتمرد والهجوم (١٧).

أما الطريقة الثانية فتمثلت بربط شيوخ القبائل بخيط الإمامة عن طريق الشدة والعنف، وذلك عندما تمتلك السلطة الإمامية القدرة على استخدام القوة في مواجهة القبائل، وكانت تلجأ بعد ذلك إلى سياسة الرهائن، التي كانت في غالب الأحيان تضمن استمرار ولاء القبائل.

٢- **البيئة الجغرافية:** إن طبيعة اليمن الجغرافية معقدة، ومن الصعب على الإنسان الغريب معرفة دروبها وممراتها دون الاستعانة بأهل البلاد. وقد أدى ذلك إلى صعوبة السيطرة عليها بشكل تام من قبل الغزاة وصعوبة بناء سلطة مركزية على أراضيها. فقد شكلت هذه الطبيعة عائقاً في وجه أي استقرار سياسي لكونها تساعد كل من يقود حركة أو تمرد أو ثورة من أهل البلاد على الاستمرار في المقاومة. إذاً فهذه الطبيعة تحتاج إلى مقدرات غير

عادية لفرض النظام فيها (١٨). فصعوبة السيطرة على هذه الطبيعة المعقدة وعدم قدرة الدولة على جباية الزكاة والضرائب المختلفة، دفع السلطة إلى جمع الرهائن من القبائل، حتى لا تقدم هذه القبائل على العصيان إذا ما قويت شوكتها (١٩). لقد شكلت طبيعة اليمن الجغرافية عائقاً هاماً أمام سيطرة العثمانيين سيطرة كلية على اليمن بالرغم من امتلاكهم جيشاً قوياً مدعوماً بسلاح مدفعية، إلا أن طبيعة اليمن الجغرافية المعقدة قللت من فعالية هذا الجيش(٢٠). وقد عدّ هشام علي أن ظاهرة الرهائن في اليمن هي لعنة الجغرافية(٢١).

٣- **الأحوال السياسية:** إن كثرة الاضطرابات والثورات أدت إلى التوسع في استخدام نظام الرهائن في اليمن. لقد كانت البلاد عند قيام المملكة المتوكلية اليمنية في حالة عدم استقرار واضطراب دفعت الإمام إلى أخذ الرهائن من شيوخ القبائل لكي يأمن جانبهم ويضمن الاستقرار في البلاد (٢٢).

دفعت الأوضاع السياسية العامة في المملكة المتوكلية اليمنية الإمام يحيى حميد الدين لأخذ الرهائن من القبائل، حيث شكّلت القوى السياسية المحيطة بالإمام خطورة على سلطته لإمكانية استغلالها، أي القبائل المتذبذبة، فقد آثار النفوذ الإنكليزي الاستعماري في عدن مخاوف الإمام من القبائل اليمنية ولاسيما في الجنوب إن علاقات الإمام مع السلطات الإنكليزية في عدن كانت متوترة، وهذا ما دفع الإمام يحيى حميد الدين إلى التشدد في أخذ الرهائن وضمان السيطرة على القبائل. وكانت قبيلتا حاشد(٢٣)، وبكيل، مصدر قلق لحكم الإمام يحيى وأحد مواطن الضعف في حكمه (٢٤).

حتى إن الأوربيين وجدوا في ظاهرة الرهائن وسيلة ناجحة عند تفريغ أو تحميل سفنهم في الموانئ اليمنية، فقد كانوا يشترطون الاحتفاظ بمجموعة من الشيوخ وأبنائهم في سفنهم

رهائن حتى تتم تحميل البضائع أو تفريغها (٢٥). وقد أخذ بهرام باشا الرهائن من مناطق ريمة(٢٦) المعقدة الممرات والمسالك. وكذلك أخذ سنان باشا الرهائن بأعداد كبيرة عندما سيطر على المناطق الشمالية ذات الجغرافية المعقدة والمشهورة بثوراتها العديدة.

وفي عام ١٩٣٩م لم يوافق الإنكليز، الذين ضربوا عدن بالقنابل، على التفاوض مع أهل المنطقة إلا بعد أن اشترط قائد الحملة الإنكليزية (هس) على شيوخ القبائل إرسال ثلاثة من كبارهم لضمان القيام بتسليم عدن سلمياً.

وكذلك فإن الشريف حسين بن علي (٢٧)، بعد سيطرته على بقاع اليمن الجنوبية، قام بجمع الرهائن وإرسالهم إلى زبيد، ومن ثم عيّن حكاماً على تلك المناطق.

وقد استخدم الإدريسي (٢٨) نظام الرهائن في المناطق الخاضعة لحكمه، فعندما دخلت قواته إلى بلاد ريمة وأبها (٢٩) والسراة، أخذ الأسرى من أبناء تلك المناطق وأرسلهم إلى مناطق الزيدية ثم إلى جيزان، واحتفظ بهم كرمز لدخول هذه القبائل تحت سيطرته (٣٠).

وعشية قيام المملكة المتوكلية اليمنية ١٩١٨-١٩٦٢م، اشترطت الدولة العثمانية على الإمام يحيى حميد الدين في صلح دعان (٣١) المعقود بينهما سنة ١٩١١م، إطلاق الرهائن الموجودين لديه في صنعاء وما جاورها وحراز (٣٢) وعمران لمدة عشر سنوات، وهي مدة الاتفاقية. وهذا يعني أن العثمانيين كانوا حريصين على عدم ازدواجية ولاء هذه القبائل، التي قد تتوجه في ولائها إلى الإمام يحيى حميد الدين، وإن كانت واقعة تحت نفوذ الولاة العثمانيين فيما إذا قطعت الدولة العثمانية هباتها المالية.

أنواع الرهائن:

وجدت في عهد الإمام يحيى حميد الدين ثلاثة أنواع من الرهائن تختلف عن بعضها بحسب الظروف التي أخذت منها الرهينة.

١- **رهينة الضمان** (الطاعة أو الفداء أو الأمانة) (٣٣): وهي الرهائن التي تقدمها القبائل الموالية لسلطة الإمام في أوقات السلم. وتعود رهائن الضمان على شيوخ القبائل الذين يسلمونها للسلطات الإمامية بفوائد مادية ومعنوية عديدة: مثل تقاضي الشيخ المرهن ربع العشر من زكاة المنطقة ومخصصات سنوية من القبيلة أو القرية باسم الرهينة (٣٤). ويعتبر الشيخ المرهن شيخ الضمان في منطقته، أي أن الالتزامات المالية تصبح في عهدة شيخ الضمان الذي يحتفظ الإمام بابنه رهينة لديه، وقد دفعت هذه الفوائد شيوخ القبائل إلى تأدية الرهائن للسلطات دون الشعور بأي عار اجتماعي لاعتيادهم على هذا النظام، ويصبح شيوخ القبائل هؤلاء محل ثقة الإمام في وقت السلم، وغالباً ما يصبح الشيخ المرهن عامل الإمام على منطقته، وقد تتيح له الظروف ليصبح من كبار الإقطاعيين.

وفي بعض الأحيان تتفق القبيلة الواحدة بتوزيع الرهينة على أفخاذ القبيلة، بحيث يقدم كل فخذ رهينة للإمام لفترة معينة من الزمن ثم يستبدل برهينة أخرى من الفخذ وهكذا........ فتتوزع الرهينة بهذه الطريقة على أفخاذ القبيلة بدلاً من حصرها في وجهاء وشيخ القبيلة. وتصبح فترة بقاء الرهينة لدى السلطات الإمامية قصيرة مقارنة بغيرها. تتراوح أعمار رهائن الضمان ما بين العاشرة والثامنة عشرة (٣٥). فهم صغار السن ذكرهم نزيه مؤيد العظم في كتابه رحلة في العربية السعيدة بالصبية (٣٦).

لقد استخدم الإمام يحيى حميد الدين رهائن الضمان في القصركـــ « دوادرة »(٣٧) يقومون بوظيفة الخدمة في بيت الإمام، لذلك فإنه لا يمكن بقاء الرهينة بعد تعدي سن الرشد، لأن الرهائن يخالطون نساء القصر، ولأن تكاليفهم ترتفع بارتفاع سنهم، علاوة على ذلك فإن الأطفال لا يشعرون كثيراً بقسوة البعد عن ذويهم، فكلما أدرك الرهينة حقيقة وجوده يتولد لديه على الأغلب شعور بالنقمة على الإمام، لذلك ما أن يبلغ الرهينة سن

الرشد حتى يتم إبداله بغيره من الأطفال. وكانت السلطة تختار من الرهائن للعمل في القصور "عكفة " أي حراسة خاصة وكذلك تستخدمهم حراس سجون ونقباء حراس سجون ويمكن ترقيتهم إلى الحرس الخاص (٣٨).

٢- **رهينة الحرب** (العطف): يؤخذ هذا النوع من الرهائن في حال تمرد إحدى القبائل، حيث يتم إكراه القبيلة المتمردة على تسليم رهائن. تعد هذه الرهينة مؤقتة تزول بزوال الظروف التي أخذت فيها. وتزدّاد أعداد رهائن الحرب في حالة تمرد قبيلة من القبائل التي كانت قد قدمت للسلطة الإمامية رهينة الضمان المذكورة سابقا، ولا تعود مقتصرة على شيوخ القبائل الكبيرة بل تشمل أيضاً شيوخ العزل، والقرى، أو جميع أفخاذ القبيلة أحياناً(٣٩).

وتبقى هذه الرهينة في حوزة الإمام إلى أن تحسن القبيلة علاقاتها مع الحكومة وتسهل طريق الجباة وتساعدهم في تأدية مهماتهم. وخير مثال على هذا النوع من الرهائن هو تجريد الإمام يحيى حميد الدين حملة عسكرية أجبرت شيوخ قبيلة الزرانيق (٤٠) في تهامة على تقديم الرهائن عند تمردهم على السلطة الإمامية (٤١).

ولعلّ الهدف من فرض ضريبة الحرب هو تأديب للقبيلة ولشيخها معاً، فمن واجب القبيلة المتمردة طاعة الدولة عن طريق تقديم رهائن الضمان فضلاً عن رهائن الحرب (العطف) وإلا تتعرض هذه القبيلة للعقوبة العسكرية حيث يفرض عليها نظام الخطاط (٤٢)، الذي يعد من العقوبات القاسية، التي تنص على إقامة مجموعة من عساكر الإمام في منازل القبيلة، ويكون واجب أصحاب هذه المنازل خدمتهم وتقديم الطعام والشراب والقات والأجرة اليومية لهم.

وإمعاناً في إذلال القبيلة المتمردة يتم تكليف جنود من قبيلة أخرى لتنفيذ المهمة ولا يبارح الجنود المكلفون بمهمة الخطاط إلا بعد أن تكون القبيلة قد استنفدت كل ما لديها من غذاء احتياطي وثروات حيوانية ثم يعودون وهم مصطحبون معهم رهائن الضمان والعطف.

وهنا يتوجب على شيخ القبيلة تحسين علاقته مع الحكومة، ويساعد الموظفين الحكوميين، ويستقبل جباة الزكاة، والحكام الشرعيين ويسهل مهامهم (٤٣)، وتؤخذ أوامر الخطاط من الإمام نفسه. إن رهائن الحرب غير مقيدة بسن معينة وغالباً ما تكون من العناصر (٤٤) التي تقوم بأنشطة معادية للدولة، وقد يأخذ الإمام شيخ القبيلة نفسه، وقد تشمل هذه الرهائن الأطفال أيضاً، وكان يسمح في حالات نادرة استبدال الشيوخ بأبنائهم كما حدث للشيخ أمين عبد الواسع، الذي خرج برهن ابنه مكانه(٤٥).

وبعد سقوط المقاطرة، تمّ اقتياد أسراهم إلى صنعاء مشياً على الأقدام وهم يحملون رؤوس قتلاهم حيث دامت الرحلة نحو الشهر وأصبح هؤلاء رهائن عند الإمام الذي احتجزهم وجعلهم كسوط ليضرب به أهلهم (٤٦).

لقد اتبعت حكومة الإمام أساليب القسوة والعنف السياسي لقمع ثورات الفلاحين، وفرضت عقوبة الموت على الثوار، وحبست الأحياء رهائن لضمان استمرارية ولاء قبائلهم لها(٤٧).

٣- **رهائن الاحتياط:** وهم الذين يسلمون عند وقوع وشاية أو إشاعة (٤٨). فقد كان الإمام يحيى حميد الدين إذا ما سمع أخبار غير مطمئنة، أو عن تحركات قبلية يبادر إلى اعتقال مشائخها، إذا تمكن من ذلك، أو إلى أخذ أعداد من الرهائن من القبيلة التي وصلت عنها الإشاعة حتى يمنع وقوع التمرد. والفرق بين رهينة الاحتياط ورهينة العطف (الحرب) هو أن الأولى تؤخذ عند حدوث إشاعات، بينما تؤخذ الثانية بعد تغلب الدولة على القبيلة

المتمردة. ملامح تطبيق الإمام يحيى حميد الدين نظام الرهائن في المملكة المتوكلية اليمنية:

على إثر هزيمة الدولة العثمانية خضعت اليمن الشمالي مع نهاية الحرب العالمية الأولى لحكم الأئمة بعد أن أوجد الإمام يحيى حميد الدين نظام الوراثة لعائلة حميد الدين وهو شبيه بالحكم الملكي الوراثي (٤٩). فقد قام الإمام يحيى بتأسيس أول حكومة مركزية، وقسم البلاد إلى ست محافظات، وهذا ما مكنه من السيطرة على القبائل والقرى حيث احتفظ بمقاليد السلطة كاملة لنفسه. وقد مثلت مرحلة زوال الحكم العثماني، وتأسيس المملكة المتوكلية اليمنية فترة انتقالية اتسمت بالاضطرابات السياسية، وقيام التمردات القبلية في أماكن كثيرة. كانت سيادة الإمام في البداية تقتصر على العناصر الزيدية ولكنه أخذ يوسع نطاق نفوذه في جبهات مختلفة حيث اصطدم بعناصر لا تعترف بسيادته فلجأ إلى القوة لإخضاعها مستخدماً أسلوب الرهائن لتثبيت سلطته، ولضمان الاستقرار في البلاد (٥٠). لقد هدفت سياسة الإمام إلى تعزيز هيبة الحكومة المركزية عن طريق استخدام العنف والقوة ومن أبرز معالمها نظام الرهائن. فساد نتيجة لذلك الخوف من بطش الدولة وأصبح وجهاء الريف يرهبونه ويضمرون الحقد للسلطة الحاكمة، ولكنهم وبحكم مواقعهم الإدارية ينفذون خططه الرامية إلى خلق هوة بين الريف والمدينة وبين الحكام والمحكومين. بقي نظام الرهائن أسلوباً رئيسياً اعتمد عليه الإمام يحيى حميد الدين من أجل تقوية جهازه الإداري وحمايته من تحديات القبائل في الأقاليم القريبة والبعيدة (٥١)، ولم تكن السلطات الإمامية تفرق بين مذهب وآخر عند جمعها للرهائن (٥٢)، وهذا ما يدحض رأي بعض المؤرخين مثل سلفاتور أبونتي الذي ادعى أن الإمام يحيى حميد الدين الذي كان يفرق بين الزيود والشوافع عند جمعه للرهائن (٥٣). فالإمام كان يأخذ الرهائن من القبائل الزيدية أكثر من القبائل الشافعية لإدراكه قوة هؤلاء وخطورتهم (٥٤).

وقد شملت هذه الظاهرة جميع فئات المجتمع دون استثناء وفرضت على القبيلة الموالية والمعادية دون تفريق (٥٥) ما دام الهدف هو طاعة النظام، وتأمين وصول التزامات الفلاحين من القرى والعزل إلى خزينة الدولة وضمان الأمن والاستقرار في مختلف الأقاليم.

اختلفت معاملة السلطات الإمامية للرهائن باختلاف أنواعهم. وقد أدى ذلك إلى خلط الباحثين عند كتابتهم عن أوضاع الرهائن.

وربما أسفرت النظرة السلبية عن عدم الرضا عن سياسة الإمام يحيى حميد الدين الداخلية والخارجية والمطالبة بتحسين هذه السياسة.

كان رهائن الحرب يعانون من سوء المعاملة، والتعذيب إلى الحد الذي وصل إلى التصفية الجسدية، فقد أشارت صحيفة صوت اليمن إلى أن مجموعة من المشايخ قد لقوا حتفهم في سجن حجة(٥٦)، لقد كان رهائن الحرب أشبه بالمعتقلين أو بالأسرى، لا يسمح لهم بحرية الحركة أو التنقل. وكانت السجون هي أماكنهم التي يتم مراقبتهم فيها أيضاً خوفاً من القيام بأي نشاط داخلي فيها. ذكر الرحالة أحمد وصفي ذكريا المعاملة السيئة التي يواجهها هؤلاء الرهائن بقوله أنهم (.... يعيشون في معاقلهم مغلولي الأرجل بقيود الحديد، ويكون معاشهم من آبائهم) (٥٧)، وهناك كتابات عديدة تذكر أوضاع الرهائن السيئة وأنهم مثلاً ((يوضعون في السجون مع القتلة والسفاكين والمجرمين واللصوص وقطاع الطرق)) (٥٨).

وتعود أسباب هذه المعاملة السيئة إلى أن هؤلاء الرهائن قد انتزعتهم الدولة بعد حروب مع قبائلهم، لذلك فإن أغلب رهائن الحرب من مشائخ القبائل، ومن العناصر المتمردة نفسها،

وهذا ما يجعل معاملتهم تختلف عن معاملة رهائن الضمان الذين قدموا للسلطة الامامية بشكل سلمي(٥٩).

وفي أوقات السلم تسمح السلطات الإمامية لرهائن الضمان بحرية الحركة، والتنقل بين أسواق المدينة التي تم اختيارها لإقامتهم على أن لا يغادروا المكان مطلقاً (٦٠). وكان بعض رهائن الضمان يقدم منافع للسجناء (٦١). ويشارك رهائن الضمان أحياناً في الأنشطة الاستعراضية العسكرية ولكن دون أن يحملوا أي سلاح أو خنجر كما هي العادة عند أهل اليمن، وهذا أمر مخزٍ ومؤثر في نفسية الرهينة (٦٢). وفي مدينة مناخة حراز في محافظة صنعاء كان هؤلاء الرهائن يقيمون في دار في الطابق العلوي ويعاملون معاملة كريمة، وكانوا يتجولون في سوق المدينة دون حراسة، حيث كان مظهرهم يدل على أنهم أبناء مشايخ وأسر غنية. أما الطابق السفلي من الدار فقد كان مخصصاً للمساجين (٦٣)، وربما أدت إقامة هؤلاء الرهائن في دار المساجين نفسه إلى خلط بعض الباحثين والمؤرخين عند كتابتهم عن أحوال الرهائن، ويتركز وجود الرهائن في صنعاء وتعز وحجة وصعدة ويريم وذمار، وقد ورد في أحد الوثائق المحفوظة في المركز اليمني للوثائق المحفوظة في صنعاء بأن حصن صنعاء أو ما كان يسمى (بالقصر السعيد) هو مقر الرهائن في صنعاء (٦٤). وقد ذكر محمد حسن بأن رهائن الضمان يوضعون في بيت مخصصٍ لهم سميّ (بيت الرهائن) حيث يبقون تحت حراسة الجند فيه (٦٥).

كان نزيه مؤيد العظم شاهد عيان على ما رآه فذكر: « رأيت من نافذة غرفتي في السراي (المقام الشريف) صبية يلعبون في صحن دار متسعة ظننتها لأول وهلة مدرسة، ولكن سرعان ما تبدى هذا الظن إذ رأيت بالقرب منهم جندياً حاملا بندقية، وواقفاً لحراستهم، وسألت البعض عن أمر هؤلاء، فقيل لي هؤلاء من الرهائن »(٦٦).

وكان الرهائن يتسلمون رواتب خاصة بهم من بيت المال، وقد اختلفت هذه الرواتب من سنة إلى أخرى. ففي عام ١٩١٩ م قدرت بريالين ونصف لكل رهينة فضلاً عما كان يصرف لهم من الحبوب شهرياً (٦٧)، وقد ارتفعت هذه الرواتب حيث وصلت إلى أربعة ريالات شهرياً (٦٨). هناك من يذكر أن القبائل التي سلمت رهينتها إلى الإمام هي التي تنفق على الرهينة وحاجته من طعام وملبس (٦٩).

وعلى الرغم من الوضع التعليمي البدائي في عهد الإمام يحيى حميد الدين فقد توافر لرهائن الضمان دون غيرهم فرص لتعلم القراءة والكتابة لم تتوافر لغيرهم من المواطنين العاديين، حيث كانت مراكز الرهائن تضم مجموعة من المربين المكلفين بتعليمهم مبادئ اللغة والدين وهذا ما أكده أمين الريحاني، الذي ذكر استقبال طلاب المدرسة الرهائن مع شيخهم عند وصوله إلى يريم (٧٠).

ذكر عبد العزيز الثعالبي (٧١)، الذي زار اليمن عام ١٩٢٤م، أن الإمام يحيى حميد الدين عين للرهائن المعلمين والمربين لتعليمهم القرآن الكريم ونصيباً من العلوم تناسب أعمارهم ولم يعرضهم للجهل (٧٢). وقد ذكر لي السيد علي مقبل العذري، الذي كان رهينة عند الإمام يحيى حميد الدين، بأن الرهائن يتم تدريسهم من قبل اثنين من الفقهاء، وكان يتم إحضار طعامهم من الأهل إلى جانب ما يصرف لهم (٧٣). ويستنتج من ذلك أن تعليمهم كان بسيطاً وربما تعمد الإمام ذلك، لأن في تعليمهم وتثقيفهم خطراً على سياسته، ومع ذلك فقد أنهى عدد منهم الدراسة في المرحلة الأولى ليتابع في المدرسة العلمية، التي تدرس القرآن الكريم والنحو والصرف والحديث والحساب والجغرافية (٧٤).أما بالنسبة للأوضاع الصحية للرهائن فلابد من ذكر سوء الأوضاع الصحية العامة في اليمن، وهنا نجد أن

فرصهم أفضل من بقية المواطنين لوجودهم في مراكز الألوية التي يتوفر فيها عدد قليل من الأطباء ومحلات العطارة (٧٥).

نتائج تطبيق أسلوب الرهائن:

لقد هدف الإمام يحيى حميد الدين في أخذه رهائن الضمان، إلى ضمان ولاء شيوخ القبائل وجمعهم تحت سلطته من خلال جمع أولادهم رهائن، وبذلك يبقى هؤلاء الشيوخ على اتصال دائم بالإمام وبالسلطة المركزية من خلال الزيارات التي يقومون بها لأبنائهم المحتجزين. وكان يرمي أيضاً إلى تشديد قبضته على القبائل وجعل ولاء الفرد للسلطة المركزية أقوى من ولائه لشيخ قبيلته. لقد ساهمت سياسة الرهائن في تقوية الحكومة الإمامية وعملت على إطالة حكم الإمام إلى ما يقرب من ثلث القرن ١٩١٨-١٩٤٨م، أما الهدف الثاني لهذه السياسة فهو الحرص على وصول موارد الدولة إلى بيت المال. وقد خدمت ودعمت هذه السياسة الجوانب المالية، لأن الرهائن وهم أبناء أو أخوة أو أقارب شيوخ القبيلة، وغالباً ما يكون هؤلاء الشيوخ هم شيوخ الضمان ممن يتولى جمع الزكاة أو الإشراف أو المساهمة في جمعها وبشكل خاص في النواحي والعزل البعيدة، حيث يقوم هؤلاء الشيوخ بإيصال حقوق الدولة كاملة مع البيانات التي تدل على صحتها (٧٦)، وقد توسع أحياناً شيوخ القبائل في المناطق البعيدة في جمع الضرائب والزكاة؛ لأن الرقابة المركزية كانت ضعيفة مما زاد الضغط على القبائل، لقد أسهمت سياسة الرهائن في إضعاف سلطة القبيلة وساعدت الإمام يحيى حميد الدين في بداية عهد المملكة المتوكلية اليمنية على كبح جماح القبائل، حتى امتدت سلطته إلى أقاليم كثيرة، بعد أن كانت هذه السلطة لا تتعدى المناطق الزيدية في الشمال.

لقد أدت سياسة الرهائن إلى خلق نوع من التكافؤ بين سلطة الدولة والقبيلة، فالدولة لم تكن تمتلك القوة لردع التمردات القبلية، والقبائل أيضاً لم تمتلك قوة عسكرية تستطيع إسقاط الدولة متى شاءت (٧٧) إن تكافؤ القوى بين الدولة والقبائل، بالإضافة إلى امتلاك الدولة القدرة على تجنيد قبيلة ضد أخرى جعل سيطرة الدولة على القبيلة أمراً ممكناً، ما دامت هذه التبعية تعود إلى القبيلة وشيخها بالفوائد المادية التي تمنحها الدولة لشيوخ القبائل مع احتفاظ السلطة بأبناء المشايخ رهائن لديها لضمان هذا الولاء. فقد ساعد نظام الرهائن الدولة على السيطرة على القبائل عن طريق هيمنتها على مشايخها، الذين يعدون أنفسهم حكاماً في مناطقهم (٧٨). وهنا لابد من التنويه إلى أن النجاح النسبي الذي حققه الإمام نتيجة تطبيق نظام الرهائن جاء نتيجة تطبيقه في المجتمع القبلي اليمني. إن سياسة الرهائن لا تأتي بنتائج في مجتمع غير قبلي ولا يمنح الفرد فيه ولاءه للقبيلة، أي في مجتمع عنده القدرة على تطبيق القانون.

لقد ذكر محمد حسن نتائج إيجابية لهذه الظاهرة بقوله: « فأنت ترى أن ما يفعله أخذ الرهائن في اليمن من نتائج تتمثل في الأمن والهدوء والاستقرار ما لا يفعله أي قانون دستوري في الممالك الشرقية التي منيت بالقلاقل والفتن والاضطرابات»(٧٩). إلا أن هذا الرأي بعيد عن الصحة؛ لأن الاضطرابات التي كانت موجودة في بعض البلاد العربية لم تنجم عن النظم الدستورية المطبقة فيها، وإنما نتجت عن عدم رسوخ هذه النظم، وإن الحل يكون في توسيع وتثبيت هذه النظم الدستورية وا ن في تفضيل ظاهرة الرهائن عليها؛ لأن هذه الظاهرة هي ظاهرة سلبية، أدت إلى نتائج سلبية كثيرة ولم توجد وحدة روحية في اليمن بل على العكس أوجدت أحقاداً وخلافات كثيرة. فمثلا يعود نفور شيوخ المحميات الجنوبية في اليمن من حكم الإمام يحيى حميد الدين وميلهم إلى الإنكليز إلى خوفهم من أخذ الرهائن منهم (٨٠). ولم يكن تطبيق أسلوب الرهائن مصدر أمن للسلطة دائماً، بل على

العكس أصبح وعلى المدى البعيد مصدر إزعاج، وأحد أسباب عدم الاستقرار؛ لأنه خلق علاقات غير ودية بين جنود السلطة المركزية والأهالي. وقد أدى اعتماد الإمامة على شيوخ المنطقة في تسهيل جمع الضرائب في النواحي والعزل البعيدة إلى تشكيل طبقة من ملاك الأراضي قامت بممارسة إجراءات قمعية كفرض عقوبات مالية على الفلاحين وسجنهم (٨١).

وهذا ولد حقد عميق بين الفلاحين وشيوخ القبائل من جهة وبين الفلاحين والسلطة المركزية من جهة أخرى، مما أدى إلى وجود تناحر بين الريف والمدينة.

لقد قاد شيوخ القبائل المتضررون من نظام الرهائن ومركزية الدولة ثورات فلاحية مثل الثورات التي قادها الشيخان ناصر القردعي وأخوه أحمد ١٩٣٢-١٩٣٣م، حيث هاجم فيها رجال مذحج الحاميات العسكرية وموظفي السلطة المركزية المنتشرين لجمع الزكاة والرهائن، وقد وقع الشيخ أحمد ناصر أسيراً بيد جيش الإمام وأخذ رهينة حتى يضمن الإمام عدم تمرد هذه القبائل على سلطته (٨٢).

لقد أثر أسلوب الرهائن على علاقة الإمام يحيى حميد الدين مع القبائل خارج منطقة نفوذه وفي داخل المحميات الجنوبية، التي رفضت مناصرته خشية مطالبتهم بالرهائن. وقد ذكر سلطان الحواشب (٨٣) علي بن مانع لأمين الريحاني « هو ابني الوحيد يا أمين، ولكني أذبحه والله ولا أسلمه رهينة لأحد »(٨٤).

فقد كان العامل الأساسي لنفور هؤلاء الشيوخ من الإمام وميلهم للإنكليز هو خوفهم من أخذ الإمام رهائن منهم، وهذا ما أكده جواب سلطان ناحية المسيمير لنزيه مؤيد العظم عندما سأله عن مدى رغبته في الاتفاق مع الإمام يحيى حميد الدين؛ لأن ذلك برأيه أفضل من

الاتفاق مع الإنكليز والتعامل معهم، حيث اجاب نعم نخضع له ولكن بشرطين ان لا يطلب منا رهائن، وثانياً إذا أتينا إلى صنعاء يجب أن يطلقوا حين وصولنا مدافع (٨٥).

وبذلك شكلت سياسة الرهائن عائقاً أمام اتفاق السلاطين في الجنوب مع الإمام يحيى حميد الدين، ودفعت هؤلاء السلاطين إلى تفضيل التعامل والاتفاق مع الإنكليز على إعطاء رهينة الضمان للسلطة المركزية. لقد تمكن الأديب اليمني زيد مطيع دماج في قصة "الرهينة" التي جمعت بين القصة والواقع الذي عاشه الرهائن في التعبير عن همومه وعن معاناة الشعب اليمني (٨٦).

كان زيد ابن الشيخ مطيع دماج الذي خشي من أن يأخذ الإمام ابنه رهينة مما دفع أمه إلى الاختباء وهي حامل في شهرها السادس في مكان في المنزل يسمى (السفل) وهو خاص بالأغنام والحطب خشية من الإمام الذي كان يترقب مولوداً للشيخ مطيع لأخذه رهينة. وعند ولادته ظلت أمه متخفية ومتنقلة من مكان إلى آخر عدة سنوات ومخفية مولودها. وقد اكتفى الإمام بأخذ أحمد قاسم دماج رهينة عن آل دماج وكان عمره سبع سنوات.

وقد نتج عن تطبيق سياسة الرهائن آثار سلبية كثيرة على الحكم وعلى المؤسسات القبلية، لذلك نجد أنه عند تشكيل حركة المعارضة في عدن تم الاتفاق على إلغاء بعض الأنظمة السلبية ومنها نظام الرهائن (٨٧)، وقد أصبحت سياسة الرهائن محط انتقاد الجماعات المثقفة اليمنية التي أملت بطريقة أفضل لحكم اليمن، حيث وصلت حالات التذمر إلى درجة دفع بعض الشيوخ إلى الالتحاق بصفوف المعارضة في عدن مثل الشيخ ناشر عبد الرحمن العريفي، الذي خرج من سجن حجة، بعد أن رهن أحد أبنائه بدلاً عنه، والتحق بالمعارضة (٨٨). كما التحق بعض شيوخ تعز، بصفوف المعارضة مثل: الشيخ أمين عبد الواسع

نعمان، والشيخ نعمان عبد القادر نعمان، اللذين كانا في السجن أيضاً وخرجا برهن ابنيهما بدلاً منهما (٨٩).

لقد كان من أهم نتائج تطبيق سياسة الرهائن تنبه القبائل إلى خطورتها على وحدتهم القبلية. ومع أن القبائل اليمنية سلمت ظاهرياً بسلطة الدولة، إلا أن هذا لم يتعد حدود تقديم الرهائن، فقد بقيت التحالفات القبلية كتحالف حاشد وبكيل ومذحج متماسكة، وقدر للشيوخ المعارضين قيادة كفاح قبائلهم ضد الحكومة الإمامية.

لقد نجح الإمام يحيى حميد الدين من خلال انتهاج سياسة الرهائن في إضعاف هذه القبيلة أو ذلك الشيخ، إلا أن النتائج النهائية لهذه السياسة لم تؤد إلى تحطيم النظام القبلي ككل، فقد خضعت معظم القبائل للسلطة الإمامية تحت تأثير القوة العسكرية، وتأجج النزاعات القبلية، إلا أن أهم نتيجة لتطبيق أسلوب الرهائن كان بذر الفرقة بين الحكومة الإمامية والمؤسسة القبلية في اليمن ولاسيما تحالف حاشد وبكيل. وقد نتج عن سياسة الرهائن دفع الريف اليمني للثورة على سلطة الإمام بعد أن شعرت القبائل بالخطر الذي يتربص بمستقبلها. لقد اعتقد الإمام يحيى حميد الدين بحتمية هذا الأسلوب لضمان تأييد وولاء القبائل له، بالرغم من أن الإسلام حرّم أسر المسلمين رهائن وإثخانهم بالأغلال.

فإنه لا يجوز احتجاز المدنيين من الأعداء رهائن، بسبب عمل يرتكبه أو يمتنع عنه غيرهم، وليسو مسؤولين عنه؛ لأن من أهم قواعد العدل بين الناس أن لا يسأل أحد عن عمل غيره، وأن لا يحاسب على جريمة اقترفها غيره. هذه القاعدة الشرعية أكدها القرآن الكريم في كثير من آياته، كقوله تعالى: ﴿ ولا تزروا وازرة وزر أخرى ﴾(٩٠). وقوله تعالى: ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ (٩١).

ولا بد من التنويه في الختام إلى أن الإمام يحيى حميد الدين قد عدّ ظاهرة الرهائن هي واحدة من الطرق المثلى لفرض سيطرته ونفوذه في اليمن، وظل يستخدمها طوال عهده وهذا ما صبغ فترة حكمه في النصف الأول من القرن العشرين بالتأخر والجمود.

الهوامش

١- ولد الإمام يحيى في مدينة صنعاء في ربيع الأول سنة ١٢٨٦ هـ، حزيران ١٨٦٩ م، ونشأ في كنف والده الإمام المنصور محمد بن حميد الدين. وبدأ بممارسة القيادة السياسية والعسكرية في ظل حكمه المتسم بالاضطراب والمقاومة ضد العثمانيين. وعندما توفي الإمام المنصور ١٣٢٢ هـا ١٩٠٤م بويع يحيى إماماً واتخذ لقباً له المتوكل على الله.

٢- تضمن برنامج سولون الاصطلاحي تحريم رهن الإنسان الحر لنفسه لقاء دين، حتى لا يصبح المدين عبداً لدائنه.

انظر: سيد أحمد على الناصري، الإغريق.. تاريخهم وحضارتهم، القاهرة ١٩٩٩، ص ٢١٨.

٣- انظر: إبراهيم نصحي، **تاريخ الرومان** من أقدم العصور حتى عام ١٣٣ ق.م، الجزء الأول، القاهرة ٢٠٠٠ م، ص٣٣٩.

٤- انظر: اسمت غنيم، **تاريخ الإمبراطورية البيزنطية** ٣٢٤ -١٤٥٣م، الإسكندرية ١٩٩٠ م، ص٤١.

٥- نصت المادتان الثامنة والتاسعة من شروط السلم على: "إذا احتفظنا في مدننا بشخص رهينة، فإننا نتعهد بحمايته من أي عدوان، وترك الحرية له في دخول المدينة أو الخروج منها وفق ما يشاء، ولكن إذا حاول مثل هذا الشخص الهرب حانثاً بأيمانه، فإن المدينة تنذره ثلاث مرات، فإذا لم يعد فإن لصاحب الرهن أن يقيم عليه دعوى أمام القضاة لإعادته."

-انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، **أوروبا العصور الوسطى، التاريخ السياسي**، الجزء الأول، الطبعة الثامنة، القاهرة ١٩٩٧م، ص٧٤٢.

٦- انظر: سيد توفيق، **معالم وتاريخ وحضارة مصر الفرعونية**، القاهرة ١٩٨٧م، ص ٤٥.

٧- انظر: الموسوعة اليمنية، صنعاء د.ت، المجلد الثاني، ص ١٤٠٦.

٨- انظر: جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٦. ج ٣، ص ٤٩٦.

٩- انظر: **الموسوعة اليمنية**، المجلد الثاني، ص ١٤٠٦.

١٠- انظر: محمد عبد الله ماضي، **دولة اليمن الزيدية(نشأتها، تطورها، علاقاتها)**، القاهرة ١٩٥٠، ص٤٢.

١١- الإسماعيلية: طائفة دينية تنسب إلى إسماعيل الابن الأكبر لجعفر الصادق. تفرعت هذه الطائفة من الإمامية الاثنا عشرية بعد وفاة جعفر الصادق، إذ لم تعترف طائفة من الشيعة عرفت باسم الخطابية بإمامة موسى الكاظم الإمام السابع عند الاثنا عشرية، ونادوا بدلاً من ذلك بإمامة إسماعيل وابنه محمد.

١٢- انظر: **الموسوعة اليمنية**، المجلد الثاني، ص ١٤٠٧.

١٣- انظر: حسين بن غنام، **روضة الأفكار والأفهام** لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، القاهرة ١٣٦٨ه، ص٩٣-٩٨.

١٤- انظر: عبد الصمد الموزعي، **الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان**، منشورات وزارة الأوقاف والإرشاد، صنعاء د.ت، ص ١٩٦.

١٥- انظر: جلوبوفسكايا، ثورة ٢٦ **سبتمبر في اليمن**، ترجمة قائد طربوش، موسكو ١٩٧١، ص١٠٢.

١٦- انظر: سلطان أحمد عمر، **نظرة في تطور المجتمع اليمني**، بيروت ١٩٧٠، ص ٢٩.

١٧- انظر: أمين الريحاني، **ملوك العرب**، بيروت ١٩٦٢، ج١، ص٢٠٨.

١٨- انظر: نزيه مؤيد العظم، **رحلة في بلاد العربية السعيدة**، بيروت ١٩٨٦، ص ٧٧.

١٩- انظر: المرجع نفسه، ص ٧٠.

٢٠- انظر: سيد مصطفى سالم، **الفتح العثماني الأول لليمن**، ١٥٣٨-١٦٣٦ م، القاهرة ١٩٧٨، ص ٢٧٤.

٢١- انظر: هشام علي، "**الرهينة، اسر الكتابة وحرية القراءة**": مجلة الثقافة، العدد السابع ١٩٥٥م، ص ٣٤.

٢٢- انظر: سيف الدين سعد آل يحيى، **تاريخ البعثة العسكرية العراقية إلى اليمن** ١٩٤٠-١٩٤٣م، ج١، صنعاء ١٩٧٥، ص ٨٦.

٢٣- قبيلة حاشد: إحدى كبريات قبائل همدان تنسب إلى حاشد بن جُثم. هي قبيلة تمتلك أراضي واسعة تشمل جبال الأهنوم وظُليمة والعُصيمات وخارف وغيرها. قبيلة بكيل: بطن من همدان، بنو بكيل بن جُشم، بلادها ما بين صنعاء وصعدة في الجانب الشرقي، وهي بلاد واسعة فيها الكثير من النواحي، ولها فروع كثيرة مشهورة معروفة.

٢٤- انظر: الريحاني، المصدر السابق، ج١، ص ٥٨.

٢٥- اتبع الهولنديون هذا الأسلوب في ميناء المخا بتاريخ ٢١ ربيع الأول سنة ١٠٣٨ هـ الموافق ٢٨ تشرين الثاني ١٦٢٨ م.

٢٦- ريمة: بلدة جنوب شرق الحديدة بمسافة ٧٠كم، غرب جنوب صنعاء، تتصل ببلاد وصاب والجراف بجبل بُرع ومركزها الجبي.

٢٧- الشريف حسين ١٢٧٠-١٣٥٠هـ١٨٥٤-١٩٣١ م:

هو الحسين بن علي بن محمد بن عون القرشي الهاشمي. حارب الأتراك، وقاد الثورة العربية الكبرى، تنحى عن العرش لابنه علي، وارتحل إلى جدة سنة ١٩٢٤م ثم إلى العقبة، وبعدها إلى جزيرة قبرص ١٩٢٥ م، حيث أقام بها ست سنوات، حتى أذن الإنجليز بسفره بعدها إلى عمان عندما مرض، ومات هناك بعد ستة اشهر، ودفن بالمسجد الأقصى.

٢٨- الادريسي: هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد الإدريسي. قدم جده الأول أحمد بن إدريس إلى مكة عام ١٨٠٠ م، ثم توجه إلى زبيد ومنها إلى المخلاف السليماني عام ١٨٢٩م. ويعد أول أمير عربي استجاب لدعوة بريطانية لدخول الحرب في جانبها ضد تركيا.

٢٩- آبها: تقع في رأس وادي ضلع، في مرتفعات السروات على ارتفاع ٢٢٠٠ م.

٣٠- قد يكون تطبيق الإدريسي لنظام الرهائن دليلاً على عدم ثبات ولاء القبائل وتأرجحها بين الولاء له والولاء للإمام يحيى حميد الدين لذلك أخذ أبنائهم رهائن لتثبيت الولاء له.

٣١- دعان: بلدة تقع في الشمال الغربي من مدينة عمران بمسافة ١٨ كم.

٣٢- حراز: قضاء تابع لصنعاء، يقع على بعد ٨١ كم غربي صنعاء، مركزه مناخه.

٣٣- انظر: عبد الله البردوني، **الثقافة والثورة في اليمن**، دمشق ١٤١١ه، ص ٢٣٠. والريحاني المصدر السابق، ج١، ص ١٤٣.

٣٤- انظر: البردوني،المرجع السابق، ص ٢٣٠.

٣٥- انظر: فاروق عثمان أباظة، **الحكم العثماني في اليمن**(١٨٧٢-١٩١٨) القاهرة ١٩٧٥م، ص ٦٤.

٣٦- انظر: العظم، **المصدر السابق**، ص ٧٠.

٣٧- دويدار، لفظ فارسي بمعنى السكرتير أو الخاص في دور الأمراء.

٣٨- انظر: البردوني، المرجع السابق، ص ٢٣٠.

٣٩- انظر: أحمد محمد محمود الفقيه، **السياسة الإدارية والمالية في عهد الإمام يحيى** ١٩١٨-١٩٤٨م، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة صنعاء عام ١٩٩٤ م، ص ٢٥٣.

٤٠- قبيلة الزرانيق. من قبائل تهامة ينسبون إلى زرنق بن الوليد، وهم في الأصل قبائل المعازبة، مساكنهم ما بين وادي رمع ووادي ذؤال، ومابين البحر الأحمر وجبال ريمة الأشابط.

٤١- انظر: حسين أحمد العرشي، **بلوغ المرام في شرح مسك الختام**، بيروت، د.ت، ص ١٩٢.

٤٢- الخطاط: ومعناها الترتيب والتوزيع للقوة على المنازل والقرى. وكانت الحكومة الإمامية تفرض إجراءات الخطاط على القبائل المتخلفة في دفع الزكاة أو المعارضة لسلطتها. وفي الغالب كانت تسلط قبيلة على قبيلة أخرى لا لتقضي على شوكتها

فحسب، بل ولتقيم لديها إقامة جبرية، حتى تعلن الأخيرة طاعتها وتجدد ولاءها للحكومة.

٤٣- انظر: سيد مصطفى سالم، **وثائق يمنية، دراسة وثائقية تاريخية**، القاهرة ١٩٨٢، ص ١١٦.

٤٤- انظر: الفقيه، **المرجع السابق**، ص ٢٦٤.

٤٥- انظر: **صحيفة صوت اليمن**، العدد ٤، نوفمبر ١٩٤٧، ص ٤.

٤٦- انظر: سلطان ناجي، **التاريخ العسكري لليمن** ١٨٣٩-١٩٦٧م، عدن ١٩٧٦، ص ٧٨.

٤٧- انظر: سيد مصطفى سالم، **وثائق يمنية**، ص ١١٦.

٤٨- انظر: البردوني، المرجع السابق، ص ٢٣٠.

٤٩- انظر: سيد مصطفى سالم، **تكوين اليمن الحديث** (١٩٠٤-١٩٤٨)القاهرة ١٩٨٤، ص١١٠.

٥٠- انظر: آل يحيى، المرجع السابق، ج ١، ص ٨٦.

٥١- انظر: سيد مصطفى سالم، **تكوين اليمن الحديث**(١٩٠٤-١٩٤٨) القاهرة ١٩٨٤، ص ٤٩١.

٥٢- انظر: ادجار، اوبالانس، اليمن، الثورة، الحرب، ترجمة عبد الخالق لاشين، بيروت ١٩٨٥، ص ٤٨.

٥٣- انظر: سلفاتور، ابونتي، **مملكة الامام يحيى في بلاد العربية السعيدة**، ترجمة طه فوزي، القاهرة ١٩٤٧، ص ٣٩.

٥٤- انظر: سيد مصطفى سالم، تكوين مرجع سابق، ص ٤٩٥.

٥٥- انظر: عبد العزيز قائد المسعودي، **معالم تاريخ اليمن المعاصر**، صنعاء ١٩٩٢م، ص ٢١.

٥٦- انظر: **صحيفة صوت اليمن**، العدد ١١، ١٦ كانون الثاني ١٩٤٧م، ص٤.

٥٧- انظر: ذكريا، المصدر السابق، ص ١٦٥.

٥٨- انظر: مصطفى الشكعة، **ثلاث وثائق عربية عن ثورة ١٩٤٨**، بيروت ١٩٨٤، ص ٩٣.

٥٩- هناك سبب آخر يخشاه الإمام في حالة إساءة معاملة رهائن الضمان، وهو وجود رد فعل سلبي من قبل آبائهم، الذين يملكون إمكانيات إزعاج للسلطة إذا تعرض أبناؤهم لمعاملة سيئة.

٦٠- انظر: هانز هلفريتز، **اليمن من الباب الخلفي**، ترجمة خيري حماد، بيروت 1985 م، ص ١٤٨.

٦١- انظر: البردوني، المرجع السابق، ص ٢٣٠.

٦٢- انظر: عبد الله الشماحي، **اليمن، الإنسان، الحضارة**، القاهرة ١٩٧٢ م، ص ٢٧٥.

٦٣- مقابلة مع أحد أعيان عزلة بني خطاب، الحاج محمد عبده حذيفة في منزله الكائن في بني قليد-عزلة بني خطاب، مناخة، حراز، محافظة صنعاء.

٦٤- انظر: **وثيقة محفوظة بالمركز اليمني للوثائق**، صنعاء، مجموعة وثائق عام ٩١٩ م.

٦٥- انظر: محمد حسن، **قلب اليمن**، بغداد ١٩٤٧ م، ص ١١٩-١٢٠.

٦٦- انظر: العظم، المصدر السابق، ص ٧٠.

٦٧- انظر: وثيقة محفوظة بالمركز اليمني للوثائق صنعاء، مجموعة وثائق عام ١٩١٩م.

٦٨- انظر: عبد العزيز قائد المسعودي، **معالم تاريخ اليمن المعاصر**، صنعاء ١٩٩٢ م، ص ١٢١.

٦٩- انظر: سلفاتور ابونتي، مرجع سابق، ترجمة طه فوزي، القاهرة ١٩٤٧، ص ١٢٩.

٧٠- انظر: أمين الريحاني، ملوك العرب، ج١، ص١٠٩.

٧١- عبد العزيز الثعالبي ١٢٩١-١٣٦٣ هـ، ١٨٧٤-١٩٤٤ م: هو عبد العزيز إبراهيم ابن عبد الرحمن الثعالبي، مفكر وسياسي تونسي تأثر بأفكار رواد الاصطلاح الفكري الإسلامي مثل: محمد عبده، ورشيد رضا. ناضل ضد الحماية الفرنسية. نشر عام ١٩٢٠م كتابه الشهير تونس الشهيدة.

٧٢- انظر: عبد العزيز الثعالبي، **الرحلة اليمنية**، تحقيق حمادي الساحلي، بيروت ١٩٩٧ م، ص ٧١.

٧٣- مقابلة مع أحد الرهائن، السيد علي مقبل العذري، في منزله في صنعاء بتاريخ ٢٠/٥/٢٠٠٣ م.

٧٤- انظر: العظم، المصدر السابق، ص ٢٣١.

٧٥- انظر: الفقيه، المرجع السابق، ص ٢٦٢.

٧٦- انظر: المرجع نفسه، ص ٢٨٨.

٧٧- انظر: عبد الملك المقرمي، **التاريخ الاجتماعي في الثورة اليمنية**، بيروت ١٤١١ هـ، ص ١٥٦.

٧٨- انظر: هلفريتز، المرجع السابق، ص ١٦٧.

٧٩- انظر: الريحاني، المصدر السابق، ج١، ص ١٠٨.

٨٠- انظر: سيد مصطفى سالم، مرجع سابق، ص ٤٩٤.

٨١- انظر: أحمد قائد الصائدي، **حركة المعارضة اليمنية في عهد الإمام يحيى بن محمد حميد الدين** ١٩٠٤-١٩٤٨م، بحث لنيل درجة الدكتوراه في ألمانيا، صنعاء ١٩٨٣، ص ١٣٦.

٨٢- انظر: المسعودي، المرجع السابق، ص ١٥٤.

٨٣- الحواشب: قبيلة وبلاد تجاور قبائل الفضلى وقبائل الصبيحي ورذمان والضالع، وبها النواحي التالية: الراحة والحرور والدريجة والمسيمير وجول مدرم والملاح، مركزها المسيمير.

٨٤- انظر: الريحاني، المصدر السابق،ج١، ص ٩٤.

٨٥- انظر: العظم، المصدر السابق، ص ٣١٤.

٨٦- انظر: WWW Khayma com ibby men12 damag ntena.

٨٧- انظر: أحمد محمد الشامي، **رياح التغيير في اليمن**، صنعاء ١٩٨٥، ص ١٣٩.

٨٨- انظر: **مجلة صوت اليمن**، العدد ٣٦، ١٠ يوليو ١٩٤٧ م، ص ٤.

٨٩- انظر: المصدر نفسه، ص ٤.

٩٠- الإسراء ١٥.

٩١- فصلت ٤٦.

حركة الإصلاح في الدولة العثمانية

الأستاذ الدكتور محمود علي عامر
قسم التاريخ
جامعة دمشق

تحولت الدولة العثمانية بفضل قواتها العسكرية وهمّة سلاطينها الأوائل، إلى إمبراطورية مترامية الأطراف شرقاً وغرباً، بحيث خضع لسلطانها ٣٤ولاية شرقاً و٢٤ ولاية غرباً، وأقامت خلال مراحلها الأولى نظاماً عسكرياً صارماً، وفرضت قوانينها وأنظمتها على شعوب وقبائل، وتدافع ملوك أوروبة وأمراؤها لتقبيل العتبة الهمايونية، وتمكن الفرنسيون منذ سنة ١٥٣٥م، الحصول على امتيازات داخل ممالكها، وتلاهم الإنجليز والهولنديون، وغيرهم، إلا أن هذه الامتيازات لم تكن تشكل أي عائق يحول دون نفاذ الأمر السلطاني على الدولة الأوروبية التي تمتعت بتلك الامتيازات، غير أن توقف الفتوحات وانصراف السلاطين ولاسيما سلاطين القرن السابع عشر إلى الانزواء والتحجب، أسهم شيئاً فشيئاً في بروز نفوذ الصدر الأعظم، وسعي الأوروبيين داخل الإمبراطورية (الدولة العثمانية) للتدخل في شؤونها الداخلية مستغلين فساد نظام الانكشارية وانسحابها من ساحات القتال وممارستها الإرهاب على السلاطين والأهالي على حد سواء.

هذه التحولات الداخلية التي طرأت على بنية الدولة العثمانية، اتسعت دائرتها لدرجة أن الفساد والانحراف لامسا جوهر النظام العسكري الداعم لكيان الدولة داخلياً وخارجياً، وغدا النفوذ الأوروبي المتزامن مع تفاقم الفساد حقيقية واقعة، مما فرض

على سلاطين القرن الثامن عشر الحد من نفوذ الانكشارية وإلزامها على الأقل بنظامها التي تربت عليه، وقد رافق محاولة الإلزام هذه، فكرة إصلاح قوانين وأنظمة الدولة التي لم تعد تلائم واقعها ومتطلبات العصر ومستجداته.

لم يكن القصد من الإصلاح القضاء على الانكشارية أو استبدالها بقوات حديثة،ولا تطوير القوانين لدرجة الاقتداء الكامل بالقوانين الأوروبية، وإنما إيقاف التدهور المتسارع لمختلف مناحي الحياة السياسية والاقتصادية، بحيث تسهم الحركة الإصلاحية في التخفيف من التذمر الشعبي من جهة، واستعادة المناطق التي انتزعتها النمسا وروسيا من جهة أخرى، ولتجنيب السلاطين عدم التسلل خفية لتوقيع معاهدات إذعان لبعض الدول الأوروبية الطامعة بأملاكها، هذه العوامل وتلك الأسباب هي التي ولّدت فكرة الإصلاح، وذلك أملاً في إنقاذ الموقف المتردي في الدولة، بدءاً من الجيش المنهار نظاماً وإدارةً إلى أصغر المؤسسات التي بالأصل تفتقر إلى ما يسمى بالمؤسسات الملائمة حتى للواقع المتردي،وإذا كان الأهالي تواقين لإصلاح القوانين والأنظمة، فإن الحرس القديم المستفيد من فساد نظام الانكشارية، وانصراف معظم ضباطها للاغتناء على حساب هذا التدهور العام لمؤسسات الدولة (إمبراطورية)، قد عارض الحركة الإصلاحية بقوة، بناءً على ما تقدم فقد آثرت دراسة حركة الإصلاح وانعكاساتها العامة.

إن دراسة حركة الإصلاح في الدولة العثمانية، تقتضي منا التمييز بين حركة الإصلاح، والتنظيمات، التي بدأت فعلياً قبيل وصول السلطان سليم الثالث لسدة العرش (١٧٨٩ – ١٨٠٧م)، لأن حركة الإصلاح جاءت ما بين فترة ازدهار السلطنة وبداية فترة الانحطاط "الضعف" وشهدت بداية تدهور أوضاع الدولة العثمانية، حيث برزت حاجة ملحة للقيام ببعض ا لمحاولات الإصلاحية التي تركّزت:

أولاً: في مجال الشؤون الإدارية والمالية، وذلك لإيقاف التدهور الذي بدأ يتنامى بشكل علني في الدولة العثمانية.

ثانياً: إصلاح الجيش وتحديث جهاز الدولة على غرار ما حدث في روسيا القيصرية(١)، ولاسيما عند اقتنع السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٣ – ١٧٨٩م)، أن الدولة إذا لم تصلح جيشها ونظامها العام فإن أيامها لن تطول(٢).

وأما التنظيمات العثمانية، فكانت مفروضة على السلطنة فرضاً بموجب اتفاقيات دولية من قبل الدول الأوربية، وبالتالي فإنها محاولات غربية تقع ضمن إطار الضغوط الأوروبية على الدولة العثمانية، وإن كان هدفها العلني التحديث والدفاع عن حريات الطوائف العثمانية،غير أن هدفها الحقيقي كان أبعد من ذلك، وتمثل في استهداف الإمبراطورية العثمانية نفسها(٣). وهذا ما أكده وزير بريطانيا: (اللورد كلارندون: Clarendon)، (إن الطريقة الوحيدة لإصلاح أحوال العثمانيين هي بإزالتهم من على سطح الأرض)(٤).

وإذا أمعنا النظر في مسألة الحقوق التي طالبت بها الدول الأوربية للملل داخل الإمبراطورية، نرى أنها جاءت من خلال ممارسة ضغوط كبيرة من أجل تحقيقها، أسفرت عن صدور الخط الهمايوني عام ١٨٥٦ م، والذي أقر بدوره المساواة بين جميع الملل، ورغم إشارته بوضوح إلى الإبقاء على الامتيازات التي حصل عليها غير المسلمين في السلطنة، فقد اعترضت (الطوائف غير المسلمة) على قانون المساواة خشية منهم أن يفقدوا ما حصلوا عليه عبر هذه الضغوط الأوروبية، مما دفع الأوربيين من جديد لتجديد امتيازاتهم وتأكيد أفضليتهم على المسلمين، وبالتالي يمكن القول إن هناك علاقة وثيقة بين الامتيازات الأجنبية والتنظيمات، لأن الأخيرة جاءت كنتيجة طبيعية للأولى، ولولا الامتيازات الأجنبية وما مارسته الدول الأوربية من ضغط داخلي وخارجي لما فرضت التنظيمات(٥). أي أنّ التنظيمات التي أقرتها الدولة العثمانية، كانت أشبه باعتراف منها على ما قدمته تلك الدول الأجنبية من خدمات للدولة العثمانية، وبتعبير آخر الإصلاحات كانت ضرورية أما التنظيمات فقد كانت قسرية وغير ضرورية قياساً بالواقع المتردي،وفي الوقت نفسه ما حققته التنظيمات من

فوائد للدول الأوروبية،أكثر مما هي مساعدة للدولة العثمانية للخروج من أزمتها المزمنة.

أولاً: الحاجة إلى الإصلاح:

برزت الحاجة إلى الإصلاح عندما أخذ التدهور والتقهقر يجتاح الدولة العثمانية داخل المركز وخارجهً وتمثّل ذلك بالأزمات الاقتصادية، والعسكرية، والفكرية، لكن الأزمة الحقيقية التي عانت منها السلطنة هي الأزمة الاقتصادية التي نشأت نتيجة فقدانها السيطرة على البحار الشرقية، لأن الكشوف الجغرافية أتاحت للبرتغاليين، فرصة التحكم بطرق التجارة الشرقية واحتلال أراضٍ عربية إسلامية، وبدلاً من أن يخوض السلطان العثماني الحرب ضد توغل الأوروبيين في تلك البحار ومنعهم من فرض نفوذهم وسيطرتهم عليها، والعمل على تحرير الأراضي الإسلامية، وجه قواته لمحاربة الدول الإسلامية المتمثلة آنذاك بالدولة الصفوية في إيران، والمماليك في مصر، وبلاد الشام، رغم أن الأخيرة كانت تحارب البرتغاليين بضراوة، وهذا ناتج بدوره عن عدم تقدير الدولة العثمانية والقائمين عليها لحجم المخاطر والتحديات الخارجية المحيطة بها (٦).

ويعلق المؤرخون الأتراك على تحركات سليم الأول بالقول: إن السلطان اكسب دولته صفة إسلامية الأطر والمضمون، لكنه هيأ لدولته بوادر تفشي الفساد، ولاسيما في عهد ابنه السلطان سليمان القانوني، الذي اكتسب صفة المشرّع على حساب ارث بدا للغير أنه قوي.

ولم يدرك السلطان المشرّع أن تحولّ الخط التجاري عبر رأس الرجاء الصالح، وإغلاق منافذ البحار الشرقية على البلاد العربية، كان له آثاره المدمرة على الحياة الاقتصادية داخل دولته، حتى إن اكتشاف أمريكا، أثر بشكل غير مباشر على الوضع التجاري ولاسيما عندما أصبحت تجارة الذهب والفضة بيد أوروبة، فنتج عن ذلك بدء انخفاض قيمة العملة العثمانية، ومن اللافت للانتباه تزامن التدهور الاقتصادي مع

بروز ظاهرة الحريم السلطاني، حيث اعتكف السلاطين في قصورهم وغرقوا في ملذاتهم، تاركين أمور السلطنة تغرق في مستنقع الفساد والمحسوبية، لدرجة أنه أطلق على سلاطين تلك المرحلة "السلاطين الذين لا يراهم أحد".

في ظل هذا التدهور الاقتصادي، والاجتماعي، الذي عانت منهما الدولة العثمانية؛ بدأت بوادر الحاجة إلى الإصلاح تظهر من خلال الحلول التي قدمها بعض مفكري الأمة العثمانية، وعلى رأسهم مصطفى عبد الله (حاجي خليفة) (١٦٠٨ - ١٦٥٧م)، حيث كتب رسالة في الإصلاحات المالية عنوانها: " دستور العمل في إصلاح الخلل " عام ١٧٥٣ م، وتعدّ هذه المحاولة رغم عدم نشرها إلا بعد ثلاث سنوات، أول محاولة إصلاحية داخلية ملحة، وذلك لتوجيه النظر إلى الخلل الذي أصاب النظام الاقتصادي العثماني (٧). ومنهم من عزى ضعف الدولة العثمانية، إلى تجاهل نظم العصر الذهبي، وبالتالي كان علاجها-حسب رأيهم- يستلزم إعادة هذه النظم إلى ما كانت عليه باستئصال الفساد واللجوء إلى سيف الجلاد ومصادرة الأملاك التي تم الحصول عليها بوسائل غير مشروعة(٨).

لكن المشكلة كانت أكبر من أن تحاصر بإصلاح داخلي محدود، فقد كان لا بد أن تتحرك السلطنة باتجاه الداخل والخارج معاً بإجراءات إصلاح جادة وصارمة حتى تلحق بالتطور السريع الذي يحدث في الدول الأوروبية غير أن الباب العالي وبعض حاشية السلطان وغياب الأخير عن ساحة العمل قد حال دون قيام حركة إصلاحية جادة (٩).

ولهذا أخفقت المحاولات الحقيقية الداخلية للإصلاح، وأسهم هذا في محاصرة الإمبراطورية (الدولة) في آسية وإفريقية، وتقليص دورها الأوروبي وإضعاف فعاليتها العسكرية، وبهذا فشلت محاولات التجديد الذاتي والإصلاح المحلي، لتبدأ مرحلة جديدة من محاولات الإصلاح المتمثلة بإصلاح الجيش.

ثانياً: الإصلاح على النمط الأوروبي:

لقد تنبه بعض السلاطين العثمانيين إلى أن ضعف الدولة العثمانية، مرجعه عدم مسايرتها لنواحي التقدم التي شهدتها أوروبا، فرأوا ضرورة الأخذ من الحضارة الغربية ولاسيما في المجالات العسكرية، بعد الهزائم العسكرية المتكررة التي لحقت بهم (١٠). فضلاً عن استلام العرش سلسلة من السلاطين الضعاف الذين هيؤوا الطريق للاضمحلال الذي ظهرت أثاره في القرن الثامن عشر (١١)، فالهزائم العسكرية أمام روسيا ١٦٨١ م، وأمام أبواب فينا عام ١٦٨٣ م، وتوقيع صلح كاررلوفجة عام ١٦٩٩ م، يعدّ أول عملية تفكيك للدولة ونقطة تحول من سياسة الهجوم إلى الدفاع، وبدء انسحابها من أوروبة، (١٢) ويمكن عدّ صلح كوجوك قاينارجه الموقع ١٧٧٤ م، التاريخ الحقيقي للضغط على الدولة، إذ أضحى للعيان أن الدولة إن لم تصلح جيشها ونظامها الإداري، فإن نهايتها لن تطول (كما أسلفنا القول) وذلك استناداً إلى المادة ٧ من هذا الصلح الذي سمح لروسيا حماية الكنيسة الأرثوذكسية مما أعطى الشرعية للتدخل الخارجي، وهذا معناه تدخل سافر في شؤون الدولة الداخلية، وبالتالي يمكن عدّ معاهدة قاينارجه هي البداية الحقيقية للقيام بمحاولة إصلاحية على النمط الغربي (١٣). لأن هذا الصلح (كوجوك قاينارجه) أعلن صراحة أن العثمانيين فقدوا مركزهم كقوة دولية عظمى، وقد تأكد ذلك من جديد في صلح ياسي عام ١٧٩٢ م، وأخيراً أدرك العثمانيون أنهم بحاجة إلى الإصلاح العسكري الذي يتيح لهم استعادة مكانتهم السابقة، ولاسيما بعد تفوق الروس عليهم عسكرياً (١٤) – "لأنهم أخذوا بأساليب الغرب" – لذا كان على العثمانيين أن يقتبسوا عن الغرب الطرق الحديثة لإصلاح الجيش والإدارة بناءً لمتطلبات واقعهم وليس اقتباساً عشوائياً أو على الأقل إرضائياً، كما حدث.

ثالثاً إصلاح الجيش والإداره:

كان من الطبيعي أن تتجه الرغبة أولاً إلى إصلاح الجيش؛ لأن مظهر الضعف العثماني كان عسكرياً، كذلك فإن الأخطار التي أحاطت بالدولة والهزائم التي لحقت بها، كانت تتطلب البدء بإصلاح الجيش(١٥).

إن فكرة الإصلاح الحربي، نمت بعد عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠م)، في أذهان السلاطين الذين خلفوه، وذلك للقضاء على الثورة التي بذرتها حركات الانكشارية العصيانية، ولكن لم يقدم أحد على الإصلاحات حتى بعد السلطان محمود الأول (١٧٣٠ - ١٧٥٤م) (١٦)، الذي استعان ولأول مرة بمستشار فرنسي للشؤون العسكرية وهو الكونت بونفال (٦٧٩ -١٧٤٧م)،

وأيضاً تم تأسيس مطبعة عثمانية عام ١٧٣٧ م من قبل سعيد أفندي بالاشتراك مع إبراهيم متفرقة (١٦٧٩-١٧٤٢م)، التي ستؤدي دوراً مهماً بالانفتاح العثماني على أوروبة (١٧).

لكن حركة التحديث لم تقف عند هذا الحد، بل ربط السلاطين مصيرهم بالعلاقة مع أوروبة، وبضرورة الإصلاح على النمط الأوروبي، وما إن جاء عصر السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧- ١٧٧٣م)، الذي حمل أفكار محمود الأول الإصلاحية، حتى حاول القيام ببعض الإصلاحات، لكن الحروب المستمرة لم تعطه الفرصة الكافية لقيادة حركة الإصلاح على نطاق واسع، حيث اتجه إلى إكمال ما بدأه محمود الأول من حيث إعداد العساكر وترتيب اللوائح (١٨)، فضلاً عن استعانته بطائفة من الضباط والخبراء الأوروبيين وفي مقدمتهم بارون دي طوت ،الذي اشتهر بالكتاب الذي ألفه (وصف السلطنة العثمانية آنذاك)(١٩). وتمّ تعيينه مستشاراً للسلطان مصطفى الثالث لإجراء الإصلاحات العسكرية، فتمّ تكليفه بإنشاء فرقة المدفعية على أن تلحق بها مدرسة للهندسة(٢٠).

هكذا تجنب السلطان مصطفى الثالث الانكشارية، واتجه إلى تنظيم وتنسيق أمور البحرية والمدفعية وبالتالي لم تثمر إصلاحاته، لأنه لم يتناول القوى الرئيسية في الجيش " الانكشارية " في الوقت الذي كان يزداد عددها، والفساد يدب في صفوفها، ومن أهم العوامل التي ساعدت على فسادها:

١. السماح لهم بالزواج، فأصبح الانتماء إليهم وراثياً .

٢. السماح لأفرادهم الاشتغال بالتجارة، فأدى هذا إلى قلة ارتباطهم بثكناتهم، ومما زاد الطين بلة عدم اعترافهم بضرورة التعليم العسكري والأخذ بكل جديد، بل أخذوا ينكرون فائدته ويقومون كل إصلاح من شأنه أن يمس امتيازاتهم ووجودهم، ويدعمهم في وقفتهم هذه، الحرس القديم المستفيد الأول من فساد المرحلة وتدهورها، حيث ذهبوا إلى أن" ولي الله الحاج بكطاش، كان

قد بارك جماعة الانكشارية عند تأسيسها ودعا لها بالنصر الدائم " (٢١) وكأن دعاة الإصلاح أشاروا إلى أن أي إصلاح يتنافى مع الشرع الإسلامي ومعادٍ لمبادئ النشأة.

ولكن عندما استلم عبد الحميد الأول (١٧٧٣ – ١٧٨٩م)، السلطنة اقتنع إن الدولة، إن لم تصلح جيشها ونظامها العام، فإنها لا تستطيع مجابهة عدّوها الرئيس (روسيا)، لذا فقد كان الإصلاح الحربي في مقدمة الأهداف، غير أن شيخوخته كانت سبباً في جعل إصلاحاته رخوة مبتورة، حيث ظهر بمظهر التراخي والتردد، فضلاً عن معارضة كبار ضباط الانكشارية لإصلاحاته (٢٢)، ورغم ذلك فقد استقبلت استانبول في عهده عام ١٧٨٤ م، بعثة فرنسية مكونة من عشرات الخبراء وعلى رأسها السفير وعضو الأكاديمية الفرنسية "شوازل غوفيه"، وذلك بغرض إجراء الإصلاحات(٢٣)، وليزيد من قناعة الفرنسيين بحركة إصلاحه، ولتقديمهم المساعدات له منحهم امتيازات شبه كاملة في مجال التنظيم المدني، شريطة عدم ملامسة المؤسسة الدينية، وعدم المطالبة بتحديث النظم العسكرية بصورة جذرية خشية وقوع اضطرابات قد تستغلها النمسا وروسيا.

وعندما استلم السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ -١٨٠٧م)، زمام الأمور في السلطنة، دخلت الإصلاحات في طور جديد، حيث ورث أفكار عبد الحميد الأول الإصلاحية، وقيل إن أباه مصطفى الثالث، ترك له مذكرات مكتوبة شرح فيها أوجه الخلل في الدولة ووسائل الإصلاح، لذا كان السلطان سليم الثالث شديد الرغبة بالإصلاح وفق النموذج الغربي (٢٤)، فالبارز في عهده، إقامته لأول تجربة من نوعها في الإطار الإسلامي وتتمثل بإصلاح عسكري شامل عرف باسم (نظام جديد)، أما التحول الجديد الذي طرأ في عهده فهو أن الأوروبيين بدؤوا عملياً يشكلون قوة سياسية داخلية ويسهمون في صناعة القرار السياسي للإمبراطورية؛ فمنهم خبراء عسكريون ومستشارون سياسيون ولا سيما خبراء الاقتصاد الذين تدخلوا فعلياً في سياسة السوق والتجارة العثمانية(٢٥).

ومع تسلم السلطان سليم الثالث سدة العرش العثماني، كانت فكرة الإصلاح تتردد على لسان العامة والخاصة فضلاً عن الانكشارية التي توجهت الأنظار لإصلاحها.

ومن أهم الإصلاحات التي قام بها السلطان سليم الثالث؛تأسيسه وحدة عسكرية عرفت (بالنظام الجديد)(٢٦) لأنه كان شديد الاهتمام بكبح الانكشارية، التي كانت تشكل الركيزة الرئيسية لمقاومة الإصلاح(٢٧). كما أولى اهتماماً خاصاً للإصلاح المالي والأسواق الذي ينشط التجارة، وأكثر من إنشاء البازارات، فضلاً عن توجهه نحو الإصلاح الصحي، فأنشأ عام ١٧٩٤م المعازل، وأوجد مدرسة للعلوم الطبية، ولم يكتف بذلك، بل أرسل وزارة وبعثات دائمة للإقامة في بلاط أجنبي بغرض دراسة جوانب التقدم الأوروبي ونقله إلى الدولة – لذا عدّ أول سلطان عثماني يقوم بهذا- (٢٨) وكان أكثر ممن برز في هذه المرحلة، سكرتير السفارة السلطانية لدى قصر إنجلترا محمود رئيف افندي صاحب كتاب "التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية"، وسفير الإمبراطورية في برلين؛ عزمي أفندي الذي أعد تقريراً عن مشاهداته لأوجه التقدم في بروسيا، وقدّمه للسلطان سليم الثالث (٢٩).

لكن الأوامر الصادرة عن السلطان سليم الثالث عام ١٨٠٥م والمتضمنة تجنيد السكان وبعض الانكشارية في الجيش الجديد (نظام جديد)، أدى بدوره إلى إثارة الانكشـــارية والعلماء، الذين تمكنوا عام ١٨٠٧م من الإطاحة بحكمه وبإصلاحاته (٣٠) ولاســيما بعد وفاة شيخ الإسلام الذي كان مؤيداً للسلطان في إدخال الإصــلاحات العســكرية، بعكس قاضي عسكر الروميلي، الذي كان معارضاً للإصلاح الغربـــي، فبمجــرد أن مارس عمله بدأ تحالفه مع الصدر الأعظم مصطفى باشا البيرقدار، ولفيف من العلماء؛ بهدف إبطال العمل بالنظام الجديد الذي وصفوه بأنه بدعة مخالفة للشـــرع، فـــانتهزت الانكشارية الفرصة معلنة العصيان العسكري (٣١) .

وقاد المعارضة مصطفى باشا البيرقدار الذي حاصر قصر السلطان وأرغمـــه علـــى إلغاء النظام الجديد عام ١٨٠٦ م وقد رافق ذلك إعدام مؤيديه مـــن رجـــال الدولـــة؛ (محمود رئيف أفندي)، كما أرغم الفرق الجديدة على الانسحاب إلى آسيا الصـــغرى، وتمّ عزل السلطان بفتوى من شيخ الإسلام (٣٢)، حيث أفتى "بأن كل سلطان يـــدخل نظامات الإفرنج وعوائدهم ويجبر الرعية على إتباعها لا يكون صالحاً للملـــك"(٣٣)، ومن الطبيعي أن تعود الفوضى أدراجها في عهد السلطان مصطفى الرابـــع ١٨٠٧ م الذي نصبته الانكشارية،وأصبح ألعوبة بأيديها (٣٤)، فانتهز الفرصة مصطفى باشـــا البيرقدار (أحد مؤيدي الإصلاح) وقام بانقلاب ضد مصطفى الرابع الذي خلف سليماً، ودبر مقتله لا لأنه عارض الإصلاح وإنما لقتله السلطان سليم الثالث، ونصب محمود الثاني مكانه وأصبح فيما بعد صدراً أعظم، لكن الانكشارية تمكنت مـــن قتلـــه بعـــد أشهر(٣٥) .

ولهذا فإن الإصلاحات التي قام بها السلطان سليم الثالث كان لها صدى في أوروبـــا، حيث أيقظت في أذهان الأوروبيين ذكرى خطر العثمانيين القديم، وأعطت نموذجاً لما قد يحدث لو قدر لهذا الإصلاح أن يكتمل وينضج، ولكن النكسة التي أطاحت بحركـــة

الإصلاح هذه كان لها دور هائل في أوروبا نفسها، حيث كثرت الآراء وتنبؤات المستقبل حول مصير الرجل المريض بعد ما بات من المتوقع هلاكه .

وبعد مقتل السلطان سليم الثالث ومصطفى الرابع انطوت ورقة التمردات العسكرية، التي كانت تقوم بها الانكشارية بالتعاون مع رجال الدين ومعارضي الإصلاح، فاستلام محمود الثاني (١٨٠٨ –١٨٣٩م) السلطنة؛ شكل بداية مرحلة جديدة في تاريخ السلطنة، لقد كانت أفكاره متطابقة مع أفكار سليم الثالث من الناحية الإصلاحية، حيث أفاد من إقامته الجبرية مع سليم الثالث في السراي، حيث أطلعه الأخير على خطط الإصلاح، لكن الفرصة لم تتح له قبل مرور عدة سنوات، لأن عهده قد امتلأ بالحروب والتطورات الهامة، التي امتصت معظم جهوده. وعلى الرغم من ذلك فقد ارتأى منذ بداية حكمه القيام بما يلي :

١. إن نجاح الإصلاحات يستوجب شمولها لكل النظم العثمانية والمجتمع، ولا تقتصر على جانب معين في المجال العسكري.
٢. وجوب تدمير النظم القديمة حتى لا تعترض طريق الإصلاح.
٣. وجوب توخي الدقة في التخطيط للإصلاح وإيجاد الضمانات اللازمة لنجاحه قبل القيام به(٣٦).

لكن الظروف الداخلية والخارجية المحيطة بالسلطنة كانت صعبة للغاية، حيث أخذ السلطان محمود الثاني، يشعر بخطر الوهابيين في شبه الجزيرة العربية، وبالمتمردين اليونانيين في جزيرة المورة، ومياه بحر الأرخبيل، ومما زاد الطين بلة استئناف الحرب ضد روسيا التي أوقعت الهزائم بالجيوش العثمانية. إضافة إلى خشيته من عزم محمد علي باشا على الاستقلال بحكم بعض أجزاء من ممالكه الرئيسة، لذا اتبع السلطان سياسة جديدة قائمة على ضرب الأعداء بعضهم ببعض والاستفادة من إضعاف الجميع، حيث استعان بواليه محمد علي للقضاء على الحركة الوهابية والتمرد اليوناني، وعندما تحقق له ذلك وجد الفرصة مواتية لمواجهة الانكشارية (٣٧)، لأنه

اعتقد أن إزالة هذه العقبة سوف تجعل منه منقذ الدولة وسيدها الوحيد وخصوصاً بعد إظهار فشلها في كثير من المواقع الحربية فأصبحت موضع احتقار وكراهية من الشعب الذي طالب علانية بالقضاء عليها .

فانتهز الفرصة ودكّ ثكناتها بالمدفعية، وتمكن من إبادة أكثرها عام ١٨٢٦ م، وعد العثمانيون هذه الواقعة بالخيرية، لأنهم تفاءلوا بها كثيراً (٣٨). وكما تم حل الطريقة الصوفية (البكطاشية)، التي كان ارتباطها وثيقاً بالانكشارية لعدة قرون، ثم تلا ذلك إنشاء قوات جديدة أطلق عليها "العساكر المحمدية المنصورية" التي كانت مهمتها حسب قول السلطان؛ حماية الدين والإمبراطورية (٣٩).

أما في مجال القضاء، فقد أمر السلطان بالعمل على إعداد موسوعة مدنية، تتناول الأمور التي لم يرد ذكرها لا في القرآن ولا السنة. وأيضاً انتزع حق الحكم بالإعدام على الباشوات (حكام الولايات)، واهتم اهتماماً بتثقيف الأمراء وتدريبهم لإفادة الدولة، إذا ما ارتقى أحدهم عرش السلطنة. كما أخذ بنظام البعثات الدبلوماسية الدائمة في عواصم أوروبا واختار لها أفضل العناصر التي تفاعلت مع حركة الإصلاح، أما الإصلاح الإداري؛ فيعد من أبرز الأعمال في حركة الإصلاح التي قام بها السلطان محمود الثاني، حيث حول ١٨ إيالة* في آسيا، إلى أربع إيالات، لأنه كان يدرك أهمية الإصلاح المماثل في التبسيط الإداري (٤٠).

وهكذا فإن حركة الإصلاح التي قام بها السلطان محمود الثاني كانت حركة شاملة اتسمت بالهدم والبناء في آن واحد، ورغم ذلك فإن إصلاحاته لم تحقق سوى نجاح جزئي بسب طابع السطحية التي اتسمت به عملية الاقتباس عن الغرب، التي لم ترتكز على مستلزمات التعليم والإنتاج الاقتصادي، لكن التغيرات التي أجراها اتسمت بنتائج مهمة؛ إذ أصبحت الحكومة المركزية بعد عهد السلطان محمود الثاني أقوى مما كانت عليه من قبل. وتمركزت في القصر والباب العالي، حيث تمتع السلطان محمود الثاني في أواخر عهده بسلطة قوية على البيروقراطية الجديدة، التي أوجدها، حيث شعر

هؤلاء بأن السلطان أصبح حاكماً مستبداً لتصورهم بأنه يهدد سلامتهم ومصلحة الدولة(٤١).

وعندما قرر السلطان محمود الثاني استرجاع الشام من واليه محمد علي، انخدع بإصلاحاته العسكرية، حيث منيت جيوشه بالهزيمة في معركة نصيبين عام ١٨٣٩ م أمام قوات محمد علي باشا، فكان هذا بمثابة الكارثة التي حلت على السلطة. وذلك بسبب استغلال الدول الأوروبية لها. حيث بدأت الوصاية على الباب العالي وتم سحق القوة المصرية، وفقاً للبروتوكول النهائي لمؤتمر لندن، الذي وقعه مندوبو التحالف الأوروبي في (٠تموز عام ١٨٤١م)، حيث وقفوا إلى جانب الدولة العثمانية ضد أطماع محمد علي باشا، فعادت سورية إلى الحظيرة العثمانية بفضل هذا التدخل(٤٢).

وبالنهاية يمكن القول: إن طريقة السلطان محمود الثاني في علاج الحركات الانفصالية، كانت إحدى الأسباب الرئيسية التي أعاقت حركة الإصلاح بدلاً من تحقق أغراضها، ففشله في تحقيق التعاون بينه وبين ولاته الأقوياء، عدّ السبب المباشر في شل الحركة الإصلاحية وتبديد أثرها (٤٣).

لأن هدفه منه وراء الإصلاح هو تثبيت حكمه والسيطرة على مساحات واسعة وليس القيام بالإصلاح حبا به (٤٤). أي أن إصلاحه جاء من الخارج ومن وجهة نظر فرنسية بحته.

وهذا يتوافق مع رأي المؤرخ توينبي، عندما قال: "إن السلطان محمود الثاني بذل الجزء الأكبر من مجهوداته للإصلاح، ولكن في محاولة يائسة للاحتفاظ بشعوب غيره تحت سلطانه" (٤٥).

وبعد هذه الجولة التاريخية التي وجدناها ضرورية لدراسة نشأة الإصلاح في الدولة العثمانية وتطوره في دولة اختلطت أوراق الإصلاح فيها، لاسيما الدارسون لتاريخها. فالإصلاح بالنسبة لهم هو التنظيمات العثمانية التي لم تكن سوى المرحلة الأخيرة ليس في محاولات الإصلاح فحسب بل في سيادة واستقلالية الدولة العثمانية، التي فقدتها

عندما قبلت بالضغوط الأوروبية التي ظهرت بصيغ عدة: الامتيازات الأجنبية، والحماية الأوروبية للطوائف الدينية غير المسلمة، والقبول بإلغاء بعض المؤسسات ذات الصلة المباشرة في شؤون السلطنة، وقيام أوروبة بالإشراف على الأنظمة التعليمية، والعسكرية والتجارية .ويهنا توفر للدول الأوروبية كل السبل للتدخل وتفكيك أواصر الدولة ومؤسساتها بهدوء وعلمية وتحت غطاء شرعي.

وفي هذه المرحلة (مرحلة السلطان عبد المجيد ١٨٣٩ - ١٨٦١ م)، تتحول فيها محاولات الإصلاح على النمط الغربي إلى قوانين سميت بالتنظيمات (الإصلاح المفروض)، الذي وضع الإمبراطورية العثمانية قاب قوسين أو أدنى من الهاوية، لأنها أكّدت اعتراف السلاطين القبول رسمياً شروط الاستسلام الحضاري للغرب(٤٦) .

أما التنظيمات أو (الإصلاح المفروض) فقد أسندت حركة الإصلاح المفروض في الدولة العثمانية إلى مرسومين سلطانيين هما: مرسوم (خط كلخانة) : ١٨٣٩م. مرسوم (خط همايون): ١٨٥٦م.

١- خط كلخانة (غرفة الورد): الصادر في (٣ تشرين الثاني ١٨٣٩م)، حيث تضمن إيجاد حل لأزمة (١٨٣٩م-١٨٤١م)، بين الدولة العثمانية وواليها محمد علي باشا، والذي كان وراء هذا المرسوم السلطاني الصدر الأعظم رشيد بك الذي حاول فيه إرضاء الدول الأوروبية من أجل وقوفها إلى جانب الدولة العثمانية في حربها ضد محمد علي باشا (٤٧)، فضلاً عن اقتناع رجال الدولة المستنيرين والمتأثرين بالحضارة الأوربية بضرورة إصلاح جهاز الدولة وتجديده على أساس اقتباس النظم الأوروبية (٤٨). ولكن هذا إصلاح جاء ضمن قوانين مكتوبة ملزمة الدولة العثمانية بتطبيقها. وكان على رأسهم مصطفى رشيد باشا، سفير السلطان في لندن، ولدى قدومه إلى السلطنة عهد له بمنصب وزير الخارجية ثم الصدر الأعظم، وكان من أهم المساهمين رسمياً في وضع الدولة

العثمانية في دائرة الضوء الأوروبي الملزم لها بالمحافظة على حقوق الأقليات غير المسلمة(٤٩).

لقد استطاع رشيد بك أن يقنع السلطان عبد المجيد، بأن الدول العظمى (فرنسا وبريطانيا)، تستطيعان أن تحسما الأزمة لصالح الدولة العثمانية وإن تقضي على الامتيازات التي كانت روسيا قد حصلت عليها بوجب معاهدة خنكار أسكله سي (١٨٣٣م)، وذلك نتيجة الانتصارات التي حققها إبراهيم باشا في حرب الشام الأولى: وبموجب هذا الخط الهمايوني، حلّت سيطرة الدول العظمى محلّ السيطرة الروسية، واستطاعت إنقاذ الإمبراطورية من خطر محمد علي في سبيل زيادة تدخلها الشامل في شؤون السلطنة الداخلية، وهذا ما حصل طيلة ما تبقى من القرن التاسع عشر(٥٠).

ولقد أكد خط شريف كلخانة على النقاط الرئيسة الثلاث :

١. ضرورة إيجاد ضمانات لأمن جميع رعايا الدولة على حياتهم وشرفهم وأملاكهم وبالتالي وجدت علانية المحاكمات، ومطابقتها للوائح، وإلغاء إجراءات مصادرة الأملاك .
٢. وجوب إيجاد نظام ثابت للضرائب يحل محل الالتزام .
٣. أكد على توفير نظم ثابتة للجندية بحيث لا تستمر مدى الحياة على أن تحدد مدتها بفترة تتراوح ما بين ٤ و٥ سنوات .

ومنه أكد خط شريف كلخانة، وللمرة الأولى وبصفة رسمية المساواة بين جميع رعايا السلطان أمام القانون، وهذا بدوره يقضي على نظام المِلَل، ويوفر الإخاء بين جميع رعايا السلطنة وذلك بهدف تقوية الدولة عن طريق تعزيز ولاء سكانها (مسلمين ومسيحيين)، وإضعاف النزعات الانفصالية(٥١).

لكن هذا الخط الهمايوني، جُوبه بردود فعل قوية في شتى أنحاء الإمبراطورية، حيث عدّه المسلمون منافياً للقرآن، وان المساواة بين المسيحيين، والمسلمين، من شأنه أن يثير القلاقل في السلطنة (٥٢).

٢. مرسوم خط همايون (التنظيمات الخيرية): الصادر في (١٨ شباط عام ١٨٥٦م).

لقد صدر هذا المرسوم للحصول على دعم الدول الغربية في مؤتمر باريس الذي أنهى حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦ م) بين العثمانيين تدعمهم فرنسا وبريطانيا من جهة، وبين روسيا من جهة أخرى (٥٣). لأن المحادثات التي سبقت مؤتمر الصلح الذي عقد في باريس، ورغبة حلفاء السلطنة بأن يعقد السلطان اتفاقاً دولياً يتعهد فيه بتنفيذ الإصلاحات المزمع القيام بها، فتبع هذا صدور هذا الخط الهمايوني. وبالتالي فإن السلطان قد أصدره تحت ضغط الدول الأوروبية(٥٤). ومهما يكن من أمر فإن هذا الخط أكد على المبادئ التي جاء بها منشور "كلخانة" لتأمين رعايا الدولة على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم، وركز على تمثيل الطوائف غير المسلمة في المجالس المحلية في القرى والأقاليم ومجالس القضاء الأعلى. وتعهد بالقضاء على مساوئ الإدارة ومحاربة الرشوة (٥٥) .

ولكن أخطر ما جاءت به التنظيمات الخيرية هو تعزيز نظام الامتيازات الأجنبية، حيث أقرت رسمياً بحق الأجانب في ممارسة كل أنواع التجارة وبحقهم في تملك الأراضي. فبالتالي أصبح للأجانب آخر الأمر برغم قلة عددهم القوة الغالبة بفضل الحريات والمزايا التي منحتهم إياها الامتيازات. (وبالتالي مهدت التنظيمات السبيل للرأسمال الأجنبي، والتي اكتسبت بحكم صلح باريس شكل امتيازات دولية وفتحت الباب على مصراعيه للرأسمال الأجنبي(٥٦)) .

لقي خط همايون ردود فعل قوية، ولاسيما من شيخ الإسلام، حتى إنّ الصدر الأعظم السابق مصطفى رشيد باشا انتقده (رغم أنه كان أحد دعاة الإصلاح)، حيث قال: "إن خط همايون سار أشواطاً بعيدة إلى الأمام وجاء قفزة، بدأ من النص على تنفيذ الإصلاح بالتدريج، وانتقد إلحاق الخط السلطاني بصلح باريس مما يشكل خطراً على شرف السلطان والدولة والاستقلال" (٥٧) .

حتى رجال الدين المسيحيين لم يرحبوا بما نص عليه هذا المنشور من تقاضيهم مرتبات ثابتة وتوقفهم عن هبات ومساهمات على رعاياهم حتى المساواة القانونية بين المسلمين وأهل الذمة، جاءت في وقت غير مناسب، فما إن انتصف القرن التاسع عشر حتى كان مبدأ القومية الغربي، قد اشتد ساعده لدى الأقليات الدينية التي اهتمت بلغاتها وآثرت الانفصال على الاندماج في الدولة (٥٨).

وبالتالي يمكن القول: إن التنظيمات الخيرية نقلت الصراع من كونه ضغطاً خارجياً على السلطنة إلى الداخل، أي صراع داخلي عنيف بين سلطة قوانين وضعية ،كما تعهدت بالتغريب للمجتمع الإسلامي، وبين مجتمع يرفض هذا التحديث مستعيناً برجال الدين الذين عدّوه مخالفاً للشريعة الإسلامية (٥٩) .

ولكن الدولة العثمانية رغم كل الإصلاحات الواسعة النطاق، التي أجريت في عهد التنظيمات على أساس الاقتداء بالغرب واقتباس النظم العصرية منه، لم تتخل عن صفتها الإسلامية، وبقيت دولة عثمانية بكل معنى الكلمة (٦٠) .

وبهذا وضعت التنظيمات، الدولة لعثمانية رسمياً على طريق نهايتها كدولة إسلامية أولاً، وكدولة تضم مللاً وشعوباً كانت متعاونة في ما بينها لولا تدخل الدول الأوروبية ثانياً، وفي الوقت نفسه مهدت للعلمانية سبيلاً نظراً لمضمون القوانين التي قُبلت مبدئياً آنذاك، كما أرغمت تلك القوانين المؤسسات على العمل بها والابتعاد تدريجياً عن التشريع الإسلامي، لاسيما في المجالات (التجارة والسياسة والاقتصاد)، كما سحب من

الدولة العثمانية شرعيتها في أنظار المسلمين. وهذا بدوره خلق صراعاً لن ينتهي إلا بنهاية الدولة العثمانية (٦١).

وهكذا يمكن القول: إن الإصلاحات التي أثارها بعض السلاطين قد هيأت لفتح ثغرة للعنف في جدار الدولة المتماسكة بفضل نُظم خطّها "عثمان المؤسس"، ولا ننفي أن الانكشارية بتجاوزاتها قد مهدت ذهنيا للتخلص منها، وفي الوقت نفسه هيأت أوروبة التي بدأت تلتهم الدولة العثمانية من أطرافها حتمية الانهيار، وانفصال ممالكها عنها كأقل تقدير.

أما التنظيمات التي بدأها السلطان عبد المجيد ورسمتها الدول الأوروبية ونفذها الصدر الأعظم رشيد باشا فقد منحت الدول الأوروبية زمام مبادرة اقتسامها وتجزئتها، ولم تكن أوروبة آنذاك عاجزة عن انتزاع بعض الأجزاء الرئيسية من مناطق العثمانيين الأم، وإنما منعها عن ذلك عجزها عن إدارة ما سيتم انتزاعه من الممالك التابعة لها.

لقد عد بعض المفكرين العثمانيين، أن الإصلاح القادم من الغرب وسيلة شرعية لانتزاع سلطة السلطان وتمزيق الممالك الإسلامية، وكان بالإمكان إحداث إصلاح داخلي من دون الاقتداء بالنظم الغربية المستوردة عن طريق بعض السفراء الذين ارتبطوا بالغرب عقلياً وروحياً، فالإصلاح ليس مسألة معقدة، بل هو تطبيق للقانون وإيقاف للفساد ومنع لتجاوزات ضباط الانكشارية الذين تُحَلّ قضيتهم بمرسوم سلطاني.

رابعاً: الردود الشعبية:

من المؤسف القول: إن القوى الشعبية التي أضاعها السلاطين، لم تدرك تماماً مضمون تحركات السلاطين الإصلاحية، فلقد سبق لهذه القوى أن عبّرت عن مأساتها في أكثر من مناسبة مطالبة السلطان الحاكم باتخاذ إجراء فعال يجنبه تحركه السري لتوقيع معاهدة إذعان تفقد السلطنة بموجبها أجزاء من ممتلكاتها، وتحد من تجاوزات النمسا

وروسيا الاعتداء على حدود دولته، ولاسيما أنه يعد نفسه أميراً للمؤمنين وسلطان البرين، وخاقان البحرين. (٦٢)

لقد تعمق لدى القوى الشعبية التي أهملت منذ توقف الفتوحات، أن الإصلاحات التي ينوي السلاطين تطبيقها سوف تقتلع البقية الباقية من التقاليد والقوى البشرية المشاغبة البدائية، التي تسللت إلى كيان الدولة وتسترت رسمياً بالجنسية العثمانية. لأن كثيراً من الطبقات الحاكمة لتلك الأيام والتي استهدفت إلى معرفة،مصدر الخيانة وأسبابها، لم تجد ملاذاً تلجأ إليه إلا لدى بني عثمان مرة أخرى، وفي هذا المرة كان اللجوء مدروساً، لأن السلاطين أطاحوا بالقوى الشعبية ووضعوها ضمن غلاف من الجهالة من خلال زيادة الإفقار، وإرغامها على البحث عن مصدر يقيها حد إعلان عصيان قد يسفر عن تدميرها تدميراً كاملاً (٦٣)، ولأن القوى العسكرية المتمثلة آنذاك بالانكشارية كانت مستعدة لإظهار مقدرتها في سحق التمردات الداخلية، أما مسألة ردّ الأعداء واثبات وجودها في ساحة القتال، فهذا أمر لا يهمها كثيراً لأنها لم تتعرض للمساءلة حيال أي انسحاب واجهته خلال اصطدامها بالقوات الروسية والنمساوية(٦٤)، ولهذا فإن القوى الشعبية قد حصلت على التنظيم والوعي السياسيين من خلال بعض (الطرح) غير أن أفضل أشكال الوعي لدى تلك المنظمات كان منصباً على العمل أيام السلم، ومساندة المجاهدين والالتحاق بهم زمن الحروب، غير أن هذه المرحلة قد انتهت رسمياً منذ أن فتح محمد الفاتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م. ولكي يبقي على قواه العسكرية والشعبية سليمتين، منعهما من دخول استانبول (القسطنطينية) خوفاً من مفسدتهما بنعم البيزنطيين ورخائهم المعهود بهم (٦٥).

من هنا نلاحظ أن القوى الشعبية التي عبرت عن تأففها من خلال ا لحركات الشعبية للمجتمع القديم، كانت محكومة بالموت منذ لحظات ميلادها، لأنها لم توفق في التوصل إلى وعي يؤهلها قراءة مستقبلها المؤطر، والمصاغ من قبل قوى غريبة عنها، ولهذا نلاحظ أن الشعب العثماني أو القوى الشعبية لم تقف خلف العثمانيين، عندما تعرضوا

لضربة من تمورلنك، فانهارت الدولة العثمانية الأولى، وإذا كان محمد الأول ١٤١٣-١٤٢٠م، قد استطاع إنقاذ ملك أبيه من أخوته، فالفضل يعود لوالدته البيزنطية الأصل التي حرضّته على ذلك، لأنها لا تريد أن تعيش الألم ثانية، وفي هذه المرحلة التقت القوى الشعبية حول الأمير محمد وناصرته في توحيد مملكة غدت ممزقة بينه وبين أخوته، ورغم وقفتها، لم يقدّر لها لاهو ولا السلاطين الذين خلفوه هذا الموقف، وفي الوقت نفسه لم يتعظوا من انهيار دولتهم الأولى عندما وقفت تلك القوى موقف المتفرج، ولم يكتف هؤلاء السلاطين بتجاهل تلك القوى، بل سعوا إلى رفع الخدم المولدين (أبناء الانكشارية)، الذين تلقوا تربيتهم في الأوساط التركية الشعبية حيناً والرسمية حيناً آخر(٦٦).

لقد سُحقت القوى الشعبية، عندما سملت عينا عيواظ بن بايزيد، الذي طالب بضرورة الاعتماد على عرقه التركي الأصيل، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فقد احتج على سيادة أبناء الانكشارية واعترض على حصولهم على مناصب مفصلية مردداً أن الغريب لا يحمي القريب، وبذلك ضعفت شوكة الأرستقراطية التركية التي انبثقت من جراح العثمانيين مروراً من القبيلة حتى الإمبراطورية (٦٧)

إن تزايد الفساد وانحراف الانكشارية عن نظامها، مرده السلاطين، الذين خلفوا الفاتح ولاسيما بايزيد الثاني، الذي أصر على تقليد السراي البيزنطي، والسراي حسب وجهة نظر الكتاب الأتراك مقتلة للعقلاء ومفسدة للعلماء، وفي كلتا الحالتين فالدولة بقواها الشعبية، هي المعرضة للمساومة في سوق المزايدة الوطنية الضعيفة من جهة، والدينية المستفيدة من جهة أخرى، وبما أن الانكشارية صاحبة القرار في تحديد مسار الدولة على الصعيد الداخلي، فإن العصر المتطور هو الذي يحدد مسار الدولة خارجياً وبالإصلاح جاءت أوروبة لتؤدي الدور، ولتحتم أن السلطان صاحب قرار، ولا يحق للقوى الشعبية الاحتجاج على سلاطين الإصلاح ولا كيفية تطبيق الإصلاح (٦٨).

إذا كان السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م)، قد تذرع بحجج واهية لشن حملة على المماليك والصفويين، فقد قصد من ذلك إلغاء باب لجوء الأمراء العثمانيين إليهما، من هنا ندرك أن السلاطين أجمعوا على قيام كيان القصر السلطاني، ومدوه بكل ما هو مثير وجميل على حساب مماليك تتحكم بها أبناء الانكشارية، التي لا تحمل إلا الاسم ولا تعرف من النظام إلا ما يتخم جيوبها ويملأ معدتها التي تتسع والجيوب حسب المواقف، وقد أدركت أوروبة مفهوم النهم الانكشارية فسعت إلى إروائه، على حساب القوى التي تحمّلت في سابق المراحل مسؤولية إعادة الدولة وحالت دون تفسخها أملاً في مشاركتها للحكم(٦٩) ٠

لم تكن القوى الشعبية غاضبة من تجاهلها، بقدر تجاهل سلاطين الإصلاح لصرخاتها المطالبة بإيقاف ما يسمى بالتدهور المتسارع، ولم تكتف أوروبة بتحريض السلاطين على الإصلاح بل عمدت إلى فرض نفوذها من خلال لعبتها السياسية القاضية بدفع الدولة إلى مستنقع الغرق، والتظاهر بأنها المنقذ لها(٧٠)، وقد صدّق السلاطين اللعبة، ووقعوا في حبائل الوصاية الرسمية لأوروبة ، وماتت القوى الشعبية حسرة على إمبراطورية كان من الممكن استمرارها لفترة أطول، إلا أن جهالة السلاطين سارعت في حتمية السقوط٠

خامساً: حتمية الإصلاح:

اعتاد المؤرخون على إطلاق التغيير الذي بدأه فعلياً السلطان سليم الثالث ١٧٨٩-١٨٠٧، مصطلح الإصلاح،لأنه ومن سبقه من السلاطين استقدموا بعثات أجنبية (أوروبية) من جهة، وأرسلوا الوفود العثمانية للاطلاع على ما حققه الغرب الأوربي من جهة أخرى، وعلى ما يبدو فإن هؤلاء المؤرخين تناسوا تأثيرات العصر ومحاولات نساء السلاطين التدخل لإدخال بعض التأثيرات الشكلية للقيافة ومظاهر اللباس، ناهيك عن غرابة ما ترتديه الوفود الأوروبية، ولنفترض أنه تأثير بسيط لا

يشكل أي أثر إيجابي؟ وفي هذه الحالة أيعقل أن يكون نفوذ الانكشارية والفساد والرشاوى أس التغيير وجوهره ؟ أم هزيمة العثمانيين أمام الروس؟

يصعب إقامة رأي سديد وقطعي،لأن عوامل عدة أسهمت في ذلك، غير أن هذه الحركة الإصلاحية التي خطها بعض السلاطين العثمانيين، في مقدمتهم السلطان عبد الحميد الأول ١٧٧٤-١٧٨٩الذي أدرك ضرورة إجرائها، معتمداً على شخصيات امتازت بالكفاءة ولديهم تصور حقيقي بشأن الإصلاح، انطلاقاً من الضعف والترهل الذي يعصف بالبلاد ناهيك عن تجاهل ولاة الأمر للفرمانات الهمايونية المتضمنة تنفيذ أبسط الأمور، وبتعبير أكثر دقة، حدوث تسيب عام في مؤسسات الدولة كلها، علماً بأن فترته اتسمت بالهدوء، وحظيت سلطته باعتراف تام سواء في المراكز أم في الولايات،رغم اكتساب بعض الأعيان مكانة داخلية قوية جداً، مستغلين ما تواجهه الدولة من مصاعب جمة على الصعيد الخارجي (٧١)؟

ففي سورية فرض أحمد باشا الجزار بعد ضاهر العمر، نفوذاً في سورية الجنوبية، ولبنان وسورية، وفي العراق، تمكن عمر باشا ١٧٤٤-١٧٥١، وسليمان باشا ١٧٨٠-١٨٠٢، من إعادة البدو للطاعة، وعلي بك الكبير ١٧٦٧-١٧٧٣، في مصر ثم مراد بك وإبراهيم بك في العراق ١٧٧٩-١٧٩٨، ولم تكن الولايات الأوروبية أقل شأنا من حيث ظهور حركات استقلالية، ورغم ذلك فلم يحاول السلطان استعادة سلطة حكومته المركزية بالقوة في كل المناطق، فضلاً عن أن الخطر الخارجي كان أشد ثقلاً وخطراً من الثورات التي قادتها أو تظاهرت بها الزعامات المحلية (٧٢) .

يردُّ بعض المؤرخين أن دمار الأسطول العثماني في معركة مع الأسطول الروسي سنة ١٧٧٠ التي أسفر عنها تدمير كامل للأسطول، عدا سفينتين، وهذه هي المرة الأولى التي تنتصر فيها دولة أوروبية على الدولة العثمانية بمفردها وأرغم العثمانيون إثرها على توقيع معاهدة كوجوك قاينارجه سنة ١٧٧٤، هي من أهم دوافع توجه السلطان للإصلاح(٧٣)، وبما أنه أراد إعادة بناء الأسطول أقوى مما كان،فقد استعان

بخبيرين فرنسيين هما اوروا ودوريه (٧٤)، كذلك فقد توجهت الأنظار إلى تجنيد شباب جدد من خارج الانكشارية لتدريبهم كرجال بحرية، وأنشئت مدرسة خاصة بمهندسي البحرية السلطانية، وبذلك بدأ التحديث يأخذ مجراه التدريجي لدرجة تأثر فيلق الانكشارية، والسباهية بتلك التأثيرات، لكن دون حدوث ضجة من أي جهة بما فيهما الفيالق التي أصابها التأثير الحربي الجديد.

بناءً على ما تقدّم يعدُّ السلطان عبد الحميد الأول، أول من أنشأ جيشاً من نوع حديث، للتغريب أثر بارز في بنيته، وسوف يكمل سليم الثالث خطوة سلفه، وفي الوقت نفسه، لجأ الوزير خليل حميد إلى اعتماد التحديث لاسيما في الصناعات المحلية، وبفضله تمكنت بعض الصناعات العثمانية لاسيما النسيجية منها منافسة المنتوجات الأوروبية، وشجّع الطباعة، ولكنه تخوف من الإسراف أو المبالغة في تحديثه، لأن عدد المؤيدين للتحديث قليلون من جهة والمعارضون، والعلماء، والقادة العسكريون، يعارضون التحديث وهم كثيرون من جهة أخرى، وهؤلاء المعارضون للإصلاح متهمون بتخريب الأسس الدينية والاجتماعية للدولة (٧٥)، ناهيك عن ذلك أن المعارضين للإصلاح أو التحديث كانوا يلتقون تأييداً خفياً من جانب روسيا والنمسا، اللتين تتطلعان إلى إبقاء الدولة العثمانية في حالة تخلف عسكري واقتصادي واجتماعي، لأنهما يتخوفان من إعادة تفوقها العسكري ثانية (٧٦).

ومن معارضي الإصلاح حسن باشا الجزائر لي، الذي حصل على لقب غازي وعين قبطان دريا، واعتمد على خبراء أجانب (فرنسيين) ليس كراهية بالإصلاح، وإنما كرهاً وحسداً من الوزير خليل حميد رائد التحديث الأول، ولهذا تآمر مع المعارضة وتمكن من عزل خليل حميد وإعدامه سنة ١٧٨٥م، ورحل الخبراء الأجانب سنة ١٧٨٧م.

يضاف إلى ذلك، تراجع الدولة العثمانية عسكرياً عقب معاهدة كوجوك قارينارجه، واعتماد الجيش الأوروبي على التكنولوجيا، وسيطرة إنجلترا على الأسواق لاسيما في

مجال النسج كل هذا أثارت يقظة إصلاحية في مختلف الأوساط الرسمية والشعبية، ورغم الجهود التي بذلت، وما أسفر عنها من قطع للرؤوس، فإن الإصلاح الحقيقي لم يلامس البنية التحتية، لأن الانكشارية ومن خلفها العلماء والحرس القديم تصدوا بقوة لأي محاولات إصلاحية مهما كان نوعها، ولم يتحقق الإصلاح الأبعد القضاء على الانكشارية في الوقعة الخيرية سنة ١٨٢٦م (٧٧).

لم تقدم أوروبة للدولة العثمانية يد المساعدة لإجراء إصلاح عام وشامل لمختلف جوانب الحياة لاسيما الاقتصادية، إلا بعد فترة صدور المشروع التنظيمي الذي أعلنه مصطفى رشيد باشا، ورغم ذلك فإن أوروبة لم تكن راغبة في حدوث إعادة إصلاح في الدولة العثمانية لأسباب عدة.

لأن الإصلاح قد يمكن الدولة العثمانية من استعادة قوتها، عندها تفشل أوروبة في اقتسامها، علاوة عن ذلك، فإن هناك دول أوروبية تتطلع لانتزاع القسطنطينية من الأتراك، لأنها بنظرهم عاصمة لدولة مسيحية دينية، رغم الخلاف الديني الناشب بينهما، كما أن ضم القرم إثر معاهدة قاينارجه. قد أثار ضجة محلية ضد الانكشارية التي تمارس الظلم على الأهالي وتستأثر بخيرات البلاد، ولا تحمي الحدود من أعدائهم التقليديين النمسا وروسيا، إزاء هذا التراجع العسكري غدا من الطبيعي أن يؤمن الأتراك بالإصلاح وأن يبدأ بالجيش أولاً، لكن الجيش موزع ومفرّق إلى عصابات، أشبه ما تكون بالميليشيات، ويرفض بشدة أن يكّون من نفسه جيشاً حديثاً ويخشى من حرمانه من امتيازا ته وكسبه غير المشروع وما يقوم بنهبه واستلابه. بسبب ذلك أقدم بعض السلاطين وقسم من الصدور العظام، والوزراء، على الإصلاح بتردد،رغم أنهم يؤمنون بضرورته(٧٨)، وخلاصة ما يقال في هذا المجال: إن الإصلاح مطلب مهم جداً لدولة بنيتها عسكرية الطابع، ومؤثراتها عسكرية هي الأخرى، فضلاً عن تقديمها مناهج في فن الحروب، وغدت تمتلك استراتيجية عسكرية تخولها ضرب أوروبا في أعماقها، لهذا ترى أن هزيمتها أمام روسيا وتوقيع معاهدة قاينارجه ١٧٧٤م، شكّلت

نقطة الفصل في إنهاء التردد بضرورة الإصلاح أو عدمه، لكن السلاطين الذين فكروا بالإصلاح، لم يكونوا جادين في إحداثه، تخوفاً من فقدانهم لعرش محاط بالعظمة.

وفي الوقت نفسه، وقوف روسيا، والنمسا، بل أوروبة في عدم إحداث إصلاح يساعد الدولة العثمانية على تفعيله وتحديث مؤسساتها المدنية كأقل تقدير، ومع مطلع القرن التاسع عشر وتزاحم المشكلات الداخلية والخارجية على إدارة الدولة العثمانية التي كثر الفساد والانحراف فيها، لم يعد سلاطين القرن التاسع عشر قادرين على تحديد نقاط البدء في الإصلاح، غير أن السلطان محمود الثاني ووسط تزاحم تلك المشكلات عقد العزم على تفعيل الإصلاح من خلال أبادته للقوى الانكشارية حصن الفساد وجدار الخلل الإداري، وتمّ ذلك سنة ١٨٢٦م، لكن أوروبة ومن خلال تلك المشكلات أضاعت مقوّمات الإصلاح، وحولته بفعل ما قدمته من خدمات للدولة العثمانية المغلفة بمساعدات خيرية ظاهراً وتقسيم وترهيل لها ضمنياً.

وهكذا نرى ومن خلال دراسة واقع تلك المرحلة،أن ما يسمى بالتنظيم القاضي بمنح المسيحيين واليهود وحقوق وامتيازات المسلمين قد سبق الإصلاح الذي استمر دعامة أكثر من قرن ودفع دعاته ومؤيديه حياتهم ثمناً لحلم تطلعوا إلى تحقيقه، إلا أن هذا الحلم، وأدته الدول الأوروبية، أو بالأحرى، حولته إلى ما يسمى بتطبيق العدالة وتنظيم شؤون المواطنين رغم افتقار الدولة أصلاً للعدل وللتنظيم، وبما أن الدولة العثمانية لم تمكن قادرة على فهم الأولويات، تحملت أوروبة مسؤولية ذلك، ففرضت وصايتها من خلال التنظيمات الخيرية مؤكدة بذلك انهيار دولة بل إمبراطورية فرضت نفوذها قروناً على من حوله.

هوامش البحث

١. العزاوي؛ قيس جواد: **(الدولة العثمانية، قراءة جديدة لعوامل الانحطاط)**، بيروت، الدار العربية للعلوم، ط١ ١٩٩٤ م، ص ٣٢.

٢. البحراوي؛ محمد عبد اللطيف: **حركة إصلاح في عصر السلطان محمود الثاني**، القاهرة، دار التراث، ط١ ١٩٧٨ م،ص٩٨.

٣. العزاوي؛ الدولة العثمانية **(قراءة جديدة لعوامل الانحطاط)**، ص٣٧.

٤. ياغي؛ إسماعيل: **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث**، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١ ١٩٩٦ م ص١٥٩.

٥. العزاوي؛ المرجع السابق، ص٣٥.

٦. الشناوي؛ عبد العزيز: **الدولة العثمانية دولة فقرى عليها**، ٣ج، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٠ م؛ ج ٢.

7. ISMAIL HAKKI UNUZ GARSILIu OSMANL TARIHI ANKORAu1983 S.193

٨. **المرجع السابق** ص ٢٠٠.

٩. العزاوي، قيس جواد **(مرجع سابق** ص٣٥-٣٦).

١٠. ISMAIL HAKKI UNUZ GARSILIC OSMANL TARIHI، S.259

١١. ياغي إسماعيل، **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث** (مرجع سابق) ص ١٣٩.

١٢. العزاوي، قيس جواد **(مرجع سابق)** ص ٤٢ .

١٣. البحراوي، محمد عبد اللطيف **(مرجع سابق)** ص٦٥ .

١٤. رضا نور، عثمانلي **تاريخي استانبول** ١٩٢٣ص ٧٨.

١٥. المرجع السابق ص٩٠.

١٦. البحراوي محمد عبد اللطيف (**حركة الإصلاح**) مرجع سابق ص٩٤.

١٧. العزاوي قيس جواد (**مرجع سابق**) ص ٤٥.

١٨. البحراوي محمد عبد اللطيف (**مرجع سابق**) ص٩٥.

١٩. العزاوي قيس جواد (**مرجع سابق**) ص ٤٦.

٢٠. رضا نور، عثمانلي تاريخي (**مرجع سابق**) ص ٩٣.

٢١. رضا نور (**مرجع سابق**) ص ٩٣.

٢٢. **المرجع السابق** ص٩٥.

٢٣. **مرجع سابق** ISMAIL HAKKI UNUZ GARSILIC

٢٤. **المرجع السابق** ص٢٠٩.

٢٥. **المرجع السابق** ص٢٢٠.

٢٦. **المرجع السابق** ص ٢٥٠.

٢٧. **المرجع السابق** ص٢٥١.

٢٨. **المرجع السابق** ص٢٥١.

٢٩. مصطفى؛ أحمد عبد الرحيم: **أصول التاريخ العثماني**، القاهرة، دار الشروق، ط٣ ٢٠٠٣ م، ص١٧١.

٣٠. العزاوي؛ **المرجع السابق**، ص٣٥.

٣١. رافق؛ عبد الكريم: **العرب والعثمانيون ١٥١٦ – ١٩١٦** م، دمشق، مطابع ألف باء ط٢ ١٩٩٣ م، ص٣٧٧.

٣٢. ياغي: **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث**، ص ١٣٩.

٣٣. العزاوي؛ **المرجع السابق**، ص٤٢.

٣٤. البحراوي: **حركة الإصلاح في عهد السلطان محمود الثاني**، ص ٦٥.

٣٥. مصطفى: **أصول التاريخ العثماني**، ص١٦٩.

٣٦. ياغي: **المرجع السابق**، ص١٤٥.

٣٧. البحراوي: **المرجع السابق**، ص٩٤.

٣٨. العزاوي؛ **المرجع السابق**، ص٤٥.

٣٩. البحراوي: **المرجع السابق**، ص٩٥.

٤٠. العزاوي؛ **المرجع السابق**، ص٤٦.

٤١. مصطفى: **المرجع السابق**، ص١٧٢.

٤٢. ياغي **المرجع السابق**، ص١٤٦، وأيضاً مصطفى: **المرجع نفسه**، ص١٨٥.

٤٣. البحراوي: **المرجع السابق**، ص٩٨.

٤٤. العزاوي؛ **المرجع السابق**، ص٤٦.

٤٥. البحراوي: **المرجع السابق**، ص٩٩.

٤٦. العزاوي؛ **المرجع السابق**، ص٤٦.

٤٧. رافق:**العرب والعثمانيون** ١٥١٦ – ١٩١٦ م، ص٣٧٧.

٤٨. مصطفى: **المرجع السابق**، ص١٧٩.

٤٩. البحراوي: **المرجع السابق**، ص١١٠ – ١١٢.

٥٠. العزاوي؛ **المرجع السابق**، ص٤٨.

٥١. رافق: **المرجع السابق**، ص٣٧٧.

٥٢. العزاوي؛ **المرجع السابق**، ص٤٨.

٥٣. ياغي **المرجع السابق**، ص١٤٨.

٥٤. الشناوي: **الدولة العثمانية دولة إسلامية فقرى عليها**،ج١، ص ٥٦٤.

٥٥. مصطفى: المرجع السابق، ص١٨٦.

٥٦. رافق: **المرجع السابق**، ص٣٧٧.

٥٧. مصطفى: **المرجع السابق**، ص١٨٧- ١٨٩.

٥٨. العزاوي؛ **المرجع السابق**، ص٥٢.

٥٩. ياغي **المرجع السابق**، ص١٤٩.

٦٠. مصطفى: **المرجع السابق**، ص١٩٠.

٦١. البحراوي: **المرجع السابق**، ص١٩٧ - ٢١٢.

٦٢. يحوي باشا **تاريخ بجوى استانبول** ١٣٢٤ ج٢ص٢٥٠.

٦٣. **المرجع السابق** ص٢٥١ .

٦٤. **المرجع السابق** ص٢٥٢ .

٦٥. جودت باشا **تاريخ جودت** خ٦ ص١٥٤.

٦٦. **المرجع السابق** ص١٥٥.

٦٧. **المرجع السابق** ص١٥٦ .

٦٨. **المرجع السابق** ص١٩٠ .

٦٩. محمود أوغلو **الإصلاحات العثمانية استانبول** ١٩٨٩ ص ١٣٩.

٧٠. **المرجع السابق** ص١٤٠ .

٧١. S.370 **(مرجع سابق)** ISMAIL UZUN CARSILI

٧٢. **المرجع السابق** ص ٣٧٥ .

٧٣. اوزتونا يلماز **تاريخ الدولة العثمانيــة** ترجمة عدنان محمود سليمان مراجعة محمود الأنصاري (جزأن) استانبول ١٩٨٨ ص٦٢٥.

٧٤. مانتران روبير **تاريخ الدولة العثمانية** ترجمة بشير السباعي القاهرة ١٩٩٣ ج٢ ص٩ .

٧٥. **المرجع السابق** ج٢ ص ٩-١٠ .

٧٦. **المرجع السابق** ج٢ ص ١٠ .

٧٧. اوزتونا يلماز **مرجع سابق** ص ٦٣١.

٧٨. **المرجع السابق** ص٦٣٢ .

الولاة العثمانيون في العراق

١٩٠٨-١٩١٤

الدكتور خالد السعدون
قسم التاريخ
جامعة الشارقة

تتضارب روايات المراجع حول من أدار ولايات العراق من الولاة خلال السنوات المحددة للبحث. إذ كثر الخلط في أسمائهم ومدد ولاياتهم. وتسعى هذه الدراسة لمعالجة هذا الخلط معتمدة بشكل رئيسي على معلومات وردت في الوثائق القنصلية البريطانية، فضلاً عن بعض المصادر المحلية المعاصرة والدراسات الحديثة.

ولا بدّ بداية من التذكير بحقيقة تقسيم العرق حسب النظام الإداري العثماني إلى ثلاث ولايات هي بغداد، البصرة، والموصل. وكانت ولاية بغداد حسب تصنيفات ذلك النظام ولاية من الدرجة الأولى، والبصرة ولاية من الدرجة الثانية[١]. بينما كانت ولاية الموصل من الدرجة الثالثة[٢]. وكانت كل تلك الولايات تقسم إلى ألوية (سناجق)، وتقسم هذه بدورها إلى أقضية ثم إلى نواحٍ. وتصنف هذه الوحدات الإدارية جميعها إلى ثلاث درجات أيضاً[٣]. وكانت ولاية بغداد سنة ١٩١١، مؤلفة من ثلاثة ألوية وعشرين قضاء وأربع وثلاثين ناحية. بينما تألفت ولاية الموصل سنة ١٩٠٩، من ثلاثة ألوية وأربعة عشر قضاء وثلاث وثلاثين ناحية. وضمت ولاية البصرة في السنة نفسها أربعة ألوية وثلاثة عشر قضاء واثنتين وثلاثين ناحية[٤]. وتبدل الوضع بعد حين فغدت ولاية بغداد سنة ١٩١٣، تتألف من ثلاثة ألوية وتسعة عشر قضاء بينما

تألفت البصرة من أربعة ألوية وخمسة عشر قضاء وعشرين ناحية[٥]. ويتضح من مقارنة هذين الإحصائين استقرار عدد الألوية في كل ولاية وتذبذب عدد الأقضية والنواحي زيادة ونقصاً.

وسوف تكون نقطة البدء هي تتبع أسماء من تولى ولايات العراق منذ وقوع الانقلاب الدستوري في اسطنبول في تموز (يوليو) ١٩٠٨. إذ تتضارب الروايات تضارباً كبيراً حول شخصية والي بغداد الذي حدث ذلك الانقلاب في عهده. فقد روي أن البرقيات المنبئة بإعلان الدستور وردت بغداد من اسطنبول في عهد الوالي حازم بك[٦]، ولكن وثيقة بريطانية تفيد أنه انفكّ من عمله في بغدادِ في الثالث عشر من تموز -يوليو ١٩٠٨[٧]. أي أنه غادر بغداد قبل إعلان الدستور بعشرة أيام. ويؤيد هذه الرواية بغداديون معاصرون أفادوا بأن حازم بك اختلف مع مصطفى ناظم باشا رئيس "الهيئة الإصلاحية" التي أرسلت من اسطنبول، فطلب من الحكومة المركزية نقله من بغداد، وأجيب طلبه[٨]. وقد سلم حازم بك مقاليد الولاية وكالة إلى مصطفى ناظم باشا الذي أعلن الدستور في عهده[٩]. وتعود الروايات للتضارب حول طبيعة منصب هذا الرجل، فالوثيقة البريطانية المشار إليها آنفاً تقطع بأنه تولى المنصب وكالة "لا أصالة"، ولكن أربعة مراجع تجمع على تعيينه والياً أصيلاً لبغداد[١٠]، وأورد مرجعان آخران أنه كان وكيلاً، لكنهما اختلفا في تاريخ تعيينه ومدة توليه لذلك المنصب. فقال أحدهما إنه تعين سنة ١٣٢٣، وظل في منصبه سنة واحدة وسبعة شهور[١١]. وهو قول مردود لأن سنة ١٣٢٣ تقابل سنة ١٩٠٥ إن كانت هجرية وسنة ١٩٠٧ إن كانت رومية. وقال الآخر أن مدة توليه ابتدأت وانتهت خلال سنة ١٩٠٧[١٢]. وهناك رواية مرجحة تفيد أنه عزل من منصبه في بغداد في الحادي والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٠٨، وأنيطت الوكالة بمحمد فاضل باشا الداغستاني[١٣]، ولكنّ معاصراً مطّلعاً ذكر أن لم يعزل ولكنه عيّن وزيراً للعدل في اسطنبول[١٤].

عيّنت الحكومة الدستورية الجديدة نجم الدين منلا والياً لبغداد، وفي معرض إشارته لذلك التعيين امتدحه وزير الداخلية العثماني في حديث جرى بينه وبين السفير البريطاني في اسطنبول في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٨، ووصفه بالأمانة والنشاط[١٥]، ووصل الوالي الجديد إلى بغداد بالفعل في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٩[١٦]، ولكن هذه المعلومات المؤكدة لم تمنع تضارب الروايات حول هذا الوالي أيضاً فقد ذكر أنه تعيّن (زمن الحرية)، ثم حدد تاريخ ذلك التعيين بسنة ١٣٢٣[١٧] وتوافق تلك السنة ١٩٠٥ أو ١٩٠٧، وكلاهما خارج (زمن الحرية). كما ذكر أنه وصل بغداد في ذي الحجة ١٣٢٥ [أي كانون الثاني (يناير) ١٩٠٨] وغادرها في ربيع الآخر ١٣٢٧ [أي أيار (مايو) ١٩٠٩][١٨]. وحسب هذه الرواية يكون إعلان الدستور قد تم أثناء ولايته، وهو أمر مخالف لما مرّ آنفاً. ومع ذلك تتفق هذه الرواية جزئياً مع من يقول إن ولايته ابتدأت في جمادى الآخرة تلك السنة وانتهت في ربيع الآخر ١٣٢٧ حيث استلم مقاليد الولاية وكالة محمد فاضل باشا الداغستاني وظل يديرها حتى رجب ١٣٢٧[١٩]. ولكن هذه المعلومة الأخيرة تتناقض مع رواية معاصر أفاد أن الوكيل كان المشير عبد الله باشا، وليس محمد فاضل باشا، وأن تلك الوكالة ابتدأت في أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨[٢٠]، وهي رواية غريبة تشطب أغلب مدة وكالة مصطفى ناظم باشا وكل مدة وكالة محمد فاضل باشا الأولى وكل مدة ولاية نجم الدين منلا.

عيّن محمد شوكت باشا خلفاً لنجم الدين منلا، فوصل بغداد واستلم مهام عمله في رجب ١٣٢٧ هجرية [آب (أغسطس) ١٩٠٩]، وظل والياً حتى وصلته برقية من اسطنبول في ذي القعدة ١٣٢٧ (ديسمبر ١٩٠٩)، تقضي بعزله وتعيين حسين ناظم باشا خلفاً له. وكلّف الوالي المعزول بإدارة الولاية وكالةً حتى وصول الوالي الجديد[٢١]، وقد وصل حسين ناظم باشا إلى بغداد في الخامس من أيار (مايو) ١٩١٠[٢٢]، وهو قائد عسكري بارز ورجل دولة مرموق أدّى دوراً مهماً في الأحداث

التي شهدتها العاصمة اسطنبول منذ تموز (يوليو) ١٩٠٨. ويبدو -حسب توقع القائم بالأعمال البريطاني في اسطنبول- أن جمعية الاتحاد والترقي الحاكمة أرسلته إلى بغداد لإبعاده عن العاصمة من جهة، وتدمير سمعته بإظهاره إدارياً فاشلاً من جهة أخرى[٢٣]. وقد صحّ ذلك التوقع بالفعل، إذ عزل بعد عشرة أشهر، وغادر بغداد في شهر آذار (مارس) ١٩١١، مودعاً شؤون الولاية وكالةً للفريق يوسف أكاه باشا[٢٤]، ولم يكتف الاتحاديون بعزل حسين ناظم باشا، بل أرسلوا إلى بغداد في منتصف سنة ١٩١١ لجنة تحقق فيما نسب للوالي المعزول من مخالفات[٢٥].

وصل الوالي الجديد أحمد جمال باشا إلى بغداد في آب (أغسطس) ١٩١١، وباشر مهام عمله على الفور[٢٦]، وكان ضابطاً حربياً ومن قادة جمعية الاتحاد والترقي الحاكمة. لذا فإن اختياره للولاية تمّ على أساس سياسي وليس لكفاءته الإدارية. وقد بذل غاية جهده طوال مدة ولايته لخدمة مصالح حزبه، وما إن سقطت الحكومة الاتحادية وتولت حكومة الائتلافيين الحكم في اسطنبول في الثالث والعشرين من تموز (يوليو) ١٩١٢، حتى بادر إلى إرسال استقالته إلى الحكومة الجديدة برقياً في السابع والعشرين من الشهر نفسه. وقد قبلت الحكومة تلك الاستقالة في الأول من الشهر التالي، ولكنها كلفته بالاستمرار بإدارة الولاية وكالة[٢٧]، وأخبر جمال بك القناصل العاملين في بغداد بقبول وزارة الداخلية لاستقالته[٢٨]، ويدل هذا على أن قبول استقالة الولاة لا يتطلب صدور "فرمان" سلطاني مثلما هو الحال عند تعيينهم. وقد حلل القنصل العام البريطاني في بغداد دوافع تلك الاستقالة فردها إلى خشية جمال بك من إساءة الحكومة الجديدة معاملته، فهو يعلم بنيّتها فتح تحقيق صارم في كل حوادث التدخل في سير الانتخابات النيابية الأخيرة كما جرى في بغداد من ناحية، وإلى رغبته في إثبات إخلاصه لحزبه لعله يكافئه عليه عند عودته للحكم[٢٩]، أما القنصل الأمريكي في بغداد فذكر أن جمال بك رفع استقالته بصيغة لا يمكن رفضها. وأضاف أن المطلعين يعتقدون أن جمال بك كان سيعزل أو يطلب منه تقديم استقالته لو لم يبادر

هو إلى تقديمها طوعاً. وامتدح القنصل الوالي المستقيل لكونه محبوباً من السكان باستثناء عناصر قليلة من المعارضة[٣٠]، وتتعارض هذه المعلومة الأخيرة مع الصيت السيئ الذي لحق بجمال بك بعدئذٍ حتى لقّب بين العرب بـ (السفاح).

ولم تطل وكالة جمال بك في بغداد، فقد أناط مجلس الوزراء العثماني الوكالة بمعاون والي بغداد لطفي بك ابتداءً من يوم الخامس عشر من آب (أغسطس) ١٩١٢[٣١]. وقد وُصِفَ هذا المعاون بسيطرته التي يخشاها الموظفون خلال ترؤسه للعشرات من اللجان الإدارية وهيئات التحقيق[٣٢]. وظل لطفي باشا وكيلاً مدة تقرب من ثلاثة شهور انتهت بوصول الوالي الجديد محمد زكي باشا إلى بغداد في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٢[٣٣]، وكان زكي باشا قبلها قائداً للفيلق الحربي الثالث في أرمينية. وكان بذا ولاية بغداد أول منصب مدني يتولاه[٣٤]، وقد كان الانطباع الأولي الذي كونه القنصل البريطاني العام عن الوالي الجديد هو بهاء طلعته رغم تجاوزه الستين وحضوره الجيد الذي يوحي للآخرين بأنه كفء لممارسة السلطة. وأضاف أنه لم يكن يعرف من اللغات غير التركية[٣٥]، وما كاد الوالي الجديد يستقر على كرسي الولاية حتى بدأت الإشاعات تتداول عن استقالته من منصبه، ولاسيما بعد عودة جمعية الاتحاد والترقي للسلطة في كانون الثاني (يناير) ١٩١٣[٣٦]، ولم تكن تلك الإشاعات دون أساس فقد قدم زكي باشا استقالته بالفعل عدة مرات، ولكن الحكومة المركزية رفضت قبولها[٣٧]، بيد أن ذلك الرفض لم يستمر إلى ما لا نهاية، إذ قبلت استقالته في أيار (مايو) ١٩١٣، فسلّم مهام منصبه وكالة إلى معاون الوالي لطفي بك[٣٨]، وذكر القنصل الأمريكي في بغداد أن أسباب استقالة زكي باشا هي تقدمه في السن فضلاً عن شعوره بأن الحكومة المركزية لم تعد تمنحه التأييد الكافي منذ عودة الاتحاديين إلى الحكم[٣٩].

أصدرت الحكومة المركزية أمراً بنقل جلال بك والي ديار بكر إلى ولاية بغداد. وكان ذا تجربة سابقة في العراق، حيث عمل متصرفاً للواء كربلاء بين ١٩٠٩-١٩١٠، ثم

والياً للبصرة. وقد أظهر نشاطاً ملحوظاً خلال عمله في كربلاء[٤٠]. أما حين كان في البصرة فلم ينجز شيئاً يذكر على حد ملاحظة القنصل الأمريكي في بغداد عند حديثه عن وصول الوالي الجديد إلى بغداد في الثاني والعشرين من حزيران (يونيو) ١٩١٣. ولكنه مع ذلك عبّر عن أمله في أن يقوم جلال بك ببعض مشاريع التطوير المنتظرة في بغداد[٤١]، وكان للقنصل البريطاني العام في بغداد نظرة إيجابية نحو الوالي الجديد تفيد بأنه شغول مجدّ متقن ذو نوايا جيدة، وله أفكار غدت معقولة ومعتدلة، كما أنه يجيد العربية على خلاف أغلبية سابقيه في المنصب[٤٢]، ولكن هذا الرأي الحسن لم يشفع لجلال بك لدى كاتب بريطاني وصفه بالمشاكسة والغرور خلال شغله ولاية بغداد[٤٣]، ولم تدم ولاية جلال بك أكثر من خمسة أشهر[٤٤]، صدر بعدها أمر عزله فغادر بغداد في السابع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٣، تاركاً الولاية بعهدة وكيل هو محمد فاضل باشا الداغستاني آمر المفتشية الرابعة العسكرية. وكان الاعتقاد السائد في بغداد أن سبب طرده مرتبط بموقفه من الانتخابات النيابية التي كانت وشيكة حينئذٍ. إذ لم يكن جلال بك اتحادياً فحرص على تأكيد حياده بين الحزب الحاكم والمعارضة خلال الإجراءات التمهيدية للانتخابات، وهذا أسخط الحكومة الاتحادية عليه على حد رواية نائب القنصل الأمريكي في بغداد[٤٥]، ولكن القنصل العام البريطاني في بغداد أورد أن سبب عزله هو موقفه تجاه محاكمة المتهم بإطلاق النار على قائد الدرك في بغداد أحمد بك قريب وزير الداخلية أو صديقه المقرّب[٤٦].

عيّن الفريق محمد جاويد باشا والياً لبغداد، فوصلها في الثامن عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩١٤، وباشر عمله في اليوم التالي[٤٧]، وقد امتدح نائب القنصل الأمريكي في بغداد أداء جاويد باشا أثناء الحرب العثمانية -البلقانية (١٩١٢-١٩١٣)، الذي تفوق به على أقرانه من كبار الضباط العثمانيين. ونقل عن صحيفة بريطانية قولها إنه جندي كفء ونظامي صارم، سيؤدي وجوده في العراق إلى تطور سريع[٤٨]. وثبت أن ذلك التوقع كان مفرط التفاؤل، إذ لم يحدث خلال ولايته التي امتدت سنة كاملة

تطور ملحوظ، ولعله يعذر إلى حد ما بنشوب الحرب العالمية الأولى في آب (أغسطس) ١٩١٣، ثم ارتماء الدولة العثمانية في أتونها في نوفمبر اللاحق وقد عزل جاويد باشا عن الولاية في كانون الثاني (يناير) ١٩١٥[٤٩].

جدول رقم (١)

الولاة والوكلاء الذين تعاقبوا على إدارة ولاية بغداد خلال مدة البحث

اسم الوالي	اسم الوكيل	مدة إشغاله المنصب
-	مصطفى ناظم باشا	١٩٠٨/٧-١٩٠٨/١٠
-	محمد فاضل باشا الدغستاني	١٩٠٨/١٠-١٩٠٩/١
نجم الدين منلا	-	١٩٠٩/١-١٩٠٩/٥
-	محمد فاضل باشا الدغستاني	١٩٠٩/٨-١٩٠٩/٨
محمد شوكت باشا	-	١٩٠٩/٨-١٩٠٩/١٢
-	محمد شوكت باشا	١٩٠٩/١٢-١٩١٠/٥
حسين ناظم باشا	-	١٩١٠/٥-١٩١١/٣
-	يوسف أكاه باشا	١٩١١/٣-١٩١١/٨
أحمد جمال بك	-	١٩١١/٨-١٩١٢/٨
-	عمر لطفي بك	١٩١٢/٨- ١٩١٢/١١
محمد زكي باشا	-	١٩١٢/١١-١٩١٣/٥
-	عمر لطفي بك	١٩١٣/٥-١٩١٣/٦
حسين جلال بك	-	١٩١٣/٦-١٩١٣/١١
-	محمد فاضل باشا الدغستاني	١٩١٣/١١-١٩١٤/١
مجمد جاويد باشا	-	١٩١٤/١-١٩١٥/١

يظهر الاستعراض السالف أن سبعة ولاة تعاقبوا على ولاية بغداد خلال سني البحث، جميعهم من الترك وكان منهم عسكريين لهم سابق خبرة بالإدارة ولاسيما إدارة الولايات. وقد علّل اختيار العسكر لولاية بغداد بكثرة القلاقل والفتن التي كانت هذه الولاية تشهدها من جانب وبالأطماع الأجنبية في تلك الولاية حينئذٍ من جانب آخر(٥٠). ولا يحسن في هذا الصدد إغفال الإشارة إلى زيادة الاتجاه إلى عسكرة أجهزة الدولة بعد انقلاب تموز (يوليو) ١٩٠٨، وهو اتجاه قديم تمثل في الدور الكبير الذي قام به الجيش على مدار التاريخ العثماني كله، وقد جرى اختيار اثنين من أولئك الولاة السبعة (ناظم باشا وجمال بك) لأسباب سياسية محضة وجرى عزل اثنين منهم (ناظم باشا وجلال بك) لأسباب سياسية. بينما استقال اثنان (جمال بك وزكي باشا) لأسباب سياسية. وكان متوسط المدة التي قضاها كل واحد من أولئك الولاة السبعة ووكلائهم الثمانية في تقلّد مهام المنصب أربعة أشهر فقط. وهي غير كافية دون ريب للتعرف على أوضاع الولاية معرفة عميقة، أو لوضع تصور لخطة إصلاحية أو تنفيذها. فضلاً عما يسببه ذلك التعاقب السريع من انعدام لاستقرار العمل في الأجهزة الإدارية المختلفة. ولم تقتصر تلك الظاهرة على مركز الولاية في بغداد بل امتدت إلى الوحدات الإدارية الأصغر التابعة لها. فقد تعاقب على قضاء السماوة ثلاثة وثلاثون "قائم مقام" أصالة أو وكالة خلال سنة واحدة فقط(٥١).

أما ولاية الموصل فقد كان يتولاها عند قيام الانقلاب مصطفى باشا العابد (شقيق عزت باشا العابد سكرتير السلطان عبد الحميد الثاني)، ولذلك لا عجب أن طردته الحكومة الجديدة من منصبه في ١٩٠٩(٥٢)، والأرجح أن ذلك تم في نيسان (أبريل) تلك السنة. وعينت الحكومة المركزية بعد حين محمد فاضل باشا الداغستاني والياً على الموصل، حيث وصل مقر عمله في رجب ١٣٢٧ هجرية آب (أغسطس) ١٩٠٩(٥٣)، ولم ترد معلومة موثقة عمن تولى إدارة الولاية بين نيسان وآب من تلك السنة. وأن روي أنها كانت بعهدة واليين أصيلين هما زكي باشا الحلبي ورشيد باشا،

امتدت ولايتاهما بين سيني ١٣٢٥-١٣٢٨[٥٤]، ولا يمكن أن تكون هذه الرواية دقيقة، لأن هاتين السنتين إذا كانتا روميتين فهما تقابلان ١٩٠٩ و ١٩١٢ على التوالي، وإن كانتا هجريتين فهما تقابلان ١٩٠٧ و ١٩١٠ على التوالي. والأمر في الحالتين كلتيهما لا يستقيم مع المعلومات الواردة في أول هذه الفقرة أو آخرها. ومهما يكن الحال، فعلى الرغم من خبرات الداغستاني الحربية والإدارية إلا أنه كما لاحظ القنصل العام البريطاني في بغداد كان عجوزاً مرهقاً لا يستطيع التعامل بكفاءة مع مشكلات ولاية الموصل، وهذا جعله يرفع استقالته للحكومة المركزية عدة مرات دون أن تجد قبولاً[٥٥]، ولكن ذلك القبول تحقق في النهاية حين قررت الحكومة المركزية إحالته للتقاعد من منصبيه الإداري والعسكري معاً في حزيران (يونيو) ١٩١٠. فغادر الموصل ووصل بغداد آخر ذلك الشهر ليقيم في منزله هناك[٥٦].

وُضِعت ولاية الموصل وكالةً بعهدة توفيق باشا، وهو أحد الضباط الذين جاؤوا من اسطنبول بمعية والي بغداد الجديد حسين ناظم باشا. ولم يكن الوكيل ذا خبرة سابقة بالإدارة المدنية[٥٧]، وانتهت وكالته بتعيين طاهر باشا والياً للموصل في وقت ما من النصف الثاني من سنة ١٩١٠، وقد حظي الوالي الجديد بإشادة بعض المؤرخين بكفاءته الوظيفية وإخلاصه وعدالته[٥٨]، ولعل تلك الصفات هي التي مكنته من البقاء في منصبه مدة طويلة نسبياً. فقد ظل فيه حتى تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٢، حين صدر قرار الحكومة المركزية بسحب يده، ويبدو أن ذلك نتج عن تردي حالة الأمن في الولاية لدرجة أن مائة وسبعة وستين شخصاً قتلوا أو جرحوا في قضاء الموصل وحده خلال شهر أيلول (سبتمبر) ١٩١٢[٥٩]، وأسندت ولاية الموصل وكالةً بعده لأسعد باشا قائد فيلق الجيش الثاني عشر. وذكر القنصل البريطاني العام في بغداد أن هذا الوكيل أحرز نجاحاً ملحوظاً في إدارته، عزاه لظهوره بمظهر الرجل الثوي غير المنحاز[٦٠].

انتهت وكالة أسعد باشا في شباط (فبراير) ١٩١٣، بتعيين محرم بك والياً، وهو إداري محترف[٦١]، ولم تطل إقامته في الموصل فقد طرد من منصبه في آب (أغسطس) ١٩١٣. وسبب الطرد هو اعتراض الحكومة المركزية على العمليات الحربية التي قامت بها القوات الحكومية بأمر منه ضد بعض أكراد الولاية الذين تمرّدوا على طاعته. وأسندت مقاليد الولاية وكالة بعد طرده لأسعد باشا مرة أخرى[٦٢]. ولم تلبث الحكومة المركزية طويلاً حتى عينت في أيلول (سبتمبر) ١٩١٣ سليمان نظيف بك والياً على الموصل، وهو إداري مدني ذو تجربة سابقة في العراق حيث عمل والياً للبصرة (١٩٠٩-١٩١٠)م، فضلاً عن كونه قيادياً اتحادياً متحمساً. وقد أثار قرار تعيينه استياء أسعد باشا الذي كان يطمح في تولي منصب الولاية أصالة[٦٣]. وقد استلم الوالي الجديد مهام عمله في الموصل في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٣[٦٤]. ولكن أمد ولايته لم يكن طويلاً حيث استقال من منصبه في تموز (يوليو) ١٩١٤[٦٥].

جدول رقم (٢) الولاة والوكلاء الذين تعاقبوا على ولاية الموصل خلال سني البحث

الولاة	الوكلاء	المدة
مصطفى باشا العابد	–	؟-١٩٠٩/٤
–	؟	١٩٠٩/٤-١٩٠٩/٨
محمد فاضل باشا الداغستاني	–	١٩٠٩/٨-١٩١٠/٦
–	توفيق باشا	١٩١٠/٦-١٩١٠/؟
طاهر باشا	–	١٩١٠/؟-١٩١٢/١٠
–	أسعد باشا	١٩١٢/١٠-١٩١٣/٢
محرم بك	–	١٩١٣/٢-١٩١٣/٨
–	أسعد باشا	١٩١٣/٨-١٩١٣/١١
سليمان نظيف بك	–	١٩١٣/١١-١٩١٤/٧

يظهر هذا الاستعراض الموجز أن خمسة ولاة على لأقل قد تعاقبوا على ولاية الموصل خلال مدة البخث المدروسة. طرد منهم ثلاثة لأسباب إدارية أو سياسية، واستقال اثنان. وكان أربعة من أولئك الولاة إداريين محترفين وهو أمر لافت للنظر مقارنة بولاة بغداد خلال المدة نفسها الذين غلب عليهم الطابع العسكري. ومن بين أولئك الولاة اثنان ليسوا من الترك، هما العابد والداغستاني. وبلغ إجمالي عدد من تولوا ولاية الموصل خلال مدة البحث المدروسة أصالة أو وكالة تسعة على الأقل. وبهذا يكون معدل المدة التي مكثها كل منهم في منصبه أقل قليلاً من سبعة شهور. وهي أكثر من مثيلتها في بغداد، ولكنها تظل مع ذلك قصيرة، ولا تدل على استقرار إداري، ولا تمكن المسؤول من إنجاز شيء ذي بال.

أما ولاية بصرة فقد تعاقب عليها خلال مدة البحث عدد أكبر من الولاة والوكلاء. إذ كان على رأس الولاية عند قيام انقلاب تموز (يوليو) ١٩٠٨، عبد الرحمن حسن بك، فأقرته الحكومة الجديدة في منصبه إلى حين عزله في أواخر سنة ١٣٢٦ هجرية/١٩٠٨م[٦٦]. وقد أنيط تصريف شؤون الولاية بعد عزله بوكيل هو ممتاز بك[٦٧]. ويبدو أن وكالته كانت قصيرة الأجل، فقد وصل الوالي الجديد محرم بك إلى البصرة قبل نهاية ذلك العام. ولكنه لم يهنأ بولايته فقد أصدرت الحكومة المركزية أمراً برقياً في الثالث من آذار (مارس) ١٩٠٩، يقضي بعزله وتعيين عارف بك المارديني محله[٦٨]. وأدار "الدفتردار" الولاية بالوكالة لحين وصول الوالي الجديد إلى مقر عمله في لخامس من أيار (مايو) ١٩٠٩[٦٩]. ولم يمكث المارديني في ولاية البصرة طويلاً، إذ قدم استقالته فقبلت في آخر أيلول (سبتمبر) ١٩٠٩[٧٠]. وصرّف أمور الولاية وكالةً بعد مغادرته راقم أفندي[٧١]. ووصل والٍ جديد للبصرة هو سليمان نظيف بك في الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٩، وظل يمارس عمله حتى غادر البصرة في الثالث من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٠[٧٢]. فقد استقال نتيجة لخلاف حدث بينه وبين والي بغداد حسين ناظم باشا الذي كان يتمتع بسلطة إشرافية

على ولايتي البصرة والموصل[٧٣]، وتعاقب على إدارة ولاية البصرة بعد سليمان نظيف أربعة وكلاء[٧٤]. ثم وصلها في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٠ حسين جلال بك وظل والياً فيها حتى آب (أغسطس) ١٩١١، حيث عُزِلَ من منصبه لاستياء الحكومة المركزية من كيفية معالجته للمشاكل العشائرية في لواء العمارة[٧٥].

بقيت ولاية بصرة تدار وكالة من قبل الدفتردار حسني بك[٧٦]، ثم عينت الحكومة المركزية في أيلول (سبتمبر) ١٩١١، حسن رضا باشا البغدادي والياً عليها. وكان ضابطاً اتحادياً تلقى تدريباً في ألمانية حتى عُدَّ أفضل ضباط مدفعية عثماني في حينه[٧٧]، وقد أدى انتماؤه السياسي إلى إقالته أو استقالته إثر سقوط الحكومة الاتحادية في تموز (يوليو) ١٩١٢[٧٨]. فأنيطت وكالة الولاية بعده بطاهر أفندي الحمصي[٧٩]. ولكن تفاقم حدة الصراع السياسي-العشائري في الولاية اضطر الحكومة المركزية إلى إيفاد اللواء علي رضا باشا الركابي قائد الفيلق الثالث عشر في بغداد لتولي منصب وكالة الولاية في كانون أول (ديسمبر) ١٩١٢[٨٠]، وفي آذار (مارس) ١٩١٣، صدر فرمان تعيين علاء الدين بك الدروبي، وهو عربي من حمص، والياً على البصرة. وعُدَّ ذلك تنازلاً من الاتحاديين نتيجة ضغط الحركة القومية العربية[٨١]، ولكن علاء الدين بك الذي استلم مهام منصبه في أيار (مايو) التالي، لم يطل المكث في البصرة، حيث عزل بعد شهرين لفشله في السيطرة على الوضع السياسي العشائري المتوتر[٨٢]. وأدار الولاية وكالة بعد عزله عزت بك سليمان شفيق باشا الذي كان فرمان تعيينه قد صدر منذ شهر شباط (فبراير) ١٩١٤[٨٣]، وكانت مدة ولايته قصيرة أيضاً حيث صدر قرار عزله في تموز (يوليو) ١٩١٤، للسبب نفسه الذي أدى إلى عزل سلفه[٨٤]. وتسلم زمام الولاية بعد وكالة صبحي بك قائد حامية البصرة حتى سقوط البصرة بيد القوات البريطانية في تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩١٤[٨٥].

يظهر هذا الاستعراض السريع أن ولاية البصرة كانت من الناحية الإدارية أقل استقراراً من جارتيها، فقد تعاقب عليها خلال مدة البحث ثمانية ولاة أصلاء واثنا

عشر وكيلاً. وبذلك يكون معدل المدة التي قضاها كل واحد منهم على رأس عمله لا يتجاوز ثلاث شهور فقط. وهو واقع يعكس الخلل الإداري والاضطراب السياسي المخيم على الساحة البصرية حينئذٍ. ويلاحظ أن ستة من الولاة الثمانية كانوا مدنيين. ونصف أولئك الولاة من الترك ونصفهم الآخر من العرب. ومرد هذه الظاهرة الفريدة قياساً على الولايتين المجاورتين هو قوة الحركة القومية العربية في البصرة بقيادة طالب النقيب حينئذٍ، مما أجبر السلطات الاتحادية على محاولة احتوائها عن طريق إرسال ولاة عرب للبصرة انسجاماً مع بعض مظاهر مطلب اللامركزية الذي رفعه القوميون العرب. وكان مصير ستة من أولئك الولاة العزل لفشلهم في السيطرة على الوضع المضطرب في الولاية.

أسماء الولاة والوكلاء الذين تعاقبوا على ولاية البصرة خلال سني الدراسة

الوالي	الوكيل	المدة
عبد الرحمن حسن بك	-	حتى أواخر ١٩٠٨ (؟)
-	ممتاز بك	أواخر ١٩٠٨ (؟)
محرم بك	-	أواخر ١٩٠٨- آذار ١٩٠٩
-	دفتردار الولاية (؟)	آذار ١٩٠٩- مايس ١٩٠٩
عارف بك المارديني	-	مايس ١٩٠٩- أيلول ١٩٠٩
-	راقم أفندي الزهاوي	أيلول١٩٠٩- تشرين ثاني١٩٠٩
سليمان نظيف بك	-	ت ثاني ١٩٠٩- ت أول ١٩١٠
-	سعاد بك	تشرين أول ١٩١٠
-	شوكت بك الدفتردار	كذلك
-	علي وهبي أفندي القاضي	كذلك
-	عارف بك المكتوبجي	كذلك

الوالي	الوكيل	المدة
حسين جلال بك	-	ت ثاني ١٩١٠- آب ١٩١١
-	حسني بك الدفتردار	آب ١٩١١-أيلول ١٩١١
حسن رضا باشا البغدادي	-	أيلول ١٩١١- تموز ١٩١٢
-	طاهر أفندي الحمصي	تموز ١٩١٢- كانون أول ١٩١٢
-	علي رضا باشا الركابي	كانون أول١٩١٢- مايس١٩١٣
علاء الدين بك الدروبي	-	مايس ١٩١٣ - تموز ١٩١٣
-	عزت بك الكركوكلي	تموز ١٩١٣- آذار ١٩١٤
سليمان شفيق باشا	-	آذار ١٩١٤- تموز ١٩١٤
-	صبحي بك	تموز ١٩١٤- ت ثاني ١٩١٤

صلاحيات أولئك الولاة:

يبدأ الوالي مزاولة مهام عمله رسمياً في مقر ولايته بعد حفلة قراءة "فرمان" تعيينه الذي يصدره السلطان، وكانت الحفلة تقام في السراي عادةً ويحضرها كبار موظفي الولاية من مدنيين وعسكريين فضلاً عن وجهاء المدينة، وتبدأ الحفلة بقراءة نص الفرمان على الحضور وسط هدير طلقات مدفعية تُطلق احتفاءً بالمناسبة، ويلقي بعدها نقيب أشراف بغداد (غالباً) دعاء بالمناسبة ، تليه كلمة الوالي الجديد التي تتضمن أحياناً برنامج عمله المقبل في الولاية(٨٥). وتكون الكلمة قصيرة مقتضبة في أحيان أخر(٨٦)، وعدم قراءة فرمان التعيين لسبب من الأسباب يجعل مركز الوالي الجديد مهزوزاً في أنظار مرؤوسيه والرأي العام المحلي. فقد استلم الوالي جاويد باشا على سبيل المثال مهام منصبه في التاسع من شهر كانون ثاني (يناير) ١٩١٤، وحل شهر آذار (مارس) دون أن يقرأ فرمان تعيينه، مما جعل البعض يظنون أن تعيينه لم يكن

نهائياً[٨٧]، ويحدد الفرمان عادة مهام الوالي المعني والأمور التي تريد منه الحكومة المركزية أن يوليها عنايته.

وتحدد القوانين والأنظمة الإدارية العثمانية صلاحيات الولاة بشكل دقيق[٨٨]، ولكن من تجمع له منهم مقاليد السلطتين الإدارية والحربية في ولايته يتمتع بصلاحيات أوسع ومركز أقوى من غيره. ويحتل حسين ناظم باشا الصدارة بين أقرانه الولاة في هذا المجال. فقد جاء في فرمان تعيينه الذي قرأ في الحادي عشر من أيار (مايو) ١٩١٠، ما يلي: "بما أن رغبتنا لا تقتصر على تطوير ولاية بغداد وتنمية ثروتها وتنشيط تجارتها فقط، بل تشمل إعادة تنظيم فيلق جيشنا السادس وتطويره أيضاً، فقد رأينا صواب دمج المنصبين وإيداع مسؤولياتهما لرجل مجرب يقظ. ولكونك ياناظم باشا معروفاً بحماسك وجدارتك بالثقة وامتلاكك المعرفة، فقد أصدرنا بناء على الالتماس المرفوع إلينا إرادتنا السلطانية بتعيينك والياً للولاية المذكورة وقائداً حربياً لعساكرها"[٨٩]. ولم ينل والٍ آخر ذلك الامتياز، فالوالي محمد زكي باشا أنيطت به علاوة على الولاية مسؤولية المفتشية العسكرية الرابعة التي تشمل فيلقي ولايتي بغداد والموصل معاً[٩٠]، ولكن المفتشية في الواقع الفعلي أدنى مرتبة من القيادة الفعلية الميدانية للفيلق. أما الوالي محمد جاويد باشا فقد اكتنف تعيينه للمنصب العسكري شيء من الغموض بسبب تأخر صدور فرمان تعيينه كما مرّ. إذ ذكر إعلان تعيينه أنه يشمل الولاية وقيادة الفيلق. وأكد هو هاتين الصفتين في رسالة وجهها إلى القنصل العام البريطاني في بغداد. إلا أن إشاعة انتشرت في بغداد فيما بعد أفادت بأن تعيينه لقيادة الفيلق قد ألغي وعدلت صحيفة "الزهور" الناطقة بلسان جمعية الاتحاد والترقي في بغداد حينئذٍ تلك الشائعة حين نشرت خبراً يفيد بأن إدارة سلطانية صدرت بتعيين جاويد باشا مفتشاً للمفتشية العسكرية الرابعة فضلاً عن الولاية. وأكد جاويد نفسه صحة ذلك الخبر ضمناً حين كتب للقنصل العام البريطاني في بغداد بصفته "والياً ومفتشاً"[٩١].

وثمة أمر آخر ميز ولاة تلك الحقبة بعضهم عن بعض، وهو امتداد صلاحياتهم لأكثر من ولاية. ويقف الوالي حسين ناظم باشا في الصدارة هنا أيضاً، فقد نص فرمان تعيينه على إلزام والِيي البصرة والموصل بالتراسل معه والتنسيق في مجالي الأمن العام وصلاح الحكم، مع بقاء كل منهما مسؤولاً عن الأمن والإدارة في ولايته وبرر الفرمان ذلك الإجراء بالضرورات الحربية. وتخوف القنصل العام البريطاني وهو ينقل تلك المعلومة من إمكانية حدوث احتكاكات بين الولاة الثلاثة من جراء تداخل الاختصاصات والصلاحيات إلا إذا كانت الحكومة المركزية قد اتخذت احتياطات مسبقة غير معلنة لتلافي مثل ذلك الاحتمال(٩٢)، أما الواليان جمال بك وزكي باشا فقد منحا صلاحية أضيق وهي حق التراسل مع والي البصرة فقط عند الضرورة سعياً وراء ما يحقق خير الولايتين معاً(٩٣)، ولكن الأمر لم يقف عند حد التراسل في الواقع العملي إذ لم يجد والي بغداد جمال بك حرجاً في استدعاء والي البصرة حسن رضا باشا لمقابلته في بغداد فوصلها في كانون أول (ديسمبر) ١٩١١. وجرت مشاورات بين الرجلين تتعلق بشؤون ولاية البصرة(٩٤)، بل إن الأمر تعدى ذلك لدى الوالي زكي باشا الذي تصور أن تلك الصلاحية المحدودة التي منحت له تؤهله لاستدعاء موظفين تابعين لوالي البصرة يفترض شكلاً ألا يتعامل معهم إلا من خلاله. فقد استدعى في كانون أول (ديسمبر) ١٩١١، فريد بك متصرف لواء المنتفق التابع لوالي البصرة إلى بغداد ليناقش معه شؤون لوائه(٩٥)، كما اعتقد الوالي جمال بك أن تلك الصلاحية المحدودة تتيح له القيام بجولة تفتيشية في ولاية البصرة، فقام بذلك في أيار (مايو) ١٩١٢(٩٦)، ولم يتمتع والي بغداد جلال بك بذلك الامتياز حيث لم يشر له في فرمان تعيينه(٩٧)، ولم تتضح حدود صلاحيات الوالي جاويد باشا لعدم قراءة فرمان تعيينه كما مرّ.

كانت المادة الثالثة من القسم الأول من "نظام إدارة الولايات العمومية" لسنة ١٨٧١، تؤكد على ضرورة قيام الولاية بجولة أو جولتين تفتيشيتين داخل ولاياتهم كل سنة(٩٨).

ولم يلتزم جميع ولاة الحقبة مدار البحث بمنطوق تلك المادة. إذ لم يقم الوالي حسين ناظم باشا بأية جولة تفتيشية خارج مقر ولايته، على الرغم من اتصافه بالحيوية والحرص على متابعة أداء الدوائر الخدمية بنفسه إلى درجة خروجه متنكراً إلى أطراف تجول في مدينة بغداد بعض الليالي[٩٩]، ولكن خليفته جمال بك أكثر من الجولات التفتيشية خلال مدة ولايته. فقد تجول في لواء كربلاء في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١١[١٠٠]، وتجول في منطقة الخالص في الشهر التالي[١٠١]، وفي الأول من أيار (مايو) ١٩١٢، غادر بغداد إلى بعقوبة ومنها إلى بلدروز، ومندلي، وبدرة. وانحدر منها إلى الكوت فاستقل الباخرة إلى العمارة ثم البصرة، وفتش خلال وجوده هناك قلعة الفاو وبلدة الزبير[١٠٢]، ولم يولِ محمد زكي باشا كبير عناية بالجانب المدني من شؤون ولايته، بل تركه غالباً لمعاون الوالي لطفي بك يسيره بمعونة رؤساء الدوائر في الولاية[١٠٣]، ولا ينتظر من والٍ مثل هذا القيام بجولات تفتيشية ميدانية خارج مكتبه.

ولم يروِ أيضاً شيء عن قيام الوالي جلال بك بجولات تفتيشية خارج بغداد، ولكن خلفه جاويد باشا قام خلال شهر شباط (فبراير) ١٩١٤، بجولة في المسيب وكربلاء والنجف والشامية والديوانية والسماوة فضلاً عن سدة الهندية، ونقل القنصل العام البريطاني في بغداد، وهو يورد ذلك الخبر ، الانطباع السيئ الذي خلفته تلك الجولة في نفوس سكان الولاية عن مقدرة واليهم الإدارية، على الرغم من حرصه خلالها على حل بعض نزاعات القوى المحلية[١٠٤]، وكان بعض ولاة البصرة والموصل يقومون بجولات تفتيشية مشابهة. فقد تجول والي البصرة سليمان نظيف بك في لواء المنتفق في أواخر شهر حزيران (يونيو) ١٩١٠. وقام واليها سليمان شفيق باشا بجولة مماثلة زار خلالها قضاء سوق الشيوخ في نيسان (أبريل) ١٩١٤[١٠٥]، كما زار والي الموصل طاهر باشا في تشرين ثان (نوفمبر) ١٩١١، مشروع جسر الزاب ومشروع ري كركوك[١٠٦].

كانت السلطة سلطة الوالي على مرؤوسيه من موظفي الولاية كبيرة. وتوسع بشكل استثنائي بعض الولاة ، فقد منح فرمان التعيين للوالي حسين ناظم باشا صلاحية تقصي أحوال جميع الولاية بمختلف درجاتهم وإقصاء من لا يجده منهم جديراً بمنصبه على الفور واستبداله بآخر. ولكنه قيد ذلك التفويض بضرورة مراعاة المتطلبات اللازمة لكل إجراء لكي يصبح بعدها واجب التنفيذ دون إبطاء من قبل الإدارة المعنية[١٠٧].

ومارس ناظم باشا تلك الصلاحية على الفور فطرد بعض كبار موظفي الولاية وأعاد بعض الموظفين المطرودين من أعمالهم قبل تعيينه[١٠٨]، ولكن الحكومة المركزية كانت تمتلك حق النقض على قرارات الوالي في هذا المجال، فقد أصدر ناظم باشا أمراً بتعيين (سيروب أفندي) مديراً لإدارة البواخر النهرية الحكومية واعترض وزير المالية، ربما بتحريض من فرع جمعية الاتحاد والترقي في بغداد، على تعيينه بحجة أنه تاجر سبق له إشهار إفلاسه. ولكن ناظم باشا أصر على قراره وبرره بالكفاءة الكبيرة التي أظهرها الرجل في عمله خلال المدة الفاصلة بين صدور قرار التعيين واعتراض الوزير عليه. فقد زاد دخل الإدارة في غضون تلك المدة مبلغ ثمانمائة ليرة عن مثيله خلال المدة نفسها في العام السابق، واضطر الوزير في النهاية لإقرار المدير الجديد في عمله[١٠٩].

وكانت الصلاحية التي مُنحت للوالي زكي باشا في هذا المجال أضيق نطاقاً، فقد منحه فرمان تعيينه حق طرد جميع الموظفين العاجزين والتشاور مع رؤساء الدوائر في الولاية بشأن تعيين خلف للمطرودين، ماعدا الموظفين الشرعيين والعدليين الذي يجب ترك أمر تعيينهم للحكومة المركزية[١١٠]، ولا يتضح من هذا الخبر إذا كان من صلاحيات الوالي عزل أولئك الموظفين دون تعيين بدلاء لهم، وهو الأرجح، أو أنه لم يُعطِ حق عزلهم وتعيينهم معاً، ولا ريب في أن تخويل الوالي مثل ذلك الحق كان يزيده هيبة في أعين مرؤوسيه. فقد لاحظ القنصل العام البريطاني في بغداد أن

الموظفين الترك في ولاية بغداد كانوا يعاملون زكي باشا باحترام كبير فلا يتكلمون بحضرته إلا حين يكلمهم، ويقبلون يده عند دخولهم عليه وعند انصرافهم(١١١).

ويبدو من سياق الأخبار المتاحة أن الولاة عموماً كانوا يتمتعون بصلاحيات واسعة في مجال تعيين كبار الموظفين وعزلهم في ولاياتهم، فقد طرد الوالي جمال باشا بك قائمقام العزيزية من منصبه(١١٢)، وطرد والي الموصل قائمقام أربيل، ثم طرد متصرف لواء كركوك(١١٣)، كما يبدو أن وكلاء الولاة أيضاً كانوا يتمتعون بتلك الصلاحيات بدليل حديث وكيل والي بغداد لطفي بك في آب (أغسطس) ١٩١٢، عن عدم عثوره على شخص كفء لتعيينه متصرفاً للواء كربلاء(١١٤)، ولكن تلك الأخبار تناقض ما روي عن تقليص صلاحيات الولاة خلال المدة مدار البحث(١١٥)، وما ذكر عن عدم قدرة الولاة على تعيين القائمقاميين أو نقلهم إلا بعد الرجوع إلى الحكومة المركزية(١١٦)، وترد أخبار أخرى تدل على قيام الحكومة المركزية بعزل أن تعيين بعض كبار الموظفين في الولاية. فقد أبرقت اسطنبول لمتصرف لواء كركوك في تموز (يوليو) ١٩١٣، قرار عزله من منصبه(١١٧)، دون أن يصله ذلك القرار عن طريق مرجعه الإداري والي الموصل، وقررت الحكومة المركزية في أيلول (سبتمبر) ١٩١٣، تعيين والٍ للموصل ومتصرف للواء كربلاء في الوقت نفسه. كما نقلت دفتردار ولاية يانينا إلى المنصب نفسه في ولاية بغداد سنة ١٩١٣(١١٨). وهكذا يتضح عدم وجود قاعدة محددة واجبة التنفيذ في اتخاذ قرارات العزل والتعيين، مما أتاح للولاة والحكومة المركزية الفرصة لاتخاذها.

ومهما تكن الصلاحية المخولة للوالي في فرمان تعيينه واسعة فإنها تحد بقيد الضوابط المالية المرعية. فقد عين الوالي ناظم باشا إبرام بك مديراً للشؤون السياسية في ولاية بغداد براتب قدره ثلاثون ليرة شهرياً، ولكن دفتردار الولاية على الرغم من أنه تابع للوالي رفض صرف الراتب لتجاوزه الراتب المقرر لذلك المنصب قانوناً وهو عشر ليرات شهرياً فقط(١١٩)، بل إن أعضاء المجلس البلدي في بغداد رفضوا أمر ناظم باشا

لهم بصرف مبالغ مالية لتعويض بعض المتضررين وللصرف على مشروع مضمار سباق الخيل، وقدموا استقالاتهم احتجاجاً على تدخله في أعمالهم[١٢٠]، وتحسن الإشارة هنا إلى رواتب الولاة التي تتضارب حولها الروايات، فقد ذكر القنصل العام البريطاني في بغداد في آب (أغسطس) ١٩١٢، أن راتب والي بغداد حينئذٍ (جمال بك) كان يبلغ مائتين وخمسين ليرة شهرياً[١٢١]، ولكن رواية أخرى تفيد أن الراتب الشهري المخصص لمن يعين والياً لبغداد في مطلع القرن العشرين يبلغ ثلاثين ألف قرش (أي ٣٠٠ ليرة)[١٢٢]، وتفيد روايةٍ ثالثة أن والي بغداد يصنف والياً من الدرجة الأولى ومرتبه الشهري عشرين ألف قرش، بينما والي البصرة من الدرجة الثانية وبمرتب سبعة عشر ألف قرش، ويصنف والي الموصل من الدرجة الثالثة بمرتب خمسة عشر ألف قرش[١٢٣].

وهناك قيود أخرى تحد من سلطات الولاة، أهمها احترام أحكام الدستور والقوانين المرعية، فقد أكد فرمان تعيين ناظم باشا على ضمان تمتع المواطنين بالحرية والعدالة والمساواة باعتبارها حقوقاً ضمنها لهم القانون الأساسي (الدستور)[١٢٤]، وحثّ الفرمان الوالي زكي باشا على ممارسة مهام منصبه طبقاً للقانون[١٢٥]، ولا بدّ من الانتباه هنا للتفريق بين تلك التعليمات النظرية التي أصدرت للولاة وواقع ممارساتهم العملية، فحين حدث خلاف بين القنصل العام البريطاني في بغداد والوالي ناظم باشا حول هدم بعض ممتلكات مملوكة لرعايا بريطانيين واحتج القنصل بمخالفة ذلك للقوانين العثمانية المرعية أفهم بصورة غير رسمية أن ناظم باشا فوق القانون[١٢٦]، وفضلاً عن ذلك تحفل سيرة كثر من ولاة تلك الحقبة بخروقات يطول تعدادها لبعض القوانين المرعية، ويكفي التمثيل عليها بما كان يرافق عملية الانتخابات النيابية من تجاوزات على قانون الانتخاب العثماني[١٢٧].

ويحدُّ تدخل الحكومة المركزية المباشر من حرية الولاة في مزاولة أعمالهم، ويطال ذلك التدخل أحياناً حتى الأمور الهامشية، فقد أبلغ الوالي ناظم باشا مثلاً أعضاء السلك

القنصلي في بغداد أن حفل الاستقبال الذي سيقيمه بمناسبة العيد الوطني العثماني في الثالث والعشرين من تموز (يوليو) ١٩١٠، سيكون بالملابس العادية، ولكنه عاد بعد قليل لإبلاغهم أن الحفل سيكون بالملابس الرسمية بناء على تعليمات تلقاها من اسطنبول[١٢٨]، وقد دفع ذلك الواقع كاتباً معاصراً للاعتقاد بأن الولاة أدوات تحركها مشيئة الحكومة المركزية[١٢٩]، وكان تدخل المركز يصل غايته حين تعترض الحكومة المركزية على إجراء ما اتخذه الوالي فتصدر أمرها بعزله، فقد طرد والي البصرة جلال بك في آب (أغسطس) ١٩١١، لعدم رضا الحكومة المركزية على معالجته لمشكلة قبائل العمارة[١٣٠]، وطرد والي الموصل محرم بك في آب أغسطس) ١٩١٣، لرفض الحكومة المركزية لإجراءاته تجاه مشكلة الأكراد[١٣١]، وطرد والي بغداد جلال بك في تشرين ثان (نوفمبر) ١٩١٣، أما لاعتراض الحكومة المركزية على موقفه من الانتخابات النيابية، أو لأن وزير الداخلية سخط عليه لعدم تعاونه مع أحد مقربيه[١٣٢].

وكانت الصراعات السياسية الجارية في العاصمة اسطنبول ذات أثر كبير على ولاة العراق خلال تلك الحقبة وعلى الإدارة في الولايات عموماً، فقد كانت تلك الصراعات تطول بعض الولاة في العراق تبعاً لمواقفهم السياسية، إذ تعرّض والي بغداد حسين ناظم باشا لحملة نقد عنيفة على أيدي الاتحاديين في بغداد واسطنبول معاً وصلت ذروتها بعزله وإحالته للتحقيق، وشنت حملة مماثلة ضد الوالي زكي باشا بعد عودة جمعية الاتحاد والترقي للسلطة في كانون الثاني (يناير) ١٩١٣، فانبرى أعضاء الجمعية في اسطنبول لتشويه أعماله، مما جعل موقفه صعباً في بغداد[١٣٣]، وتأثر سير الإدارة والأداء أيضاً بالصراع المرير والطويل بين الاتحاديين والقوميين العرب ولاسيما في ولايتي البصرة وبغداد، ولم تكن تلك التأثيرات السياسية مقتصرة على الولاة فقط، بل كانت تطال حتى موظفي الولايات الأقل درجة منهم، كما لاحظ القنصل العام البريطاني في بغداد حينئذ[١٣٤].

وكانت السلطة التي تمنح لوالي بغداد أحياناً على قرينيه في ولايتي الموصل والبصرة تؤدي إلى احتكاكات بينه وبين بعضهم بما يعرقل سير الإدارة سيراً سلساً. ومن أمثلة الخلاف الذي نشب بين والي بغداد ناظم باشا ووالي البصرة سليمان نظيف لك حول كيفية التعامل مع العشائر العربية في ولايته، إذ كان "نظيف" حاد الطبع ولا يفضل سياسة استرضاء تلك العشائر التي قرر زميله تبنيها[١٣٥]، وتعذر التفاهم بين الرجلين فقدم سليمان نظيف استقالته، وأرسل برقية لناظم باشا سوَّغ فيها استقالته بالحرص على ألا يضرّ الشقاق بينهما بالمصلحة العامة. ولم ينسَ أن يلوم في برقيته تلك زميله على سوء اختياره لمستشاريه وعلى طرائقه الإدارية المماثلة لطرائق النظام الحميدي[١٣٦]، وكان لحكمت باشا قائد القوات البحرية في البصرة دور في تدهور علاقة الرجلين، حيث كان مقرباً من ناظم باشا فأوغر صدره على سليمان نظيف بك، فقد استشرت الخلافات بين الوالي والقائد في البصرة حول قضايا سياسية ومالية[١٣٧]، وكانت الخلافات بين الولاة وقادة العسكر في الولايات أمراً مألوفاً في تلك الحقبة[١٣٨]، ومن صور تلك الخلافات ما حدث بين والي الموصل محرم بك وقائد الفيلق أسعد باشا من تشاحن شلّ سلطات الولاية عن اتخاذ الإجراءات اللازمة لحفظ الأمن العام حسبما لاحظ نائب القنصل البريطاني في الموصل في حزيران (يونيو) ١٩١٣[١٣٩]، وبلغت الأزمة بين الرجلين ذروتها بتمهل أسعد باشا في تنفيذ طلب الوالي إرسال تعزيزات للقوات الحكومية التي كانت تشتبك مع بعض المتمردين[١٤٠]، وناصرت الحكومة المركزية أسعد باشا فعزلت خصمه من الولاية وأناطت إدارتها به وكالةً[١٤١]، وحين عيّن سليمان نظيف بك بعدها والياً للموصل حاول أسعد بك القيام بالدور نفسه مجدداً، ولكن نظيف واجهه بحزم واتهمه بالتواطؤ مع المتمردين وطلب من الحكومة المركزية الموافقة على محاكمته أمام مجلس عرفي[١٤٢].

وكان الرأي العام المحلي يقف رقيباً على تصرفات الولاة ويحد بشكل أو بآخر من سلطاتهم الواسعة مستفيداً من هامش الحرية الذي أتاحه له الدستور، فقد أرسل

البصريون في شباط (فبراير) ١٩٠٩، برقيات مطولة إلى الحكومة المركزية يطالبون فيها بعزل واليهم محرك بك[١٤٣]، وأكثر سكان بغداد في شباط (فبراير) ١٩١٠، من تقديم الشكاوى ضد الوالي بعدم قيامه بأعمال التطوير التي كانوا يطالبون بها[١٤٤]، وكان سكان بغداد يعلنون سخطهم على إدارة الوالي زكي باشا لأنها لم تنجز شيئاً لهم[١٤٥]، ومع ذلك أبرقت برقيات من بغداد عند استقالته تطالب الحكومة المركزية بعدم قبولها، وتحتج على تعيين جلال بك خلفاً له[١٤٦]، وكان الولاة يدركون أهمية دور الرأي العام، ويلجئون إلى الحصول على شهادات من وجهاء ولاياتهم لدعم موقفهم في العاصمة اسطنبول[١٤٧]، وكانت الصحف المحلية تؤدي دوراً كبيراً في إبراز مشاعر الرأي العام تجاه الولاة، فقد انتقدت صحيفة "بين النهرين" الصادرة في بغداد في الخامس والعشرين من كانون أول (ديسمبر) ١٩١١، بعض مواقف الوالي جمال بك، وحذرته من خسارة شعبيته بين سكان بغداد[١٤٨]، وشنت صحيفة "الزهور" حملة صحفية ضد الوالي زكي باشا لم تهدأ حتى بعد استقالته التي لم تثر أسف قلة من الناس فقط لأنه لم يفعل خلال ولايته شيئاً يستوجب الثناء على حد قول الصحيفة[١٤٩].

وكان بعض المتنفذين من السكان يحاولون استمالة الولاة والتأثير في قراراتهم بما يخدم مصالحهم الخاصة من خلال الخدمات التي يقدمونها لهم. وكانت الاستجابة لتلك المغريات تتفاوت من والٍ لآخر، فقد رفض الوالي ناظم باشا وهو في طريق قدومه إلى بغداد لاستلام مهام منصبه الانتفاع من الترتيبات التي هيأها لراحته في الفلوجة الوجيه البغدادي الثري عيسى الجميل[١٥٠]، أما مثيله عبد القادر باشا الخضري فقد وضع بيتاً يملكه على ضفة دجلة تحت تصرف ولاة بغداد يسكنونه مجاناً حتى سماه الناس تندراً "بيت الوقف"، وسكنه من الولاة جمال بك وزكي باشا وجلال بك على التوالي[١٥١]، ولكن الوالي جاويد باشا رفض أن يحذو حذوهم، وأصر على استئجار منزل آخر ودفع إيجاره لمالكه[١٥٢]، وأعدَّ زعيمُ البصرة السيد طالب النقيب لسكن الوالي سليمان شفيق باشا قصراً مطلاً على شط العرب يملكه صديقه الشيخ خزعل

شيخ المحمرة، كما وضع عربته الفاخرة وخيوله الأصيلة تحت تصرف الوالي المذكور[١٥٣].

وهناك قيد لا يمكن إغفاله حدّ من قدرة الولاة على الحركة وهو ضرورة مراعاة المصالح الأجنبية وكان ولاة تلك الحقبة حريصين ما أمكنهم على إقامة علاقات طيبة مع القنصليات التي ترعى تلك المصالح، ويتبدى ذلك الحرص منذ اليوم الأول الذي يستلمون فيه مهام مناصبهم، إذ كان من التقاليد البروتوكولية كتابة الوالي الجديد رسالة لكل قنصل تشعره بوصوله واستلامه مهام منصبه، وتدعوه وزملاءه إلى حفل استقبال رسمي يقام لهم في سراي الولاية، ويقوم الوالي بعدها بتحديد موعد لرد الزيارة لكل قنصل في مقر قنصليته[١٥٤]، ومن المعتاد أيضاً أن يقيم الوالي الجديد بعد حين حفلة عشاء لأعضاء السلك القنصلي العاملين في بغداد[١٥٥]، ولم يكن لطف التعامل ذاك يشفع للوالي لدى قنصل ما حين يشعر بأن في إجراءات الوالي ما يمس مصالح دولته أو رعاياها، فقد تصاعد الاحتكاك بين حسين ناظم باشا والقنصل العام البريطاني (١٩١٠-١٩١١)، بسبب مشاريع الوالي التطويرية التي أثّرت على بعض ممتلكات الرعايا البريطانيين في بغداد[١٥٦]، وكان بعض القناصل يتخطون سلطة الولاة ويحلون قضاياهم مع الحكومة المركزية مباشرة، فقد اختلف القنصل العام الروسي مع مدير شرطة بغداد في تشرين أول (أكتوبر) ١٩١٢، ولم يترك للوالي فرصة معالجة الأمر، بل رفعه إلى سفارته في اسطنبول التي ضغطت على الباب العالي فأصدر أمراً بنقل مدير الشرطة دون انتظار لرأي الوالي[١٥٧].

وكان القناصل يتضامنون أحياناً في الضغط على الوالي لمنعه من اتخاذ إجراء يمس مصالح دولتهم أو رعاياها كما يعقدون، فقد أعدَّ والي الموصل في شباط (فراير) ١٩١٣، منشوراً يحثّ المواطنين على شراء سندات القرض الحكومي الداخلي لدعم الجهد الحربي ضد التحالف الحربي البلقاني، ولكن صياغته لم تعجب نائب القنصل البريطاني ونظيره الفرنسي بحجة أنها عنيفة قد تثير الجهلاء والمتعصبين من السكان،

فضغطا على الوالي حتى اضطر لإلغاء المنشور المذكور[١٥٨]، وحدث أمر مشابه في بغداد في نيسان (أبريل) من السنة نفسها حين علم القنصل العام الروسي أن ولاية بغداد طبعت فتاوى بعض علماء الدين التي تحثّ المواطنين على شراء تلك السندات، ولكن مقدمة تلك الفتاوى حوت عبارات قاسية بحق المسيحيين، فعقد اجتماعاً مع زميليه البريطاني والفرنسي، وأوفدوا رسولاً للوالي الذي وعد بحذف تلك المقدمة قبل توزيع الفتاوى، وحين لم يتحقق ذلك الوعد عاد القناصل الثلاثة الاجتماع الذي أخذوا يطالبون بطرد موظفي الولاية الذين قاموا بذلك العمل، وقرروا رفع الأمر إلى الحكومة المركزية في اسطنبول إذا لم يقم الوالي نفسه بطردهم[١٥٩].

وكان تدخل قناصل الدول الأجنبية يبلغ أحياناً درجة السعي لتحديد مصائر الولاة أنفسهم سلباً أو إيجاباً، فحين وجد القنصل العام البريطاني أن بعض إجراءات الوالي حسين ناظم باشا تمس هيبة بريطانية وتؤثر على مصالحها في العراق أخذ يلحُّ على مراجعه العليا من السعي لعزله عن منصبه، وعندما بدت دلائل في نيسان (أبريل) ١٩١٣، تدل على قرب ترك الوالي زكي باشا منصبه اتفق القنصلان البريطاني والفرنسي على استنكار ذلك، إذا اعتبرا أن من غير الملائم تغيير الوالي قبل انتهاء الحرب البلقانية وتأمين أحوال أكثر استقراراً في بغداد واختيار خلف مناسب له[١٦٠]، ومع ذلك لم يقم القنصلان بخطوة عملية لدعم الوالي المستقيل، إذ رأى القنصل العام البريطاني بعد تفكير عميق أن احتجاجات أجنبية على تغيير الوالي لن تجدي نفعاً في تلك المرحلة[١٦١].

وهناك مؤشر آخر على كيفية ممارسة الولاة لسلطاتهم واتخاذ قراراتهم هو الحلقة الضيقة المحيطة بالوالي من الخلصاء والمستشارين والمقربين، فقد كانت تلك الحلقة المحيطة بالوالي حسين ناظم باشا تتألف من أربعة ضباط جلبهم معه والي بغداد من اسطنبول، يلازمونه في كل مكان، ويستشيرهم في جميع الأمور، ولا يختلط بغيرهم في حياته الخاصة[١٦٢]، ولذلك غدا سهل الانقياد لنصائحهم[١٦٣]، حدث ذلك على الرغم

من شخصيته المهيبة التي أرعبت الموظفين حتى غدوا يشكون في كل غريب يراجعهم متوهمين أنه الوالي وقد جاء متنكراً[١٦٤]، وإذا كان خَلَفه جمال بك لا يضاهيه في مهابته الشخصية فإنه لم يقل عنه في حيويته ونشاطه في ممارسة مهام عمله، بينما كان زكي باشا رجلاً مسناً يؤدي مهام منصبه بتمهل وتراخٍ ويسير الأمور الإدارية بهدوء وسلاسة[١٦٥]، وهكذا تؤثر شخصية الوالي، وطباعه في كيفية مزاولته لمهام عمله.

ويحسن إلقاء نظرة عاجلة على مراسيم توديع الولاة حين ينفكون من مناصبهم، وقد وصف القنصل العام البريطاني في بغداد مراسيم توديع الوالي جمال بك في السابع عشر من آب (أغسطس) ١٩١٢ ، التي شارك فيها زملائه من قناصل الدول الأجنبية العاملين في بغداد. فقال: "على الرغم من سقوطه فإن مغادرة الوالي السابق التي تمت في عصر يوم حار شهدها الحشد المتملق المعتاد وضمنه خصوم شخصيون لجمال بك ولكنهم يخشون أن يعود يوماً ما ويتذكر عدم حضورهم ويستخدمه ضدهم، نصب سرادقاً في شارع واقع في طرف البلدة، وتجمع أغلب المودعين تحت مظلة [طارمة] تتقد حراً لقهوة شعبية قريبة، إلى أن ظهر جمال بك ممتطياً صهوة جواد ومرتدياً اللباس العربي، فألقى كلمة في مودعيه... سرنا مسافة قصيرة مع جمال بك في طريق حلب ثم ودعناه، وحين غادرناه ظل مصحوباً بحشد لا يكل من الانتهازيين يبارونه في عربات منتشرة في الصحراء، وكانوا بصورة جلبة يأملون أن يكون عملهم ذاك استثماراً جيداً للمستقبل دون أن يلحق ضرراً بمصالحهم الحالية.."[١٦٦].

وبما أن الاستعراض السابق قد أظهر أن ولايات العراق كثيراً ما أديرت خلال مدة الدراسة من قبل وكلاء فلا بد من الإلمام بكيفية ممارسة أولئك الوكلاء لصلاحياتهم، ونادراً ما كانت الوكالة تناط بالوالي المعزول ليصرف شؤون الولاية لحين وصول خلفه أو تعيين وكيل آخر، كما حدث مع والي بغداد جمال بك في آب (أغسطس) ١٩١٢[١٦٧]، ومن الطبيعي أن يكون الوالي المعزول مغلول اليد عن ممارسة أية

سلطة حقيقية[١٦٨]، حين يوجد معاون للوالي تناط به غالباً وكالة الولاية، فقد أسندت الوكالة لمعاون الوالي في بغداد عدة مرات بين سنتي ١٩١٠ و ١٩١٣. وتظهر المعلومات المتاحة تمتعه بصلاحيات الوالي مثل تعيين من يشغل المناصب الشاغرة في ولايته[١٦٩]، كما كان يقوم بجولات تفتيشية للوحدات الإدارية التابعة للولاية[١٧٠]، ولكن شعور الوكيل بأن دوره مؤقت سيجعله حريصاً على تسيير الأمور دون احتكاكات[١٧١]، وعلى تأجيل معالجة القضايا الساخنة إلى حين وصول والٍ أصيل يتحمل تبعاتها[١٧٢]، وحين لا يكون هناك معاوناً للوالي تناط الوكالة عادة بأكبر القادة العسكريين رتبة في الولاية[١٧٣]، وأنيطت الوكالة في ولايتي البصرة والموصل في بعض الأحيان بالدفتردار أو القاضي، ويحدث أن يطمح الوكيل لتولي منصب الولاية أصالة ولذلك يظهر الاستياء حين يعين والي غيره، ويعبر عن استيائه بإهمال أداء واجبات وكالته خلال الفترة التي تسبق وصول الوالي الجديد لمقر عمله[١٧٤].

يظهر الاستعراض الآنف كثرة من تعاقبوا على إدارة ولايات العراق الثلاث خلال سني البحث، ويعكس هذا حالة عدم الاستقرار السياسي التي سادت الدولة العثمانية أثناء تلك المدة، وقد ترتب على ذلك التعاقب السريع ضعف الأداء الإداري لأغلب أولئك الولاة، ولعل عذرهم هو عدم تمكنهم من الاستقرار في ولاياتهم مدة تكفي لتكوين فكرة واضحة عن أوضاعها المختلفة بما يمكنهم من التعامل معها بفاعلية. وأظهر الاستعراض أيضاً تفاوت الولاة فيما أبدوه من همة ونشاط في ممارسة أعمالهم تبعاً لحدة الصلاحيات المخولة لهم وبحسب تمايز شخصياتهم، علماً بأن الولاة جميعاً خضعوا لمؤثرات عديدة حدت من قدرتهم على التمتع بتلك الصلاحيات.

الهوامش

(١) لوريمر، ج. ج.، **دليل الخليج**، القسم الجغرافي، ترجمة ونشر ديوان أمير قطر، الدوحة، د.ت.، ج٣، ص ١٠٣٦.

(٢) عباس العزاوي، **تاريخ العراق بين احتلالين**، بغداد، ١٩٥٦، ج٨، ص ٥٠.

(٣) جميل موسى النجار، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد من عهد مدحت باشا إلى نهاية الحكم العثماني ١٨٦٩-١٩١٧، ط٢، بغداد، ٢٠٠١، ص ص ١٢٦-١٢٧.

(٤) فيصل الأرحيم، **تطور العراق تحت حكم الاتحاديين ١٩٠٨-١٩١٤**، الموصل، ١٩٧٥، ص ص ٤٤-٤٨.

(٥) National Archives and Records Administration (Hereafter NARA), Washington D.C., RG 84, File No. 850, "Report on Political Condition in Mesopotamia with special reference to the Bagdad Railroad", by the Am. Con., Bag. , dated 17/1/19 13

(٦) علي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ بغداد، بغداد، ١٩٢٦، ص ٢٤٧.

(٧) IOR, R/15/5/7, Turkish Arabia ,Memo . for August 1908. ويناقض هذا ما ذكر عن مغادرته بغداد في جمادى الثانية ١٣٢٥ [تموز ١٩٠٧]. راجع: عماد عبد السلام رؤوف، إدارة العراق: الأسر الحاكمة ورجال الإدارة والقضاء في العراق في القرون المتأخرة، بغداد، ١٩٩٢، ص ٨٧.

(٨) العزاوي، **المصدر نفسه**، ج٨، ص ١٥٦، ويؤيد ذلك أيضاً إداري معاصر، راجع: عبد العزيز القصاب، **من ذكرياتي**، بيروت، ١٩٦٢، ص ص ٦١-٦٢.

(٩) Ibid. IOR, R/15/5/7

(١٠) الأعظمي،، **المصدر نفسه**، ص ٤٦٧، ومحمد خليل الجابري، **الحركة القومية العربية في العراق بين ١٩٠٨-١٩١٤**، رسالة دكتوراه قدمت إلى كلية الآداب، جامعة بغداد في شباط ١٩٨٠، ص ٥٢. ونجدة فتحي صفوة، **خواطر وأحاديث في التاريخ، بغداد**، ١٩٨٣، ص ١٧.

(١١)محمود بن سلطان الشاوي، **ديل مطالع السعود**، تحقيق عبد الجبار العمر، في "آفاق عربية، السنة ٦، شباط- آذار ١٩٨١، ص ٨٦".

(١٢)ستيفن همسلي لونغرك، **العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠**، ترجمة سليم التكريتي، بغداد، ١٩٨٨، ج١، ص ٩٢.

(١٣)الجابري، المرجع نفسه، ص ٤٦٧.

(١٤) القصاب، المصدر نفسه، ص ٦٢.

(١٥) IOR, ***R/15/5/7***, Turkish Arabia, Memo. For December 1908.

(١٦) القصاب، المصدر نفسه، ص ٦٣.

(١٧)الشاوي، المصدر نفسه، ص ص ٨٦-٨٧.

(١٨)العزاوي، المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(١٩)رؤوف، المرجع نفسه، ص ٨٧.

(٢٠)علي البازركان، **فصول من تاريخ التربية والتعليم في العراق**، بغداد، ١٩٩٣، ص ٤٦.

(٢١) العزاوي، المصدر نفسه، ص ص ١٨٢-١٨٤، وتشير رواية مفردة إلى أن محمد شوكت باشا عين لولاية بغداد سنة ١٣٢٤، ودامت ولايته ثمانية شهور وستة عشر يوماً، راجع الشاوي: المصدر نفسه، ص ٨٨.

(٢٢) IOR , L/P&S/188 , Summary of events in Turkish Iraq during the months of April &May 1910.

(٢٣) IOR, L/P&S/10/188., No. 843 , Mr. Marling to Sir Edward Grey, dated 23/11/1910.

(٢٤)العزاوي، المصدر نفسه، ج٨، ص ٢٠٧.

(٢٥) النجار، المرجع نفسه، ص ١٦٢.

(٢٦) NARA , RG 84, No. 13, Vali of Bagdad to Am. Con. , Bag. , dated 28/8/1911.

(٢٧) IOR, L/P&S/10 /212, Summary of events in Turkish Iraq during the month of August 1912.

(٢٨) NARA RG 84, No. 3891 Vali of Bagdad to Am. Con. Bag. dated 3/8/1912

(٢٩) IOR, L/P&S/1O /212, Summary of events in Turkish Iraq during the month of August 1912.

(٣٠) NARA RG 84 No. M.C. 261 Am. Con. Bag. to Am. Amb. Const. dated 4/8/19 12.

(٣١) NARA RG 84 ,No 4118, Acting Vali of Bagdad to Am. Con. Bag. dated 17/8/1912.

(٣٢) لونغريك، المرجع نفسه، ج١، ص ٩٢.

(٣٣) NARA RG 84 ,No. 5872 Vali of Bagdad to Am. Con. Bag. dated 31/10/1328.

(٣٤) NARA , RG 84,FileNo. 800.1, No. M- 422,Am. Con. ,Bag. ,to Am. Amb, Const, dated 5/11/1912.

(٣٥) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish Iraq for November 1912.

(٣٦) IOR, L/IP&S/10/2 12, Summary of events in Turkish Iraq for January 1913.

(٣٧) IOR L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish Iraq for the month of February 1913.

(٣٨) IOR, L/P&S/10/2 12, Summary of events in Turkish Iraq for the month of May 1913.

(٣٩) NARA, RG 84, File No. 800 . 1 , Am. Con. , Bag., to Am., Amb., Const., dated 14/5/19 13.

(٤٠) NARA, RG 84, File No. 800. 1, Am. Con., Bag., to Am. Amb., Const., dated 17/5/1913.

(٤١) NARA,RG 84, File No. 800.1 ,Am. Con. ,Bag., to Am. Amb., Const., dated22/6/1913.

(٤٢) IOR, L/P&S/10/212 , Summary of events in Turkish Iraq during July 1913.

(٤٣) لونغريك، المرجع نفسه، ج١، ص ٩٢.

(٤٤) زعم أن ولاية حسين جلال بك في بغداد امتدت بين ١٩١٢ و١٩١٥. راجع: عبد العزيز سليمان نوار، المصالح البريطانية في أنهار العراق ١٩٠٠-١٩١٤، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٢٣٢.

(٤٥) NARA, RG 84, File No. 800, Am. Vice Con., Bag., to Am. Amb., Const., dated 27/11/1913.
(٤٦) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish Iraq during November & December 1913 .and January 1914.
(٤٧) Ibid.
(٤٨) NARA , RG 84 , File No. 800.1, Am. Vice Con. , Bag. ,to Am. Amb. Const., dated 4/2/1914.
(٤٩) ابراهيم خليل أحمد، تطور التعليم الوطني في العراق، ١٨٦٩-١٩٣٢، البصرة، ١٩٨٢، ث ٥٨.
(٥٠) النجار، المرجع نفسه، ص ١٦٨.
(٥١) القصاب، المصدر نفسه، ج١، ص ٦٣.
(٥٢) لونغريك، المرجع نفسه، ج١، ص ٩٣.
(٥٣) العزاوي، المصدر نفسه، ج٨، ص ١٨١.
(٥٤) رؤوف، المرجع نفسه، ص ١٩٩.
(٥٥) IOR,L/P&S/10/188,Summary... Apr. & May 1910.
(٥٦) IOR, L/P&S/10/188, Summary of events in Turkish Iraq during the month of June 1910.
(٥٧) IOR, L/P&S/10/188, Summary of events in Turkish Iraq during the month of July 1910.
(٥٨) لونغريك، المرجع نفسه، ج١، ص ٩١.
(٥٩) IOR, L/P&S/l0/212, Summary of events in Turkish Iraq for October 1912.
(٦٠) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish Iraq for December 1912.
(٦١) IOR, L/P&S/10/212, Summary ... Feb. 1913.
(٦٢) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish Iraq during August 1913.
(٦٣) IOR , L/P&S/10/212 , Summary of events in Turkish Iraq for the months of June and July 1914.
(٦٤) IOR, L/P&S/l0/212, Summary ... Nov. & Dec. 1913 and Jan. 1914.
(٦٥) IOR, L/P&S/10/212, Summary ... June & July 1914.

(٦٦)ابن الغملاس، **ولاة البصرة ومتسلموها**، بغداد، ١٩٦٢، ص ص ٨٣-٨٤، وتزعم رواية أنه أعلن عصيانه على الحكومة الدستورية ثم فر من البصرة على أثر وقوف الشيخ خزعل شيخ المحمرة ضده، راجع: أنعام مهدي السليمان، **حكم الشيخ خزعل في الأحواز ١٨٩٧-١٩٢٥**، بغداد ١٩٨٥، ص ١٠٣. وذكر أيضاً أنه فر على ظهر باخرة مبحرة إلى الهند خوفاً من عقاب الاتحاديين دون تحديد للجناية التي خاف من تلقيه العقاب عليها. راجع: سليمان فيضي، في غمرة النضال، بغداد، ١٩٥٢، ص ٦١. وحول موقفه المؤيد للانقلاب الدستوري في بداية الأمر على الأقل، راجع: الجابري، المرجع نفسه، ص ٦٣.

(٦٧)رؤوف، المرجع نفسه، ص ٤٠٩.

(٦٨)PRO, FO 424/219 ,No. 17, Con. Crow to Sir G. Lowther, dated 10/3/1909. وروي خطأ أن الmurdini هو أول والٍ عينته الحكومة الدستورية في البصرة، راجع: الجابري، المرجع نفسه، ص ٦٣.

(٦٩) خالد السعدون، **الأوضاع القبلية في البصرة ١٩٠٨-١٩١٨**، الكويت، ١٩٨٨، ص ص ٨٥-٨٦.

(٧٠)فيضي، المصدر نفسه، ص ٧٣.

(٧١)ابن الغملاس، المصدر نفسه، ص ص ٨٥-٨٦.

(٧٢)فيضي، المصدر نفسه، ص ص ٧٦-٧٩، وتزعم رواية أن مدة ولايته كانت أربعة أشهر فقط رغم أنها حددت تاريخ تعيينه في تشرين ثان (نوفمبر) ١٩٠٩، وتاريخ تنحيته في أيلول (سبتمبر) ١٩١٠. راجع: مصطفى عبد القادر النجار، **التاريخ القومي لإمارة المحمرة العربية**، بغداد، ١٩٨٢، ص ص ٣٩-٤٠.

(٧٣)IOR , P415/5/25 , No. 1000 of 1910 , The Political Resident in Turkish Arabia, Bag. , to the Political Agent, Kuwait, dated 15/11/1910.

(٧٤)وردت أسماؤهم في رؤوف، المرجع نفسه، ص ٤٠٩.

(٧٥)السعدون، المرجع نفسه، ص ص ٩٦-٩٧.

(٧٦)رؤوف، المرجع نفسه، ص ٤٠٩.

(٧٧) IOR, LIP&S/10/212 , Summary of events in Turkish Iraq for the month of December 1911.

(٧٨) IOR, L/P&S/10/2 12, Summary ... July 1912.

(٧٩)رؤوف، المرجع نفسه، ص ٤٠٩.

(٨٠) IOR,L/P&S/10/212,Summary... Dec. 1912.

(٨١) NARA , RG 84 , File No. 800.1 , Am. Con. , Bag. , to Am. Amb. , Const. , dated 1/5/1913.

(٨٢)السعدون، المرجع نفسه، ص ٢١٢.

(٨٣) IOR, L/P&S/10/212, Summary ... Feb. & March 1914.

(٨٤)السعدون، المرجع نفسه، ص ٢١٢.

(٨٥)ابن الغملاس، المصدر نفسه، ص ٨٤.

(٨٦) IOR,L/P&S/10/212, Summary ... Nov. 1912 وللتعرف على صورة أجلى عن مراسيم قراءة الفرمان، راجع: عبد القادر باش أعيان، **البصرة في أدوارها التاريخية**، بغداد، ١٩٦١، ص ص ٦٦-٦٩.

(٨٧) IOR,L/7P&S/l0/212,Summary... Feb. & Mar. 1914.

(٨٨)جميل النجار، المرجع نفسه، ص ١٥٢.

(٨٩) IOR,L/P&S/10/188,Summary... Apr. & May 1910.

(٩٠) NARA , RG 84 , File No. 800.1 ,Am. Con. , Bag. ,to Am. Amb., const., dated 16/11/1912.

(٩١) IOR,L/P&S/10/212,Nov.&Dec. 1913 and Jan. 1914.

(٩٢) IOR, L/P&S/10/188, Summary ... Apr. & May 1910.

(٩٣) NARA, RG 84, File No. 800 . 1 ... 16/11/1912

(٩٤) IOR ,L /P & S/10/212, Summary... Dec.1911.

(٩٥) IOR ,L / P& S/10/212, Summary... Dec. 1912.

(٩٦) NARA, RG 84 , No. M.C.246 , Am. Con. , Bag., to Am. Amb., Const., dated 8/7/1912.

(٩٧) IOR, LkP&S/10/2 12, Summary of events in Turkish Iraq during June 1913.

(٩٨) جميل النجار، المرجع نفسه، ص ٩٨.

(٩٩) IOR,LIP&S/10/188, Summary ... June 1910.

(١٠٠) IOR, LJP&S1101212 , Summary of events in Turkish Iraq for the month of November 1911.

(١٠١) IOR, LJP&S/I0/212, Summary of events in Turkish Iraq for the month of January 1911.

(١٠٢) IOR, L/P&S/10/212 , Summary of events in Turkish Iraq for the month of May 1912 .

(١٠٣) IOR,L/P&5/10/212,Summary...NOv.1912.

(١٠٤) IOR, LJP&51101212,Summary Feb &Mar. 1914.

(١٠٥) السعدون، المرجع نفسه، ص ١٣١ وص ٢٠٥.

(١٠٦) IOR,L/P&S1101212,Sumrnary Dec.1911.

(١٠٧) IOR,L/P&S/10/188,Summary Apr &May 1910.

(١٠٨) IOR,L/P&S/10/188,Summary June1910.

(١٠٩) IOR,L/P&S/10/188, Summary ... July1910.

(١١٠) NARA, RG 84, File No. 800.1 ,Am. Con. ,Bag. ,to Am. Amb., Const., dated 16/11/1912.

(١١١) IOR,L/P&S/10/212, Summary ... Dec. 1912.

(١١٢) IOR,L/P&S/10/212, Summary Aug. 1912.

(١١٣) IOR,LIP&S/10/188,Summary... June & July 1910.

(١١٤) IOR, LIP&S/10/212 ,Aug. 1912.

(١١٥) جميل النجار، المرجع نفسه، ص ص ١٦٠-١٦١.

(١١٦) القصاب، المصدر نفسه، ص ٨٦ وص ٩٧.

(١١٧) IOR, L/P&S/10/212, Summary ... July 1913.

(١١٨) IOR, L/P&S/101212, Summary of events in Turkish Iraq during September 1913.

(١١٩) IOR,L/P&S/10/188,Summary...June I9I0.

(١٢٠) IOR, L/P&S/10/212, Summary of events in Turkish Iraq for the month of May 1912.

(١٢١) IOR, L/P&S/10/2 12, Summary ... Aug. 1912.

(١٢٢) جميل النجار، المرجع نفسه، ص ١٧٠.

(١٢٣) العزاوي، المصدر نفسه، ج٨، ص ١٢٣.

(١٢٤) IOR,L/P&S/10/188,Sumrnary ... Apr. & May 1910

(١٢٥) NARA, R084,FileNo. 800,Am. ,Con. ,Bag. ,to Am. Amb., Const.,˙dated16/11/1912.

(١٢٦) IOR, L/P&S/10/188 , Summary ... July 1910.

(١٢٧) للتعرف على مدى تلك التجاوزات راجع: خالد السعدون، **جمعية الاتحاد والترقي، تنظيمها وأنشطتها في العراق**، ١٩٠٨-١٩١٣، في "المجلة التاريخية المغاربية، السنة ٢٦، العدد ٩٣ و ٩٤ أيار ١٩٩٩، ص ص ٨٣-٩٠.

(١٢٨) IOR,L/P&S/10/188, Summary ... July 1910 .

(١٢٩) العزاوي، المصدر نفسه، ج٨، ص ١٨٠.

(١٣٠) السعدون، الأوضاع القبلية، ص ص ٨٥-٨٦.

(١٣١) IOR,LJP&S/10/212,Summary... Aug.1913.

(١٣٢) IOR, L/P&S/10/212 , Summary ... Nov. & Dec. 1913 and Jan. 1914.

(١٣٣) IOR, L/P&S/l0/212, Summary of events in Turkish Iraq for the month of April 1913.

(١٣٤) IOR,L/IP&S/10/212,Suinmary... Aug. 1912 .

(١٣٥) IOR,L/P&S/10/188 ,Summary... Apr. &May 1910 .

(١٣٦) IOR,R/15/5125,No. 1000 of 1910, ... 15/11/1910 .

(١٣٧) IOR, L/P&S/10/188 ,No. 54, Con. Crow to Sir G . Lowther, dated 16/9/1910 .

(١٣٨) لونغريك، المرجع نفسه، ج١، ص ٩٠.

(١٣٩) IOR,L/P&S/10/212,Summary June1913 .

(١٤٠) IOR,L/P&S/10/212,Summary July1913 .

(١٤١) IOR,L/P&S/10/212,Summary July1913 .

(١٤٢) IOR, L/P&S/10/2 12, Summary of events in Turkish Iraq during April 1914.

(١٤٣) NARA , RG 84 ,No. 291 , Am. , Con. Agent, Basrah, to Am. Con. , Bag. , dated 10/2/1909.

(١٤٤) NARA,RG84,No. 12,Am. Con. ,Bag. ,toAm. Amb., Const. ,dated 8/2/1910.

(١٤٥) IOR,L/P&S/10/212,Sunimary...Dec. 1912.

(١٤٦) IOR,L/P&S/10/212,Summary...May1913 .

(١٤٧) NARA, RG 84, No. M. C. 327, Am. Con., Bag., to Am. Amb., Const., dated 6/9/1912.

(١٤٨) IOR,L/P&S/10/212,Summary ... Dec. 1911.
(١٤٩) NARA,RG84,FileNo. 800.1 ,Am. Con., Bag., toAm. Amb., Const. ,dated 14/5/1913.
(١٥٠) IOR,L/P&S/10/188,Summary...Apr. & May 1910.
(١٥١) IOR,L/P&S/10/212,Summary ... July1913.
(١٥٢) IOR, L/P&S/10/212 ,Dec. & Nov. 1913 and Jan. 1914.
(١٥٣) NARA, RG 84, File No. 800, Am. Vice Con., Bag., to Am. Amb., Const., dated 18/3/1914.
(١٥٤) NARA, RG 84 ,No.23, Vali of Bag. to Am. Con., Bag., dated 31/10/1328.
(١٥٥) IOR,LIP&S/10/188,Summary... June1910.
(١٥٦) خالد السعدون، **أحداث في تاريخ الخليج العربي**، الاسـكندرية، ٢٠٠١، ص ص ٣٧٥- ٣٧٦.
(١٥٧) NARA, RG 84 , File No. 800 , Am. Con., Bag., to Am. Amb., Const., Dated 8/10/1912.
(١٥٨) IOR,L/P&S/10/212,Summary...Feb. 1913.
(١٥٩) IOR, L/P&S/10/212, Summary ... Apr. 1913.
(١٦٠) Ibid
(١٦١) IOR,L/P&Ş/10/212,Summary ... May 1913.
(١٦٢) IOR,L/P&S/10/188~Suinmary...July 1910
(١٦٣) لونغريك، المرجع نفسه، ج١، ص ٩٣.
(١٦٤) العزاوي، المصدر نفسه، ج٨، ص ص ١٩٤- ١٩٥.
(١٦٥) IOR,L/P&S/10/212,Summary Dec 1912.
(١٦٦) IOR,L/P&S/10/212,Summary... Aug. 1912.
(١٦٧) NARA, RG 84 , No. 3891 , Acting Vali of Bag. to Am. Con. , Bag. , dated 23/7/1328.
(١٦٨) جميل النجار، المرجع نفسه، ص ١٦٦.
(١٦٩) IOR,L/P&SI1O/212,Sumrnary Aug 1912.
(١٧٠) IOR,L/P&S/10/212,Summary.Nov1912; Summary.... Mar 1913.
(١٧١) IOR,L/P&S/10/212,Summary... Sep. 1912.
(١٧٢) NARA , RG 84 , File No. 800 , Am. Vice Con. , Bag. ,toAm. Amb., Const., dated 11/1/1914
(١٧٣) IOR, L/P&S/10/212, Summary ... Nov. & Dec. 1913 and Jan. 1914.
(١٧٤) IOR,L/P&S/10/212, Summary ... Oct.1913.

دور كلية غردون ومعهد بخت الرضا

في تعليم غير السودانيين

د. محاسن عبد القادر حاج الصافي

قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الخرطوم- السودان

يركز هذا البحث على دراسة الدور الذي أدّته المؤسسات التعليمية السودانية لاسيما كلية غردون[١]، ومعهد بخت الرضا[٢]، في تعليم غير السودانيين في مستعمرات عدن وحضرموت والصومال.

في مقال كتبه المرحوم مكاوي سليمان أكرت ضابط حكومة محلية سابقاً -إلى السكرتير الإداري بالخرطوم في ٢٤ سبتمبر ١٩٤٣م، نشرته صحف "السودان ستار" و"النيل" و"صوت السودان" بعنوان The Sudan: A Good Neighbour[٣]، تحدّث فيه عن إسهام السودان ومساعدته لجيرانه في عدن وحضرموت والصومال في مجال التعليم والثقافة.

رسمت هذه الدول الثلاث سياساتها التعليمية على النمط السوداني، وكان هذا أمراً ضرورياً في المراحل الأولى من بنائها. وجاء العون السوداني متمثلاً في إرسال معلمين ونظّار مدارس. ومن ناحية أخرى كان لا بدّ من الموازنة بين ضرورة تطوير وتنمية السياسة التعليمية داخل السودان وبين حاجة تلك الدول لمعلمين منه، وكان لزاماً أيضاً البحث عن الأماكن المتاحة في المدارس السودانية لاستقبال طلبة من الخارج. ومع ضعف إمكانات السودان فإنه استطاع تثبيتها في معظم الأحيان، لاسيما في مجال توفير معلمي اللغة العربية والإنكليزية، الأمر الذي كان محل تقدير وعرفان.

أنشئت في عدن في أبريل من عام ١٩٣٦م، كلية أبناء السلاطين والرؤساء والقبال – التي عرفت بمدارس جبل حديد[٤]، اختير لها مدرس سوداني هو المرحوم عبد القادر أوكير[٥]، من شرق السودان– الذي أعير لمدة خمس سنوات ناظراً للكلية، وكسب سمعة طيبة ولما عاد للسودان عام ١٩٤٠م، خلفه في هذا المنصب الأستاذ السوداني حسن فريجون، كذلك كان في عدن المدرس السوداني أحمد محمد نور، الذي أشار الدكتور نزار غانم صاحب كتاب "**جسر الوجدان**" إلى نشره عدداً من المقالات في مجلة "**الأفكار**". كما أشار إليه أيضاً رائد الصحافة العدنية، المرحوم محمد علي لقمان المحامي، في مذكراته عن رحلته لأرض العواذل عام ١٩٤٥م. أكمل أحمد محمد نور تعليمه بكلية غردون وقضى عاماً فوق الثانوي (تدريب معلمين)، ثم عيّن ناظراً لمدرسة بورتسودان الوسطى وعمل في وظيفة مساعد ناظر بكلية عدن.

ومن الذين عملوا بالتدريس من السوادنيين بعدن، الأستاذ والرياضي مبارك فضل الله، الذي أسهم بجانب التدريس في الحركة الوطنية لتحرير جنوب اليمن من المستعمر الإنكليزي[٦]، وأسهم أيضاً في التدريس المدرس مصطفى محمد فضل، وفي لحج يذكر عبد الرحمن جرجره في كتابه: "**أرضنا الطيبة هذا الجنوب**"، وجود المعلمين بأعداد

قليلة. وفي الخمسينيات استقر المدرس عبد الرحيم الباهي وزوجته وعملا طويلاً في سلك التدريس في شمال اليمن (المملكة المتوكلية اليمنية)، وكانت مستقلة عن النفوذ البريطاني.

عندما عقد الإنكليز عام ١٩٣٧م، معاهدة الاستشارة مع دولتي حضرموت: السلطة القعيطية وعاصمتها المكلا، والسلطة الكثيرية وعاصمتها سيؤن، اللتان تتبعان لمستعمرة عدن -أرادوا إدخال التعليم الحديث في سياسة الاستعانة بأساليب المؤسسات الحديثة. عليه قام المستر اتمبرو، مدير مصلحة المعارف بعدن ومعه الأستاذ عبد القادر أوكير، المدرس بمدرسة أبناء السلاطين في عدن آنذاك، بزيارة إلى حضرموت. وكانا يعتقدان أن هناك تشابهاً بين المحميات المجاورة ومستعمرة عدن. ولكنهما وجدا أن ظروف حضرموت قاسية ولا تساعد على نشر التعليم الحديث فطلب المستشار البريطاني إرسال خبير تربوي ليضع خطة لتطوير التعليم في حضرموت لمدة عشر سنوات. ثم الاتصال بحكومة السودان التي أرسلت لهم المستر جريفث عميد معهد بخت الرضا. وصل المستر جريفث إلى حضرموت عام ١٩٣٨م، ووضع تقريراً عن واقع التعليم هناك(٧). حدّد التقرير أهداف التعليم في حضرموت التي تتمثل في سدّ حاجة البلاد من الموظفين الحكوميين عن طريق تعليم أعلى من المرحلة الأولية ويكون مجانياً، وإلى إتاحة الفرصة لقلة مختارة لتتلقى تعليماً أعلى لتشغل، فيما بعد، الوظائف المرموقة، ،إلى خلق نوع من الاستعداد للاهتمام بالزراعة عن طريق مدارس ريفية. ومن أجل تحقيق تلك الأهداف تقرر إدخال نظام التعليم المتّبع في السودان للأسباب الآتية:

أولاً: ضرورة الاعتماد على نظام تعليمي في بلد عربي مع تعديله عند الحاجة.

ثانياً: وجود تشابه كبير بين السودان وحضرموت من ناحيتي الطقس والتطوّر.

ثالثاً: استطاع السودان خلق نظام تعليمي متطور ولديه وإمكانات لتدريب المعلمين.

رابعاً: تتناسب الكتب الدراسية السودانية مع الواقع الريفي الحضرمي(٨).

رشّح المستر جريفث، الشيخ القدال سعيد القدال للذهاب إلى حضرموت لتنفيذ تلك المهمة، فوصلها عام ١٩٣٩م، وعمل مساعداً للمستشار للشؤون الثقافية، مما جعله مسؤولاً عن التعليم في كل الدولة القعيطية والدولة الكثيرية. ثم عيّنه سلطان حضرموت ناظراً للمعارف بالدولة القعيطية. كانت مهمة الشيخ القدال، الذي كان معلماً في الدرجة (A)، هي إعادة تنظيم مدارس المكلاّ ولاسيما إنشاء مدارس ثانوية صغرى وتدريب المعلمين في سيؤن وغيل باوزير.

لحقت بالشيخ القدال كوكبة من المدرسين السودانيين ورد ذكرهم في الوثائق البريطانية أمثال: المرحوم حسين خوجلي، الذي عمل مديراً لمدرسة غيل باوزير الوسطى بحضرموت، وكان ناظراً بمدرسة رفاعة الوسطى بالسودان. كما عمل مدرساً بكلية غردون لمرحلة ما بعد الثانوي.

أُعير أيضاً الشيخ عوض عثمان مكي من خريجي معهد بخت الرضا، في الدرجة الثانية –أُعير إلى حضرموت المكلاّ– وهو صهر الشيخ القدال يعود الفضل للشيخ عوض عثمان مع الشيخ القدال في إدخال المسرح المدرسي وإصدار صحيفة الحائط الطلابية(٩). كما أُعير أيضاً المرحوم محجوب زيادة حمور وسيد أحمد صادق، مدرساً في غيل باوزير، وقد أسهم إلى جانب محجوب زيادة في النشاط المسرحي المدرسي: أُعير أيضاً الشيخ أيوب سعيد القدال، الذي تمّ ترشيحه بمعية الشيخ حسين أفندي خوجلي للعمل بمدرسة غيل باوزير، وهو من خريجي بخت الرضا، وله ملكات فنية وموسيقية. ومن الذين عملوا في حضرموت أيضاً المرحوم الدكتور سيد أحمد نقد الله –عمل خلال الفترة ١٩٥١م –١٩٥٣م، والمرحوم الأديب الدبلوماسي جمال محمد

أحمد، كما وفد إلى حضرموت أيضاً أمين عبد الماجد، الذي عمل ناظراً للمعارف في سيئون . وكذلك الأستاذ عمر البنا، والشاعر الراحل عبد القادر ابراهيم تلودي.

بالإضافة إلى إرسال المعلمين لعدن وحضرموت فقد استقبل السودان طلاباً من تلك البلاد بغرض تدريبهم ليصبحوا معلمين في المراحل الأولية والوسطى(١٠). وجاءت أول دفعة إلى السودان في عام ١٩٣٦م، وأرسلت عدن أحد الطلاب للتدريب بمعهد بخت الرضا. وفي عام ١٩٤٣م، ضمت كلية غردون ستة طلاب من عدن وحضرموت تخرج منهم اثنان عام ١٩٤٥م، وكذلك قُبِل اثنان من الطلاب في المرحلة الوسطى في الأربعينيات.

ومن الطلاب الذين رشّحوا من عدن للقبول لكلية غردون، ناصر ابن الشيخ سيف بن علي البوعلي، وذلك بمقتضى خطاب من السكرتير الإداري بعدن إلى السكرتير الإداري بالخرطوم في ١٩٤١/٢/١م. ويشير خطاب آخر من الحاكم العام بعدن في يوليو عام ١٩٤٧م، إلى أن اثنين من العدنيين هما الشاعر المرحوم نجيب جعفر أمان وعلي محمد صالح وهما معلمان بكلية عدن. كانا قد تلقيا تعليمهما في معهد بخت الرضا عام ١٩٣٥م، والتحقا بكلية عدن منذ عام ١٩٣٩م، وفي عام ١٩٤٦م. كانت البعثات الدراسية بالسودان من جنوب اليمن وتشمل الحضارمة والعدنيين وأبناء المحميات، وكان عددهم ثلاثين طالباً. أما الطلاب من حضرموت فقد التحق منهم أربعة بمعهد بخت الرضا في الأربعينيات ليتم تدريبهم ليصبحوا معلمين في المراحل الأولية. قُبل كذلك اثنان من الطلاب خلال الفترة ١٩٣٩م-١٩٤٠م، بكلية غردون لمدة أربع سنوات، وتقرر أن يقبلوا عام ١٩٤٧م، في المدارس العليا لمدة ثلاث سنوات، ويذكر الدكتور محمد عبد القادر بافقيه أن أهم من خدم حركة التعليم في حضرموت هم خريجو بخت الرضا، الذين جاؤوا من المكلا وتعلموا، فأصبح كل واحد منهم عالماً

مستقلاً، من الموهبة والمزاج، أمثال مديحج – القحوم –حورة– أحمد سعيد، اليماني – حدينى، ابن سلم وآخرين[١١].

كانت المنح التي توفر للطلاب من عدن وجنوب الجزيرة تأتي من المجلس البريطاني الذي وفّر فرصاً للتدريب بمعهد الرضا وكلية غردون، كما وفّرت حكومة حضرموت فرصاً للتدريب ببخت الرضا غير أنه وكما يبدو لم تتحمّس الإدارة البريطانية لترشيح الطلاب من جهات غير رسمية مثل الطلبات التي أرسلها محمد علي لقمان المحامي ورئيس فرع نادي الإصلاح العربي الإسلامي وأخرى من الأديب محمد سعيد الأصبخ رئيس فرع آخر لنفس النادي في عدن. أرسلت هذه الطلبات للزعيم السياسي والديني السوداني السيد عبد الرحمن المهدي ولكنها لم تكلّل بالنجاح[١٢].

تشير التقارير في الوثائق السودانية إلى أن السلطات في جنوب الجزيرة العربية تواجه صعوبة في إقناع الطلاب بالسفر خارج بلادهم لتلقي التعليم نسبة لتردّد أسرهم في السماح لهم بالسفر غير أنه يتضح من التقارير أن تلك المجموعة التي أسعدها الحظ باللحاق بمعهد بخت الرضا قد أظهرت مستوى جيداً من الأداء.

أسهم الشيخ القدال في تطوير تعليم المرأة وفي هذا الصدد كتب الشيخ عبد الله الناخبي وهو المؤسس الأول لتعليم البنات في حضرموت يقول:

"في عام ١٩٣٥م، بدأت في تعليم كريمتي وزوجتي بنفس النظام الذي تسير عليه المدارس في ذلك الوقت. وبكثير من العناية وبمساعدة المدرسين وتشجيعهم وصلت بهما إلى إكمال المقررات التي كان مفروضة على مدارس البنين وخوفاً من ضياع هذا الجهد جلبت عدداً من الفتيات اللاتي لنا بهن صلة القربى أو الجوار، وكلّفت كريمتي وزوجتي بتعليمهن، وكانت الفكرة مستنكرة ومكروهة من الرأي العام وحوربت من الجامدين، ولكنها استمرت، وبعد مضي سنوات كان عدد الطالبات يربو

على التسعين طالبة. وتشاء الأقدار أن يصل الشيخ القدال من السودان لوضع الأنظمة الملائمة للمدارس في حضرموت... شاء الله أن يقوم بتشجيع هذه المدرسة وإسداء المعونة لها شيئاً فشيئاً حتى تم إلحاقها بمدارس الحكومة(١٣).

بالإضافة إلى إرسال المعلمين واستقبال الطلاب من عدن وحضرموت للتدريب داخل هذه البلاد يتضح من التقرير السنوي لمصلحة المعارف بالمكلا للعامين ١٩٤٥/١٩٤٦م، والذي اختطه الشيخ القدال بوصفه مديراً للتعليم هناك إلى اعتماد مدارس تلك البلاد على الكتب الدراسية والمراجع السودانية ولاسيما إصدارات بخت الرضا للمراحل الابتدائية والمتوسطة في الرياضيات والجغرافية والتاريخ مع التعديل حتى تتلاءم مع أوضاع تلك البلاد.

تشير الوثائق أيضاً إلى حرص مصلحة المعارف في السودان على المستوى الجيد من الأداء حفاظاً على سمعة التعليم في السودان. وعليه يتم اختيار المعلمين المعارين في دقة تامة ولم يُرْسَل إلا المعلم ذو الكفاءة العالية ورُفضت طلبات من لم تثبت كفاءتهم في مجال التدريس، كما تمت دراسة خلفياتهم الأسرية وعلاقاتهم وسلوكهم العام.

من ناحية أخرى حرصت المصلحة على وصول تقارير الأداء بصورة منتظمة عن هؤلاء المعارين، ويقف التقرير الذي أرسله عمر محمد باحشوان، مساعد المشرف على التعليم بمكتب المكلا إلى السكرتير الإداري بالخرطوم حول أداء الشيخ عوض عثمان مكي خير شاهد على ذلك. جاء في ذلك التقرير أن الشيخ عوض عثمان يدرّس المرحلة الوسطى مواد الفيزياء والرياضيات للمستويات الأعلى ويشهد له بالكفاءة وحرصه على تنمية قدرات الطلاب من خلال تكوين جمعيات أدبية ساعدت على رفع مستواهم، كما أسهم الشيخ عوض أيضاً في وضع عدد من المقررات التي كانت تدرّس في مدارس المكلا.

اشتهر كذلك الشيخ القدال "سعيد القدال" بالسمعة الطيبة والأداء المتميز، وفي عام ١٩٥٠م، قام المستر جريفث بزيارة إلى حضرموت بدعوة من المستشار البريطاني ليقوم بتقويم ما تم إنجازه من الخطة التي وضعها عام ١٩٣٨م، ومدى نجاح الشيخ القدال في تنفيذها، فكتب المستر جريفث قائلاً:

"لقد تم تقدم حقيقي خلال الاثنتي عشرة سنة الماضية. وإنه لمن حق منطقة القعيطي ومدير تعليمها الكفء الشيخ القدال أن يفخرا بما أحرزاه(١٤).

تحدث عنه كذلك المستر أنجرامس والمستر بوستيد البريطاني في تقريره السنوي عام ١٩٥١م، ولفت النظر إلى إنجاز هام للشيخ القدال حيث استطاع أن يهيّئ لإدارة المعارف مديراً حضرمياً وفريقاً من المدرسين والمديرين للمدارس الابتدائية من الحضارمة ومعظم هؤلاء كانوا من تلاميذه الذين أشرف عليهم. وكتب حضرمي – وهو الأستاذ محمد عبد القادر بامطرف يقول:

"ولا يفوتني أن انوّه بما للقطر الشقيق السودان من فضل على النشاط التربوي في حضرموت. فما من فرع من فروع الثقافة الحديثة في البلاد الحضرمية إلا ونجد فيه للشيخ القدال اليد الطولى في تأسيسه ورعايته، إن التنويه بخدمات هذا الشيخ الفاضل وخدمات صحبه من إخواننا السودانيين في حقل التربية والتعليم ذمة في عنق كل حضرمي يعترف بالفضل لذويه"(١٥).

في عام ١٩٤٤م، أنعم السلطان القعيطي على القدال بلقب باشا، ثم عيّنه بعد ذلك بسنوات، سكرتيراً للدولة، حتى رحل عن حضرموت، عائداً إلى السودان عام ١٩٥٨م.

دور المؤسسات التعليمية السودانية في تعليم الصوماليين:

كان التعليم في الصومال قبل استحداث النظم التعليمية الحديثة -دينياً- يهدف إلى نشر مبادئ الدين الإسلامي وكانت أهم مراكز الإشعاع الديني في الصومال هي مدينتي هرر ومقديشو. بدأ التعليم الديني يتطور تدريجياً على أيدي بعض المدرسين الصوماليين وبدأ هذا التطور قبل بداية التعليم الأكاديمي في عهد الاستعمار وتشير المصادر الصومالية إلى الدور الذي قام به المدرس السوداني خير الله إذ فتح أول مدرسة نموذجية في الصومال الشمالي في مدينة بربرا عام ١٨٧٢م، ومن تلامذته الأستاذ محمود أحمد علي الملقب بأب التعليم في الصومال، وشيخ علي ابراهيم[١٦].

تذكر فوزية يوسف آدم[١٧]، في مقال لها أن رحلة التعليم النظامي في الصومال الشمالي بدأت عام ١٩٣٨م، عندما تقابل المرحوم محمود أحمد علي ووالدها يوسف آدم في السودان حيث كان يدرس كلاهما. اتفقا على بدء التعليم بالمرحلة الأولية بصورة قاطعة رغماً عن المعارضة القوية من الصوماليين لنظام التعليم الغربي الأوروبي. وقبل ذلك فشلت المحاولة التي قام بها المبشرون الكاثوليك في عام ١٨٩١م، مما أدّى إلى إغلاق المدرسة التي قاموا بإنشائها -في عام ١٩١٠م.

بعد أن فشلت محاولة إنشاء مدرسة ابتدائية في بربرة بواسطة الحكومة الاستعمارية أصرّ الأستاذان محمود أحمد علي ويوسف آدم على إنشاء المدرسة الابتدائية الأولى في هرجيسا عام ١٩٤٢م. وبعد نجاح هذا المسعى طلب من الإدارة الاستعمارية أن يزور وزير التعليم الصومالي ثم أُرسل المستر Ball من قبل الإدارة البريطانية فوضع نظام التعليم في الصومال بفتح المزيد من المدارس الابتدائية والوسطى.

لم تتم إعارة مدرسين سودانيين للصومال آنذاك ولكن منذ عام ١٩١٩م، قُبل ستة طلاب صوماليين في كلية غردون. وفي الفترة ما بين الأعوام ١٩٢٠-١٩٣٨م، قُبل

بعض الطلاب الصوماليين في مدارس الخرطوم في المراحل الابتدائية والوسطى وفي كلية غردون، وقد تدرب هؤلاء الطلاب ككتبة وفي مجال القضاء والهندسة وضمت بخت الرضا أربعة طلاب صوماليين تلقوا تدريبهم هناك.

استفاد الصوماليون خاصة من المحمية الشمالية البريطانية من المؤسسات التعليمية التي أنشأها البريطانيون في السودان أثناء فترة الحكم الثنائي، وذلك تبعاً لوضعهم كذلك تحت الإدارة البريطانية. وصل إلى كلية غردون عام ١٩٢١م، محمود أحمد علي، ثم علي شيخ موسى وعمر الصومالي. وأصبح محمود أحمد علي أول مدير للتعليم في الصومال، ولقب بأب التعليم هناك الصومال كما أسلفنا، كما صار من روّاد الحركة الوطنية الصومالية.

في الأربعينيات جاءت دفعة أخرى ضمت عبد الرحمن أحمد علي، أول رئيس لجمهورية أرض الصومال التي انشقت عن جسم الدولة عام ١٩٩١م، في أعقاب الحرب الأهلية وانهيار الدولة في الصومال.

لم تتخلف المرأة الصومالية عن الركب حيث جاءت إلى السودان –طالبة للعلم– راقية حاج دو عالي وآمنة حاج آدم والتحقتا بكلية المعلمات بأم درمان في بداية الستينيات من القرن العشرين(١٨).

كذلك تشير وثائق وزارة الداخلية ومصلحة المعارف بالسودان إلى وجود عدد من الطلاب الصوماليين ببخت الرضا منهم محمد حاج حرسي ويوسف اسماعيل بشيري(١٩).

استفادت الصومال كذلك من المناهج السودانية وقررت المناهج بالمدارس الصومالية استناداً إلى المنهج السوداني. واحتاجت الصومال خاصة في أثناء فترة الإدارة العسكرية البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية إلى استعارة معلمين في اللغة العربية

من السودان بعد أن فشلت محاولات توفير معلمين من مناطق أخرى مثله زنجبار لعدم وجود الكادر المؤهل هناك.

ما ذكر أعلاه يشير بوضوح إلى دور كلية غردون ومعهد بخت الرضا في تدريب وتعليم الصوماليين منذ بدايات التعليم الحديث في الصومال. غير أننا نجد من الوثائق البريطانية ما يشير إلى محاول بعض الإداريين العسكريين البريطانيين في أثناء فترة الإدارة العسكرية البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية -بتعصبهم العرقي والديني محاولة الإساءة إلى أو التقليل من ذلك الدور. وفي مذكرة كتبها بعضهم أشاروا إلى أن الصوماليين لا ينتمون إلى قبائل البانتو، ولا هم من أصل أفريقي، ولكنهم من أصل حامي سامي حسب تقرير الجمعية الأنثربولوجية البريطانية بكل الذكاء والمقدرة التي تؤهلهم للرقي والتقدم التعليمي والاقتصادي كما هو عند الأعراق الأخرى الآسيوية في الهند والجزيرة العربية: واستناداً إلى هذا، يرى كاتبو المذكرة أن:

"كلية غردون في الخرطوم لا تقوى على استيعاب هذه الشعوب التي تحتاج إلى تعليم في شمال وشرق إفريقية. على كلٍ فإن موقعها لا يؤهلها لقبول العرب والمستعربين Near Arabs ليست فقط لسبب بعدها من خليج عدن ولكن لأن العرب والـ Near Arabs لا ينظرون إلى السوداني -ذي الشفاه الغليظة- سوى أنه عبد ولو كان ذكياً. الضباط الإداريون في السودان ككل لا يستطيعون فهم هذه المسألة- ولكن بفهم قليل للصومالي والعربي الجنوبي سوف يقتنعون قريباً بأن تعليماً إسلامياً خالصاً في قراهم أو في حضرموت هو في واقع الأمر أرفع من أي تعليم أوروبي وأرفع بكثير من أي تعليم يتلقونه من عناصر (races) عرفوهم فقط بأنهم عبيد يباعون في موانئ الجانب الغربي من الجزيرة العربية"(٢٠).

يتضح جلياً من هذه المذكرة روح الكراهية والحقد الاستعماري ودأبهم للتفرقة بين الشعوب ولو كانت في درجة من التقارب العرقي والثقافي والديني الذي يربط بين السودان والصومال عبر التاريخ.

جدير بالإشارة إلى أن هذه المذكرة كتبت خلال فترة الحرب العالمية الثانية – فترة النضال الوطني، وحركة التحرر من الاستعمار. ويعلم هؤلاء الإداريون البريطانيون خطورة وجود طلاب صوماليون في السودان في تلك الفترة التي اشتدت فيه حركة النضال الوطني في السودان ممثلة في مؤتمر الخريجين. ولذا سعوا لمنع إرسال المزيد من الطلاب الصوماليين للسودان، أو ربما لجهل منهم بتدفق هؤلاء الطلاب منذ وقت مبكر، كما أوضحنا أعلاه. وبالفعل أصبح محمود أحمد علي أحد رواد الحركة الوطنية ثم عبد الرحمن أحمد علي أول رئيس لجمهورية أرض الصومال.

وفي عام ١٩٤٩م، وفي أثناء زيارة السير توماس لويد لبربرة – ضمن زيارة كبار المسؤولين البريطانيين للمستعمرات، تقدم زعماء وشيوخ الصومال في مركز بربرة بمذكرة تتضمن مطالبهم فيما يتعلق بشؤونهم الإدارية المختلفة ومن ضمنها التعليم، وقد أشار السير توماس إلى أنه حتى ذلك التاريخ تم إيفاد أربعة من الصوماليين إلى المملكة المتحدة، وأحد عشر صومالياً للدراسة بالسودان، وأوضح أن تكلفة تعليم الطالب الصومالي في المملكة المتحدة تبلغ خمسمائة جنيه استرليني سنوياً آنذاك. لذا اقترح السير توماس إلحاقهم بالتعليم العالي في مناطق قريبة من الصومال حيث يمكن تأهيل عدد أكبر[٢١].

ومن الواضح أن السياسة البريطانية في القرن الإفريقي آنذاك كانت تهدف عموماً إلى إيقاف المدّ الناصري (المصري) والشيوعي في إفريقية المدارية[٢٢].

فالبريطانيون كانوا يتخوفون من أن المصريين (وبدرجة أقل الروس) يعتبرون القرن الإفريقي هدفاً مهماً ويبذلون جهداً كبيراً لمدّ نفوذهم هناك، كما أنهم يركزون على الصومال الجنوبي والمحمية خاصة – حيث أرسل المصريون خمسة وثمانين مدرساً مدفوعي الأجر ليعلِّموا في المدارس والمراكز الإسلامية في الصومال، وفي الوقت نفسه يقومون بتعليم المئات من الطلاب الصوماليين في مصر، ولمجابهة هذا الوضع انتهجت السياسة البريطانية النهج الآتي:

أولاً: دفع عون مالي للصومال يقدّر بـ ١٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني سنوياً في شكل عون اقتصادي بعد الاستقلال في ١٩٦٠م.

ثانياً: زيادة المعلومات والنشاط الثقافي البريطاني في القرن الإفريقي بمبلغ قدره ١٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني سنوياً.

ثالثاً: يرى القسم الإفريقي بوزارة المستعمرات زيادة النشاط البريطاني خاصة في يتعلق بالتعليم حيث خطت مصر خطوات واسعة وحققت نجاحاً كبيراً بصرف مبالغ أكبر بكثير مع إرسال معلمين بأعداد أكبر.

يعترف الإداريون البريطانيون بفشلهم في دعم الصومال في مجال التعليم والتدريب المهني والفني. وبما أن عدد الصوماليين المتعلمين الذين يتحدثون اللغة الإنكليزية كان قليلاً فإن إمكانية استفادتهم من الفرص التي يمكن أن تمنحها لهم بريطانية كان قليلاً أيضاً. لهذا السبب تم بحث إمكانية إرسال الطلاب الصوماليين لإيجاد فرص للتدريب في دول شرق إفريقية البريطانية، حيث فرص التعليم أكثر ملاءمة. وذكر أنه يمكن إرسال نحو مئة وستة وثلاثين طالباً إلى هناك، ولكن كانت هناك بعض المحاذير تقف أمام إرسال هؤلاء الطلاب لبعض دول شرق إفريقية خاصة كينية للأسباب الآتية:

أولاً: الخوف من التأثير السياسي على هؤلاء الطلاب، لذا كان لا بدّ من ترشيحهم بواسطة الحكومة الصومالية الاستعمارية، على الرغم من معارضة المجلس البريطاني لهذا الاقتراح.

ثانياً: الخوف من عودة الطلاب الصوماليين من شرق إفريقية وهم منحازون ضد بريطانية. كان هذا يشكل خطراً حقيقياً لا بدّ من مواجهته بقوة.

ثالثاً: لا بدّ من تجنيب إرسال الصوماليين لأي من بلدان شرق إفريقية والمناخ السياسي غير ملائم فيها. مثلاً تجنيب إرسالهم واحتكاكهم بالصوماليين الرحّل في المنطقة الشمالية الشرقية في الحدود الكينية الصومالية لأنهم ضد بريطانية بشكل مريع. أو إلى أي مكان تمارس فيه تفرقة عنصرية.

وقد ثبتت صحة هذا الزعم حيث أشار تقرير مترجم من الإيطالية في أبريل ١٩٥٩[٢٣]، في مقال Cyclostyled في مجلة طلابية "الطالب" وهي مجلة شهرية تصدرها منظمة الطلاب الصوماليين، بعنوان "ثورة الطلاب الصوماليين ضد التفرقة العنصرية". صدر المقال في مقديشو بتاريخ ١٩ أبريل ١٩٥٩م، ويشير المقال إلى أن اثنين من الطلاب حصلوا على منح من المجلس البريطاني للدراسة في المدرسة التجارية بموشى -تنجانيقا وهما علي عبد الله علي ونور مؤمن، وجدا أنه لا يمكن أن يقبلا بالظروف السكنية والمعيشية التي وفرت لهم. ففي شرق إفريقية البريطانية كانت تمارس تفرقة عنصرية واضحة، ويظهر ذلك في تقسيم المدارس لثلاث مجموعات: مدارس للأوروبيين، مدارس للآسيويين ومدارس للأفارقة. وتختلف معاملة الطلاب حسب التقسيمات المذكورة.

وُضِع الطالبان علي ونور مؤمن مع الطلاب الأفارقة، ولكنهما فُوجِئا بالأوضاع السيئة فيها من سكن وإعاشة لهذا بدأ الطالبان في الاحتجاج وساعدهما بعض أعضاء الجالية

الصومالية في موشي، ونقل أفراد الجالية الطالبين إلى أحد الفنادق حتى تقوم السلطات البريطانية بإعادتهم إلى بلادهم.

يبدو مما سلف أن مقترح إرسال الطلاب الصوماليين لدول شرق إفريقية قد اكتنفته بعض المشاكل والمحاذير التي تتلخص في أسباب سياسية وأخرى ترتبط بسياسة التفرقة العنصرية التي انتهجتها بعض تلك الدول، ومع حساسية بريطانية المفرطة من هيمنة الأثر المصري وانتشار المدّ الثقافي المصري في القرن الإفريقي، فقد عادت بريطانية للاهتمام بإرسال الطلاب الصوماليين للسودان. وفي برقية من الخارجية البريطانية إلى الخرطوم يرد ما نصه:

"نحن نناقش مع الولايات المتحدة والحكومة الإيطالية الطرق والوسائل التي يمكن عن طريقها وقف الأثر المصري في الصومال - والتأكيد على علاقة ودية مع الصومال بعد الاستقلال في ١٩٦٠م، من المقترحات التي ندرسها هو مدّ الصومال بعون تعليمي وثقافي، في هذا المجال أحرز المصريون تقدماً كبيراً وملحوظاً. في محادثات واشنطن بين بريطانية وأمريكة حول الموضوع اقترح الأمريكان أنه ربما وفرت حكومة السودان عوناً في مجال التعليم للصوماليين. وقد وجّه السفير الأمريكي بمناقشة الأمر معكم وهم على أشد الاهتمام أن يروا ممثلاً من حكومة السودان في مقديشو لو أمكن. وكذلك الفرنسيون طلبوا منا ما يمكن عمله لتشجيع السودان ليعمل باهتمام أكثير حيث سيكون أثره مستمراً... آمل أن يقدم السودانيون بعض المساعدة على الرغم من متطلباتهم داخل السودان والنقص في الأشخاص المؤهلين"[٢٤].

يتضح إذاً الدور الذي ظل السودان يؤديه في تعليم وتأهيل الصوماليين للأسباب آنفة الذكر. وقد امتدّ هذا الدور في فترة ما بعد استقلال البلدين طوال فترة الحكم الوطني[٢٥].

كما يتضح أيضاً عمق الروابط الثقافية بين اليمن والسودان والدور الكبير الذي أدّته كلية غردون ومعهد بخت الرضا في تدريب وتأهيل الطلاب والمعلمين في دول الجوار.

الحواشي

(١) أنشئت كلية غردون في عام ١٩٠٢م، وقام بافتتاحها اللورد كتشنر بنفسه وبدأت بها الدراسة في عام ١٩٠٣م، كان الغرض من إنشائها هو تمكين السودانيين في المشاركة في إدارة شؤون بلادهم، ثم خلق نوع من التعليم المهني ليساعد الحكومة البريطانية في إدارة شؤون السودان. وجاءت التسمية تخليداً لذكرى الجنرال غردون الذي اغتاله المهديون في عام ١٨٨٥م، يتم القبول للكلية من المدارس الأولية، كانت مدة الدراسة في كلية غردون خمس سنوات، ويدرس القضاة والمعلمون منهجاً مشتركاً في السنوات الثلاث الأولى يشمل دراسات دينية ونحواً وقراءة وإنشاء وإملاء ودروساً في الجبر والحساب والتاريخ والجغرافية واللغة الإنكليزية ويقسم الطلاب بعد ذلك إلى قسمين حيث يركز القضاة على الدراسات الدينية بينما يمنح المعلمون مقررات عامة.

انظر: محاسن عبد القادر حاج صافي، **نشأة كلية الآداب وتطورها بجامعة الخرطوم**، بحث غير منشور قدم لمؤتمر عمداء الآداب، سورية، ٢٠٠٤م، ص ١-٤.

فدوى عبد الرحمن علي طه، أستاذ الأجيال، عبد الرحمن علي طه، ١٩٠١-١٩٦٩م، **بين التعليم والسياسة وأربجي**، دار جامعة الخرطوم للنشر، ٢٠٠٤م، ص ٥٣-٥٥.

(٢) اقترحت اللجنة التي كونها الحاكم العام لدراسة النظام التعليمي في شمال السودان إنشاء كلية لتدريب معلمي المدارس الأولية تكون أهدافها إتاحة تعليم فوق الأولى تكون مدته خمس سنوات على أن تكون السنة الأخيرة للتدريب الميداني وتوفير دروس باللغة الإنكليزية وتنظيم فرق تجديدية للمدربين وإيجاد فرص للعمل اليدوي والتدريب الزراعي – فتحت مدرسة جديدة بالقرب من الدويم في محافظة

النيل الأبيض في سبتمبر ١٩٣٤م، ونقلت مدرسة تدريب مدرسي المدارس الأولية العرفاء من الخرطوم إلى بخت الرضا النبض الأساسي للابتكار التعليمي في السودان. توسعت عام ١٩٣٦م، إلى معهد يضم عدداً من المدارس تشمل مدرسة أولية لتدريب الطلاب وتجربة المناهج الجديدة، ومدرسة لتدريب المعلمين الذي اختيروا من كل مناطق السودان للتدريب كمدرسي مدارس أولية، ومدرسة وسط الدويم، ونظمت بخت الرضا فترات تدريبية للمعلمين الذين كانوا يحضرون في مجموعات صغيرة من مختلف أنحاء السودان وتوجيهات في طرق التدريس.

انظر: فدوى عبد الرحمن علي طه، **المصدر نفسه**، ص ٦٥-٦٧.

(٣) دار الوثائق المركزية، الخرطوم، داخلية، السكرتير الإداري 17.C.7 ، الخرطوم، ١٩٤٣/٩/٢٤م.

(٤) أبو فريد نزار محمد عبده غانم القرشي، **جسر الوجدان بين اليمن والسودان**، (الطبعة الأولى: صنعاء، ١٩٤٤م)، ص ٨٥.

(٥) قدم محجوب عمر باشري ترجمة للأستاذ عبد القادر أوكير في كتابه، **رواد الفكر السوداني**، (دار الفكر العربي، ١٩٨١م)، ص ٢٢٣-٢٢٨.

(٦) أبو فريد نزار محمد عبده غانم القرشي، **المرجع السابق**، ص ٨٦

(٧) محمد سعيد القدال، **الشيخ القدال باشا معلم سوادني في حضرموت**، ومضات من سيرته، (دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ١٩٩٧م)، ص ٥٣.

(٨) **المصدر نفسه**، ص ٥٤.

(٩) أبو فريد نزار محمد عبده غانم القرشي، **المرجع السابق**، نقلاً عن سعيد عواض، **سبعون عاماً من المسرح في اليمن**، (دار الجاحظ، دمشق، ١٩٨٣م).

(١٠) **المصدر نفسه**، ص ٨٨-٩٥، كذلك دار الوثائق المركزية، الخرطوم، داخلية، السكرتير الإداري، 17.C.7.

(١١) **المصدر نفسه**، ص ٩٠.

(١٢) **المصدر نفسه**، ص ٩٠-٩٤.

(١٣) محمد سعيد القدال، **المرجع السابق**، ص ٧٦-٧٧،

(١٤) **المصدر نفسه**، ص ٨١.

(١٥) **المصدر نفسه**، ص ٨٤، نقلاً عن الأخبار، ٣١، ١٥/١٠/١٩٥١م.

(١٦) علي عبد الكريم وآخرون، تاريخ التعليم في الصومال، (مقديشو، ١٩٧٨م)، ص ٥٦.

(١٧) M.S. Fawzia Yusuf H. Adam "The Establishment of the University of Hargeisa", **Final Report,** (Nordic Conference on Somaliland - Nov. 23-24, 1994), Helsinki, Finland, JOM, International Organization for Migration, 2000 p. 153.

(١٨) محاسن عبد القادر حاج الصافي، "**العلاقات السودانية الصومالية**"، علاقات السودان الخارجية: البعد العربي الإفريقي، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية، ١٩٩١م، تحرير د. مدني محمد أحمد، ود. حامد عثمان، ص ١٧٦.

(١٩) دار الوثائق المركزية، الخرطوم، داخلية، السكرتير الإداري، 17.C.7.

(٢٠) CO/84 7 2231 Memo. From Liet Hamilton and Major Erskine To H. M. Secretary of State, Foreign Affairs, with copy to H. M.

Secretary of State, Colonial Affairs, War Office 28 April 1941

(٢١) CO/535/15216 Minutes of the Meeting of Sir Thomas Lloyd with Somalis in Berbera, 28/11/1949.

(٢٢) CO/8/ 22/ 1585 Secret Memo

(٢٣) Ibid, also CO/8/22/1 *585* Conference for Department of Education, Daresalam, Tanganiyka, 6 Apil 1959.

(٢٤) CO/8/22/1585 No. 128 Tel from Foreign Affairs London to Khartoum 8 April 1958.

(٢٥) انظر: محاسن عبد القادر حاج الصافي، **العلاقات السودانية الصومالية**، ص ١٧٧-١٧٨. ثم Mahasin el-Safi, "History of Somali Commuinties in the Sudan, since the First World War "**Sudan Studies**, No. 29, June 2002 pp. 22-24.

الثلاثي الصهيوني
ونظرية((إسرائيل)) مركز الصهيونية العالمية

الأستاذ الدكتور محمد حبيب صالح
قسم التاريخ
جامعة دمشق

مقدمة:

أثارت قضية الخلفية الحقيقية للصهيونية السياسية تساؤلات كثيرة منذ ظهورها كأداة أيديولوجية في أوروبا الغربية في ستينات القرن التاسع عشر لكسب التأييد الدولي اللازم لإقامة محمية احتلالية يهودية في فلسطين العربية، وارتسام هذه الأيديولوجية عام ١٨٩٦م، في الكتاب الذي نشره تيودور هيرتزل.(١) تحت عنوان ((الدولة اليهودية)). ثم انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل السويسرية عام ١٨٩٧م، وتبنيه ما أصبح يعرف باسم((برنامج بازل)) الذي يدعو إلى إقامة((وطن قومي وآمن ومعترف به قانونياً لليهود في فلسطين))(٢). وغدت الصهيونية التي هي في جوهرها معتقدات تهدف إلى وضع مقررات بازل موضع التطبيق، وأتباعها الصهاينة الذين يقولون بأن ((اليهود شعب قومي مستقل ينبغي إعادة توطينه في كيان سياسي مستقل على أرض فلسطين، وإقامة دولة يهودية خاصة باليهود وحدهم)) مادة غنية للبحث لكل متتبع لتطورات هذه الحركة العنصرية العدوانية قبل وبعد تمكنها من إنشاء المحمية الاحتلالية في فلسطين عام١٩٤٨م.

غير أن الغالبية العظمى من الأبحاث والدراسات التي صدرت في الغرب كانت غير موضوعية، وكتبت بأقلام صهاينة ملتزمين، ولقيت دعماً كبيراً من المنظمات الصهيونية، ودرست الحركة الصهيونية كمنظمة تسعى إلى تنظيم اليهود في العالم، وحشد طاقاتهم وتخليصهم من ظاهرة((التشرد)) التي يعيشونها في ((الشتات)) وضمان عودتهم الأكيدة إلى ((وطنهم التاريخي)) إلى((أرض الميعاد)) فلسطين العربية.وتشترك هذه الأبحاث والدراسات في العمل على تسويغ الصهيونية وأيديولوجيّتها الشوفينية العنصرية. وإعداد الرأي العام العالمي، ودفعه إلى تقبل الفكر الصهيوني، ومحاباة الحركة الصهيونية. لكن هذا لا يعني عدم وجود كتابات أجنبية تناولت دراسة هذا الموضوع بشيء من الموضوعية(كالدراسات السوفييتية) والدراسات العربية ودراسات أخرى.

تمثل هذه الدراسة محاولة متواضعة لتحليل العلاقات القائمة بين الثلاثي الصهيوني: المؤتمر اليهودي العالمي ومكانه في نظام الصهيونية العالمية[٣] وموقفها من نظرية ((إسرائيل)) مركز الصهيونية العالمية، والكيان الصهيوني ومحاولاته في قيادة المؤتمر اليهودي العالمي والمنظمة الصهيونية العالمية، في إطار التطور التاريخي لهذا الثالوث الصهيوني، وتقاسم الأدوار بين أضلاعه الثلاثة لخدمة الأهداف العامة للحركة الصهيونية.

أولاً- دور المؤتمر اليهودي العالمي في نظام الصهيونية العالمية:

يشغل المؤتمر اليهودي العالمي مكاناً بارزاً وسط المنظمات البرجوازية اليهودية المنتشرة في أنحاء العالم، ويؤدي منذ عام ١٩٦٣م، شكلياً دور المنظمة ((غير الصهيونية)) التي تدعو إلى اعتراف جميع اليهود وجميع الدول بها في صورة المركز الذي يعني بمشاكل يهود العالم كله. وقد بُني هذا المركز على أساس ((القومية في الشتات)) كما يدعي مؤسسوه، ولا يطالب علناً بهجرة اليهود إلى الكيان الصهيوني (أي ما يسمى عالياً)، وتحتل قضية تأسيس شبكة عالمية واسعة من الجمعيات

اليهودية وتوطيدها مكاناً مهماً في نشاطات المؤتمر اليهودي العالمي وفعالياته كخطوة أولى على طريق تأسيس ((نوع من الثقافة القومية الذاتية للشعب اليهودي العـــالمي)) على حد زعمه في مختلف بلدان العالم.

ويدخل في تركيبة المؤتمر اليهودي العالمي الجمعيات اليهودية المنظمة، والمنظمـــات ((القومية)) اليهودية المستقلة المنتشرة في ٦٣ دولة من دول العالم. وفي مظهر ضـــم وتوحيد الأعضاء في عمل المؤتمر تشارك أكثر من عشرين منظمة دولية صـــهيونية وغير صهيونية. وأُطر العملِ السياسي لهذا المؤتمر واسعة للغاية وتأخذ طابعاً عالمياً. ويمتلك المؤتمر اليهودي العالمي صفة الهيئة الاستشارية وسط المؤسسات والمكاتـــب المتخصصة في الأمم المتحدة (اليونسكو، ولإيكوسكو، الفوز، وموت) وبعض الهيئات والمؤسسات الأخرى. ويحافظ على صلاته مـــع الجمعيـــات الاقتصـــادية اليهوديـــة والمنظمات الحكومية الأمريكية.ويشارك مبعوثو المؤتمر اليهودي العالمي في نشاطات الكثير من المنظمات الحكومية وغير الحكومية، ويطور اتصـــالاته مـــع المؤسســـات والمؤتمرات الدينية الإقليمية منها والدولة ويعمقها.

سلف المؤتمر اليهودي العالمي -المؤتمر اليهودي الأمريكي(٤)، الذي أسس من قبـــل البرجوازيين ((القوميين)) اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩١٨م، وفـــي أول اجتماع عقده المؤتمرَ اليهودي الأمريكي، دعا إلى تأســـيس المـــؤتمر اليهـــودي العالمي واتخذ قراراً أكّد فيه على أنه ((يجب على المؤتمر اليهـــودي الأمريكـــي أن يتعاون مع ممثلي المنظمات اليهودية في بلدان العالم الأخرى واتخاذ خطوات حاسمة بهدف عقد المؤتمر اليهودي العالمي(٥).

في العشرينيات سعى المؤتمر اليهودي الأمريكي إلى ترسيخ مواقفه لـــدى الجمعيـــات اليهودية المتوضعة في البلدان الأوروبية. وارتبطت توجهاته هذه مع السياسة التوسعية المتزايدة للإمبريالية الأمريكية آنذاك نتيجة الحرب العالمية الأولى. شـــارك المـــؤتمر اليهودي الأمريكي إلى جانب المنظمات الصهيونية الأمريكية داخل الولايات المتحـــدة

الأمريكية في عمليات الاعتداء على الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة الأمريكية وقيادة حملة قومية ضد السوفييت.

في أيار ١٩٢٩م، تقدم المؤتمر اليهودي الأمريكي باقتراح يقضي بإنشاء ((مجلس خاص باليهود السوفييت)). وفي تشرين الثاني من العام نفسه وبدعم من المنظمات الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية، عقد مؤتمراً عاماً لـ ((الدفاع عن اليهود السوفييت)). وأيد زعماء الصهاينة الأمريكيين فكرة إنشاء المؤتمر اليهودي العالمي بغية قيادته من قبل زعماء وممثلي المؤتمر اليهودي الأمريكي مستخدمين المؤتمر اليهودي الأمريكي وتأثيره في المنظمات اليهودية في الكثير من الدول. حيث أراد الزعماء الصهاينة الأمريكيون إحداث تغيرات نوعية في علاقات القوى تكون لصالحهم داخل المنظمة الصهيونية العالمية التي كانت تقاد في حينها من قبل الصهاينة الإنكليز بقيادة زعيم المنظمة الصهيونية العالمية حاييم وايزمان[٦]. وقد أبدى وايزمان وجماعته مقاومة لفكرة إنشاء المؤتمر اليهودي العالمي عكست خلفية قوله: إنه لا يستطيع أن يقوى كثيراً من موقف الصهاينة الأمريكيين.

أدى طرح قضية إنشاء المؤتمر اليهودي العالمي على بساط البحث خلال انعقاد المؤتمر الصهيوني السابع عشر في مدينة بازل السويسرية في حزيران ١٩٣١م، إلى حدوث مناقشات ومناوشات حادة بين أعضاء المؤتمر، وجّه فيها س. أوعايزا زعيم الصهاينة في الولايات المتحدة الأمريكية انتقادات حادة لزعيم الصهيونية الإنكليزية حاييم وايزمان. وانضم إليه في هذا الهجوم ناحوم غولدمان[٧]، رئيس اللجنة السياسية لمؤتمر الحركة الصهيونية العالمية. وبنتيجة ذلك أعرب المؤتمر عن عدم رضاه عن وايزمان الذي وجد نفسه مضطراً للاستقالة من منصبه كرئيس للمنظمة الصهيونية العالمية.

بعد تمكنهم من عزل وايزمان صعّد الصهاينة الأمريكيون من حملتهم إنشاء المؤتمر اليهودي العالمي. غير أن ممثلي الصهيونية الإنكليزية في قيادة المنظمة الصهيونية

العالمية ومؤسساتها ومكاتبها أبدوا مقاومة قوية لهذه الخطة بعد استقالة وايزمان. وعلّلوا سلوكهم هذا بقولهم: ((إن تأسيس منظمة جديدة، ليست على قاعدة الصهيونية، يمكن أن يؤدي إلى إضعاف المنظمة الصهيونية العالمية في حل المسائل والقضايا الهامة التي تقف أمامها ولاسيما فيما يتعلق بإنشاء الكيان القومي اليهودي في فلسطين)).

وعلى الرغم من ذلك فإن المؤتمر الصهيوني الثامن عشر الذي عقد في براغ عام ١٩٣٣م، أعلن دعمه تأسيس المؤتمر اليهودي العالمي. وجاءت اللحظة الحاسمة خلال المؤتمر التاسع عشر للحركة الصهيونية العالمية، الذي عقد في مدينة بيرن عام ١٩٣٥م، ودعت المنظمات الصهيونية في العالم إلى المشاركة في الإعداد إنشاء المؤتمر اليهودي العالمي والانخراط بفاعلية كبيرة في نشاطاته(٨).

على أثر حصولهم على التأييد الكامل من جانب قادة المنظمات الصهيونية في مختلف أنحاء العالم، بدأ زعماء المنظمات والجماعات اليهودية في أمريكة الشمالية بالتحضير لعقد مؤتمر هدف إلى إعداد الأرضية السياسية اللازمة لإنشاء المؤتمر اليهودي العالمي. وأثناء انعقاد جلسات المؤتمر اليهودي الأمريكي في حزيران ١٩٣٦م، تمت الموافقة على مشروع تشكيلة المؤتمر اليهودي العالمي. غير أن مجموعة من مندوبي المنظمات اليهودية تعاملوا بسلبية تامة أثناء انعقاد المؤتمر التأسيسي للمؤتمر اليهودي العالمي في جنيف في العام نفسه ١٩٣٦م، مع قضية تولي زعماء المؤتمر اليهودي الأمريكي قيادة المؤتمر اليهودي العالمي. وطالبوا بضرورة تضييق أطر النشاط السياسي للمؤتمر اليهودي العلمي وجعله رمزاً لمحاولات ((الشعب اليهودي ومساعيه من أجل تحقيق وحدة اليهود بهدف الدفاع عن حقوقهم))(٩).

ولم يكن هذا الموقف يتوافق مع تطلعات قادة المؤتمر اليهودي الأمريكي، وأعلنوا أن نشاطات المؤتمر ستمول بشكل أساسي من حساب المنظمات اليهودية الأمريكية، وأصروا على ذلك من أجل أن يوضع في اساس المبادئ السياسية للمؤتمر اليهودي

العالمي المشروع الذي أعده المؤتمر اليهودي الأمريكي. وتمكنوا في نهاية المطاف من الانتصار. وجرى انتخاب زعماء المؤتمر اليهودي الأمريكي لشغل المناصب القيادية العليا في المؤتمر اليهودي العالمي، وانتخب س. أوعايزا رئيساً للجنة المركزية للمؤتمر اليهودي العالمي، ويوماسك رئيساً فخرياً، وتولى ناحوم غولدمان قيادة مجلس الإدارة لدى عصبة الأمم.

وجرى الإعلان عن المؤتمر اليهودي العالمي كـ ((هيئة عامة)) مسخرة لخدمة ((المنظمات اليهودي والمجتمع اليهودي بشكل عام)) و ((الإسراع في تحقيق الوحدة بين أبناء الشعب اليهودي))، وتنسيق نشاطات وفعاليات الجماعات اليهودية فيما يتصل بقضايا الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتوسيع دائرة تطوير الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية لليهود في كل أنحاء العالم[١٠].

وإلى جانب هذه الأهداف المرتبطة مع أماكن انتشار المبادئ الإيديولوجية والسياسية والثقافية للمؤتمر اليهودي العالمي، أعلن المؤتمر عن إصراره على ((إحقاق حقوق اليهود، وتحسين أوضاعهم وخدمة اهتماماتهم واهتمامات الجماعات اليهودية والدفاع عن اليهود في أي مكان يوجدون فيه وضمان حمايتهم وأمنهم))، و ((أن ينوب المؤتمر عن كل الجمعيات والمنظمات التي تنتمي إليه أمام الهيئات والمؤسسات الحكومية والإقليمية والدولية في تمثيلها والدفاع عنها في كل ما يتصل بالقضايا والمسائل التي تصيب ((الشعب اليهودي)) بشكل عام. وعلّل مؤسسو المؤتمر اليهودي العالمي ذلك بمضمون الفقرة المسماة ((خروج القومية اليهودية عن نطاق سلطات الدولة)) والتي تعني جعلها ((أيديولوجية)) وتحويلها إلى ((عقيدة)) قائمة بحد ذاتها تسمح بتدخل المؤتمر في الشؤون الداخلية لأي دولة يعيش فيها اليهود[١١].

ويتوضع في صلب التركيبة الأساسية للمؤتمر اليهودي العالمي مبدأ نشاط اللجان الدائمة، التي من ضمنها اللجنة المختصة بالعلاقات السياسية والعلاقات بين المواطنين والتي أصبحت تؤدي دوراً هاماً، وأخذت على عاتقها الوظيفة التي كان يشغلها في

باريس في آذار ١٩١٩م، وتعمل هذه اللجنة أيضاً على إقامة أواصر التعاون بين المنظمات والجمعيات اليهودية في مختلف بلدان العالم، وأصبحت في الواقع العملي الهيئة القيادية داخل المؤتمر اليهودي العالمي، وتشرف على مراقبة نشاطات هذه المنظمات والجمعيات اليهودية وفعالياتها، وتتحدث باسمها في عصبة الأمم، ولدى بقية المؤسسات الدولية الأخرى.

وجاء تأسيس معهد البحوث الاقتصادية التابع للمؤتمر اليهودي العالمي لإتمام المهام والمسائل المتعلقة بتفعيل وتوحيد نشاطات جميع المنظمات البرجوازية اليهودية التي كانت قد سبقت المؤتمر اليهودي العالمي في الظهور، والتي تعمل على جميع المعلومات وتحليل الأوضاع الاقتصادية في البلدان التي توجد فيها. وقد قام المعهد المذكور بحل المسائل المتعلقة بالمعلومات والاستنتاجات العامة، وإعداد الاقتراحات بهدف ((تحسين الأوضاع الاقتصادية للجماعات اليهودية))، وأوردت هذه الاقتراحات عملياً إلى اختيار المشاريع الأكثر ربحاً لتوظيف أموال البرجوازية اليهودية[١٢].

وهيأت اللجنة المختصة بقضايا الهجرة التابعة للمؤتمر اليهودي العالمي الظروف المناسبة، وقدمت الإمكانات اللازمة للإشراف على عمليات هجرة اليهود من العالم الرأسمالي إلى الكيان الصهيوني والتحكم بها ولاسيما تلك المنظمات المتعاظمة منها في القارة الأوروبية بالارتباط مع تطور الأوضاع في ألمانية خلال فترة الحكم النازي. كما جرى تأسيس بنك خاص من أجل تمويل المؤتمر اليهودي العالمي وكُلِّف بتنسيق التعاون بين البنوك البرجوازية اليهودية المتوضعة في عدد من دول العالم والإشراف عليها. وفعّل الزعماء الصهاينة والزعماء اليهود من قادة الجماعات والمنظمات اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية من نشاطاتهم في هذا الاتجاه لجعل المساعدات المادية وأشكال المساعدات الأخرى للجماعات اليهودية في البلدان الرأسمالية حصراً بين أيديهم، والتي يجري تمويلها فقط من قبل المنظمات اليهودية المتوضعة على أرض الولايات المتحدة الأمريكية.

تعرض الهيكل التنظيمي للمؤتمر اليهودي العالمي للتغيير مرات عديدة وغالباً ما كانت هذه التغيرات تجري من أجل الحفاظ على مواقف الزعماء الصهاينة الأمريكيين داخل المؤتمر اليهودي العالمي، وبالارتباط أيضاً مع توسيع مجالات أنشطة المؤتمر اليهودي العالمي وفعالياته وإدخاله في هيكلية مختلف التوجهات السياسية ((للمنظمات القومية اليهودية)) والأحزاب السياسية. وقد عكست هيكلية المؤتمر التغيرات التي وقعت نتيجة اقتراب موعد انعقاد اجتماعاته مع اجتماعات المنظمة الصهيونية العالمية، وأثناء عملية حل القضايا والمسائل الجديدة في الفترة التي أعقبت تأسيس الكيان الصهيوني على أرض فلسطين العربية عام ١٩٤٨م.

وسعى زعماء المؤتمر اليهودي العالمي دائماً إلى زيادة عدد ما يسمى الأعضاء المنضمين إلى فعاليات مؤتمراته ونشاطاته. وبالتوافق مع قرار اللجنة المركزية للمؤتمر اليهودي العالمي الصادر عام ١٩٦٤م، أصبح عدد أعضاء المؤتمر من ((أعضاء الأحزاب الصهيونية السياسية الذين رشحوا من قبل الاتحادات العالمية من الذين يبدون الرغبة في الحصول على عضوية المؤتمر اليهودي العالمي. وعلى أساس هذا القرار والمباحثات المرتبطة به التي جرت داخل المؤتمر اليهودي العالمي دخل الأعضاء المنضمون الجدد في المؤتمر العالمي للصهاينة المتحدين، والمنظمة العالمية (ميزراحي) وغابوإل غامزراحي، والاتحاد العالمي ليهود أولامي، والحركة العالمية حيروت هاتسوهار، والاتحاد العالمي لجميع الصهاينة، ومجموعة من المنظمات الصهيونية، والمؤيدة للصهيونية، والسياسية، والدينية، والمهنية، والنسائية.

ومع حلول عام ١٩٧٠م، دخل في عضوية المؤتمر اليهودي العالمي ممثلون عن جميع الأحزاب السياسية والاتحادات الصهيونية. كما نشطت داخل إطاره أربعة أقسام إقليمية هي ((أوروبة، أمريكة الشمالية، أمريكة اللاتينية، إسرائيل)).

بالتوافق مع تشكيلة المؤتمر اليهودي العالمي تعدّ الجمعية العامة، والمجلس المركزي، ومجلس المديرين (الذي يحمل اسماً آخر هو مجلس القيادة والتوجيه)، واللجنة التنفيذية، الهيئات والمؤسسات القيادية داخل هذا المؤتمر.

تتكون ميزانية المؤتمر اليهودي العالمي من التبرعات التي تقدمها المنظمات البرجوازية اليهودية وبعض الوجوه المستقلة، ومصادر أخرى كما تعد أموال التعويضات التي تقدمها ألمانية لليهود على ما يسمونه ممارسات الحقبة النازية ضد اليهود والمبنية على ما يسمونه أيضاً اتفاقية لوكسمبورغ الموقعة عام ١٩٥٢م، من المصادر الهامة أيضاً، وتعدّ رافداً أساسياً لميزانية المؤتمر. ويخصص قسم من ربح الصفقات التي تعقدها البنوك اليهودية لصالح بنك المؤتمر، بالإضافة إلى أن ١٠% من أوراق ميزانيته تأتي من المنظمة اليهودية العالمية.

في الدورة العادية السادسة للمؤتمر اليهودي العالمي التي عقدت في شباط ١٩٧٥م، تمت الموافقة على تشكيلة جديدة للمؤتمر، عكست التطورات والتعارضات والتناقضات التي عايشها خلال السبعينيات، والمتعلقة باقتراب موعد انعقاد اجتماعاته مع اجتماعات المنظمة اليهودية العالمية. وشغلت المكان الأول في هيئة التحرير المقالة الجديدة التي جرى التأكيد فيها على أن المؤتمر اليهودي العالمي يسعى إلى تمتين العقد التي تربط يهود العالم مع الكيان الصهيوني كمركز قوة للحياة اليهودية، وتعميق الاتصالات وتكريس التضامن بين الجماعات اليهودية في كل مكان[١٣].

بهذا الشكل تم تبني المبدأ الصهيوني القائل بـ ((الدور المركزي لدولة إسرائيل في حياة الشعب اليهودي في برنامج الوثائق التي يعتمده المؤتمر اليهودي العالمي))[١٤].

حددت التشكيلة الجديدة للمؤتمر اليهودي العالمي أطر التعاون بينه وبين المنظمة الصهيونية العالمية. واتخذت المنظمة من جهتها إجراءات تهدف إلى تعميق علاقاتها وتكريسها مع المؤتمر على المستوى الرسمي. كما أكد المؤتمر الصهيوني الخامس والعشرون الذي عقد في كانون الأول ١٩٦٠م - كانون الثاني ١٩٦١م، على أن

المؤتمر اليهودي العالمي يقوم بنشاطات فاعلة مع المنظمة الصهيونية العالمية لحل القضايا والمسائل الصهيونية المركزية المرتبطة بزيادة هجرة اليهود إلى الكيان الصهيوني. وفي مقررات المؤتمر السادس والعشرين للمنظمة الصهيونية العالمية (كانون الأول ١٩٦٤م- كانون الثاني ١٩٦٥م)، تم الاعتراف بالمؤتمر اليهودي العالمي من قبل المؤتمر الصهيوني، كمنظمة تسعى نظرياً وعملياً إلى تحقيق مبدأ وحدة ((الشعب اليهودي))[١٥].

وفرض المؤتمر الصهيوني اللجنة التنفيذية التابعة للمنظمة الصهيونية العالمية بترسيخ التعاون وتمتين أواصره مع المؤتمر اليهودي العالمي في جميع المجالات ذات الصلة بـ ((تمثيل الشعب اليهودي في الساحة الدولية))[١٦].

يسعى الزعماء الصهاينة بكل ما لديهم من قوة لاستخدام المؤتمر اليهودي العالمي في الساحة الدولية كمنظمة غير صهيونية في شكلها الظاهري، لخدمة النهج العدواني الذي تتبعه الأوساط الحاكمة في الكيان الصهيوني. فقد تضمنت مقررات المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرين الذي عقد في كانون الثاني ١٩٧٢م، الإشارة إلى ضرورة إعطاء المؤتمر اليهودي العالمي اهتماماً خاصاً ((كمنظمة أقيمت لدعم الحركة الصهيونية التي ترتبط معه بقوة))[١٧].

كما تقرر ما يلي: ((إن نشاطات المؤتمر اليهودي العالمي تخدم في الكثير من المجالات الأهداف العامة للمنظمة الصهيونية العالمية))[١٨].

في عام ١٩٧٥م، جرى التوقيع بين المؤتمر اليهودي العالمي، والمنظمة الصهيونية العالمية، حول ((إقامة علاقات خاصة)) بينهما على أساس الاعتراف من جانب المؤتمر اليهودي العالمي بـ ((مبدأ وحدة الشعب اليهودي ومركزية دولة إسرائيل)). ومنذ ذلك الوقت واللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية ترشح ممثلين عنها لشغل مناصب هامة في المؤتمر اليهودي العالمي. وأكد رجل الدولة الإسرائيلي ب. سابير الذي كان يشغل آنذاك منصب رئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية أن

((هذه الاتفاقية لم تساعد فقط على إقامة علاقات أكثر متانة بين إسرائيل ويهود "الشتات" بل وفرت إمكانات اتخاذ إجراءات منتظمة، تؤمن المشاركة التامة لأعضاء المنظمة الصهيونية العالمية كشركاء كاملي الحقوق في المؤتمر اليهودي العالمي في جميع مؤسساته ولجانه وهيئاته))[١٩].

وعلى الرغم من العلاقات المتبادلة بين المؤتمر اليهودي العالمي والمنظمة الصهيونية العالمية، لم تلغِ التعارضات والتناقضات المرتبطة بقضية أن المؤتمر اليهودي العالمي يظهر اهتمامات أكبر وله تطلعات أكثر اتساعاً من تطلعات المنظمة الصهيونية العالمية واهتماماتها، وكذلك الجمعيات اليهودية في بلدان العالم. حيث يأخذ المؤتمر في نشاطاته حساباً لمواقف الجمعيات غير الصهيونية، والمنظمات اليهودية المعادية للصهيونية ظاهرياً. وبالنسبة للمؤتمر اليهودي العالمي كما بالنسبة إلى المنظمة الصهيونية العالمية، والصهاينة الإسرائيليين، فإن كل منهم متهم بمسائل وقضايا البرجوازية اليهودية والحالات المتشكلة في الوضع الدولي. وتخوض قيادة المؤتمر نقاشاً حاداً مع المنظمة الصهيونية العالمية حول مكان الكيان الصهيوني ودوره في حياة ((يهود لاشتات)). وحسب رأي هذه القيادة فإن العلاقة بين تل أبيب والمنظمات اليهودية في الخارج يجب أن تقام على أساس الاعتراف بمركزية الدور الإسرائيلي في الدفاع عن المصالح الخاصة لليهود، ودورها الخاص في نظام العلاقات بين ((إسرائيل والشتات)). ويقف المؤتمر اليهودي العالمي ضد محاولات الصهاينة الإسرائيليين فرض أوامرهم في هذه العلاقات، وينافس ((إسرائيل)) في ((حقها)) في تمثيل يهودها، ويرفض مطالب الزعماء الإسرائيليين والمنظمة الصهيونية العالمية في تقديم الدعم الكامل وغير المشروط والدائم لنهج تل أبيب))[٢٠].

شهدت علاقات المؤتمر اليهودي العالمي مع الكيان الصهيوني، والمنظمة الصهيونية العالمية تصعيداً خلال الفترة الأخيرة من حكم تكتل الليكود (١٩٧٧-١٩٨٤م). حيث أدى النهج العدواني في السياسات الخارجية التي اعتمدتها قيادة الكيان الصهيوني

والدعم الكامل وغير المشروط له من جانب المنظمة الصهيونية العالمية إلى إصابة الكيان الصهيوني بنوع من الشلل في الساحة الدولية. وقد ولدت هذه الحالة نوعاً من عدم الرضى ظاهرياً لدى المنظمات والجمعيات اليهودية في الخارج. آخذة بالحسبان استغلالها هذا الوضع، تنظيم علاقاتها بين الكيان الصهيوني وما تسميه ((يهود الشتات))، وفعلت من نشاطاتها في الساحة الدولية. وحسب وجهة نظر زعماء المؤتمر اليهودي العالمي فإنه من الممكن خدمة مصالح الكيان الصهيوني من خلال اتباع سياسة أكثر اتزاناً وتراصاً في اللحظات الحاسمة والتي يجب أن تكون أكثر تحديداً وابتعاداً عن الأحقاد والكراهيات السابقة لدى تل أبيب فيما يخص قضايا الحلول السلمية لمسألة الصراع العربي-الإسرائيلي، وإقامة الاتصالات مع المنظمة العربية ((المعتدلة)) و((تخليص)) الكيان الصهيوني شيئاً فشيئاً من ((التبعية)) المباشرة للولايات المتحدة الأمريكية ولاسيما من جهة الاعتماد الوحيد الجانب على الصناعات العسكرية و((الصقور)) في الإدارة المركزية، وتحويل الاتحاد الاستراتيجي العسكري مع الولايات المتحدة الأمريكية إلى علاقات ((الشريك الروحي)). وأفصحت قيادة المؤتمر اليهودي العالمي آلياً في الثمانينيات عن ضرورة إقامة علاقة ثنائية مباشرة بين المؤتمر والاتحاد السوفييتي (السابق) وبقية الدول الاشتراكية الأخرى. وتجسدت هذه الآراء ووجهات النظر في مجموعة الخطوات العملية من جانب المؤتمر اليهودي العالمي على الرغم من المعارضة الكبيرة التي لقيها من جانب القيادات الصهيونية(٢١).

في عام ١٩٨١م، قام رئيس المؤتمر اليهودي العالمي ف. كلاتسنيك بجولة في منطقة الشرق العربي شملت الأردن ، والمملكة العربية السعودية، ومصر، ثم الكيان الصهيوني كما زار وفد يدخل في تركيبه أعضاء المؤتمر اليهودي العالمي والكونغرس اليهودي الأمريكي بقيادة رئيسه ت. مان القاهرة وعمان وتل أبيب عام ١٩٨٥م، أعقبه زيارة أخرى قام بها زعماء المؤتمر اليهودي العالمي لعدد من البلدان

الأخرى بقصد سبر وتحس علاقات هذه الدول وحقيقة مواقفها من مخططاتهم. وتسمح هذه الخطوات في الحقيقة بالحديث عن محاولات مضنية للحديث ثم ((إثبات)) وجود ((خط مستقل)) للمؤتمر اليهودي العالمي في الساحة الدولية، ويهيئ الظروف للحديث عنها وجود بعض التباينات التكتيكية حول مجموعة من القضايا بين الصهاينة والجماعات والجمعيات والمنظمات اليهودية ((غير الصهيونية))، والكيان الصهيوني. غير أن هذه التباينات سرعان ما زالت بعد وصول الحكومة الائتلافية ((الوحدة القومية)) إلى السلطة في الكيان الصهيوني عام ١٩٨٤م، وطالب رئيس الوزراء الصهيوني آنذاك شمعون بيريز بضرورة التخلص من الآثار الأكثر خطراً على ((إسرائيل))، التي ترتبت على الممارسات التي قامت بها الحكومة السابقة برئاسة زعيم تكتل الليكود مناحيم بيغن، وإسحاق شامير. وهنا يجب الإشارة إلى أنه حصل نوع من التعاون داخل قيادة المؤتمر اليهودي العالمي في عامي ١٩٨٥-١٩٨٦م، لحل مثل هذه المسائل، كمسيرة السلام في إطار الاتصالات مع الأنظمة العربية ((المعتدلة))، وممثلين عن الفلسطينيين على أساس مشروع ريغن الذي سبق طرحه في الأول من أيار ١٩٨٢م[٢٢]. وإقامة العلاقات الدبلوماسية بين الكيان الصهيوني، والاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية الأخرى، و((حرية هجرة اليهود السوفييت)).

لكن وبغض النظر عن التناقضات والتباينات الحادة حول مجموعة من الوقائع بين المؤتمر اليهودي العالمي من جهة، والصهاينة الإسرائيليين والمنظمة الصهيونية العالمية من جهة ثانية، فإن الصفة العامة والمسيطرة دائماً وأبداً على العلاقات بين الجهتين هي التعاون المتين. وترى المنظمات البرجوازية اليهودية الأخرى، والمؤتمر اليهودي العالمي، أن من أهم المهام الملقاة على عاتقها جميعاً تقديم الدعم للكيان الصهيوني، ولليهود في كل أنحاء العالم، والمشاركة في الدعاية التي تنظمها مجموعات الضغط الصهيونية من أجل الدفاع عن الكيان الصهيوني، والدفاع عن ((اليهود السوفييت)).

وتتصف السياسة العملية للمؤتمر اليهودي العالمي بتعدد الوجهات والخطط. وفي المرحلة الأولى من نشاطاته ساعد المؤتمر على نفخ روح الحياة في المخططات الصهيونية الرامية إلى إقامة ((الكيان القومي اليهودي)) في فلسطين. وخلال انعقاد مؤتمر بلتيمور في أيار ١٩٤٢م[٢٣]، أكد ناحوم غولدمان على ضرورة ((أن تصبح فلسطين مجتمعاً يهودياً يدخل في هيكلية العالم الديمقراطي الجديد وتركيبته))[٢٤]، وأقر الاجتماع الطارئ للمؤتمر اليهودي العالمي الذي عقد في أطلانتيك سيتي عام ١٩٤٤م، برنامج النشاطات السياسية للمؤتمر لمرحلة ما بعد الحرب والذي أولى اهتماماً كبيراً لإعادة الحياة إلى الجمعيات والمنظمات اليهودية في أوروبة.

ويسعى زعماء المؤتمر اليهودي العالمي مستخدمين الدعم الذي يلقونه من الأوساط الحاكمة في الولايات المتحدة الأمريكية وعدد من الدول الغربية الكبرى، ليس فقط إلى ترسيخ مواقف ووضع منظمتهم وسط الجمعيات والمنظمات اليهودية في الدول الغربية، بل إلى تكريس مواقفهم وتعزيزها لدى الكثير من المنظمات الإقليمية والدولية والحكومية وغير الحكومية. مستخدماً وضعه ومكانته الدولية، شارك المؤتمر اليهودي العالمي بفاعلية في محاولات المنظمات ((القومية)) اليهودية ومساعيها في الإشراف الموحد على المواطنين اليهود في الاتحاد السوفييتي (السابق) والدول الاشتراكية الأخرى. وكانت نشاطات المؤتمر اليهودي العالمي في هذا المجال قد وضعت خلال الستينيات في برنامج موسع يهدف إلى ((خلق الوعي اليهودي لدى اليهود السوفييت)) و((إقامة محمية قومية-ثقافية)) بمساعدة نظرية ((التحديث)) مبنية على أساس ((الوحدة القومية)) للجماعات اليهودية. وقد منيت هذه المحاولات لأسباب معروفة بالفشل التام. غير أن هذا الفشل لم يمنعه من الاستمرار في التحرك في هذا الاتجاه. وفي السبعينيات أيّد المؤتمر اليهودي العالمي نشاطات اللوبي الصهيوني في واشنطن ضد تطبيع العلاقات الاقتصادية بين الاتحاد السوفييتي (السابق) والولايات المتحدة

الأمريكية. ما دام الموقف السوفييتي ما يزال يحرّم على اليهود فيه الهجرة. من أجل الإقامة الدائمة خارج حدوده.

إلى جانب حكومة الكيان الصهيوني، كان المؤتمر اليهودي العالمي من منظمي ما يسمونه مؤتمرات الاحتجاج اليهودية للدفاع عن ((اليهود السوفييت)) في عامي ١٩٧١ و ١٩٧٦م، في بروكسل، وفي عام ١٩٨٣م، في القدس المحتلة. وقد اتخذت قيادة المؤتمر اليهودي العالمي الخط نفسه خلال انعقاد الدورة العادية السادسة للهيئة العامة للمؤتمر اليهودي العالمي في عام ١٩٧٥م[٢٥].

كما تعالت الأصوات من جديد أثناء انعقاد الدورة العادية السابعة لهذه الهيئة، والتي طالبت ((بضرورة السماح بهجرة اليهود السوفييت، وكل اليهود الراغبين في الهجرة إلى الكيان الصهيوني))[٢٦].

وعلى الرغم من استمرار المؤتمر اليهودي العالمي في المشاركة بالأعمال والتظاهرات الاحتجاجية من أجل ما يسمى ((تحرير اليهود السوفييت))، لوحظ في موقفه من القضايا والمسائل المتصلة بالاتحاد السوفييتي، وهجرة اليهود السوفييت في الثمانينيات وجود بعض التطورات، وقد عدّت هذه التطورات نتيجة لإعادة لتقويم الذي أجرته قيادة المؤتمر اليهودي العالمي على مجموعة من النشاطات والممارسات التي قامت بها واتخاذها خطوات أكثر اقتراباً من التغيرات التي بدأ يشهدها عالمنا في حينها. ووصل قادة المؤتمر اليهودي العالمي إلى استنتاج مفاده أن منظمتهم قادرة على تحقيق أهدافها بنجاح في ظروف الأوضاع الدولية المترتبة على سياسات البيريسترويكا الغورباتشوفية، ولا حاجة إلى تصعيد التوتر في العالم. ووقف هؤلاء القادة ضد تصعيد خطر المواجهة العسكرية الذي يمكن أن يؤدي إلى حرب نووية. وبناء عليه جرى تغيير على نشاطات المؤتمر وتحركاته في مسائل العلاقات مع الاتحاد السوفييتي، ولاسيما ما يتصل بـ ((أوضاع اليهود السوفييت)) في السنوات الأخيرة من وجود الاتحاد السوفييتي. وجرى التعامل مع هذه القضية وفق طرائق

وتجارب ((الدبلوماسية الهادئة)). لكن ذلك لم يكن إضعاف الاهتمام بها، بل تقويته عن طريق تشديد سياسة الحصار الاقتصادي، والمخططات الإسرائيلية في هذا المجال. وحظي المؤتمر اليهودي العالمي بدعم كبير في الجمعيات والمنظمات اليهودية في الدول الرأسمالية، وتطابق تماماً مع مواقف ((القوى المعتدلة)) في القيادة الصهيونية برئاسة شمعون بيريز.

وتعد مسألة تقديم المساعدة للكيان الصهيوني من أهم جوانب نشاط المؤتمر اليهودي العالمي. فبعد تأسيس هذا الكيان عام ١٩٤٨م، قدم زعماء المؤتمر اليهودي العالمي اقتراحات للحكومة الصهيونية تتعلق بإعادة الاتصال مع الحكومة في ألمانية الغربية فيما يخص دفع ((التعويضات)) وإعادة ممتلكات ((المواطنين الإسرائيليين)) على شكل ((تعويضات)) على ملاحقة اليهود في ألمانية من قبل النازية. وبموافقة من رئيس وزراء الكيان الصهيوني دافيد بن غوريون، وناحوم غولدمان، ورئيس القسم الأوروبي في اللجنة التنفيذية للمؤتمر اليهودي العالمي ن. باروأو بدأت الاتصالات غير الرسمية حول هذه المسألة مع المستشار الألماني الغربي أديناور. وبهدف إثبات شرعية اعتراضاتها على ألمانية بعثت الحكومة الصهيونية في ١٢ آذار ١٩٥١م، عريضة إلى الدول الأربع الكبرى التي كانت تحتل الأراضي الألمانية (الولايات المتحدة الأمريكية، بريطانية، فرنسة، الاتحاد السوفييتي)، أكدت فيها على ضرورة تقديم ((التعويضات لورثة الضحايا، وتقديم المساعدة للباقين منهم على قيد الحياة))[٢٧]، والذين يقيمون داخل الكيان الصهيوني. وفي تشرين الأول ١٩٥١م، وباقتراح من المؤتمر اليهودي العالمي، تمت الدعوة إلى عقد ((مؤتمر لدراسة الحجج المادية لليهود ضد ألمانية))، وتولى غولدمان رئاسة جلسات هذا المؤتمر.

في أيلول ١٩٥٢م، انتهت المفاوضات بين الصهاينة وأديناور بالتوقيع على اتفاقية لوكسمبورغ بين الكيان الصهيوني، وألمانية الغربية. وبلغت قيمة ((التعويضات)) التي قدمتها حكومة ألمانية الغربية بموجب هذه الاتفاقية حتى عام ١٩٨٣م، مليارات ومائة

وستة وثلاثين مليون وستمائة ألف دولار. وأعطي القسم الأعظم من هذا المبلغ ((لمتضررين من الاضطهاد النازي وورثة المتوفين منهم))، كما تزعم المصادر الصهيونية.

وشغلت مسألة دعم ((إسرائيل)) من جميع النواحي مكاناً خاصاً في نشاطات المؤتمر اليهودي العالمي في السنوات اللاحقة. وقام المؤتمر اليهودي العالمي الذي توقف عن الدعاية للهجرة إلى الكيان الصهيوني بتوجيه الدعوة إلى ((يهود العالم كله)) لـ ((تقديم الدعم للحكومة الصهيونية والوكالة اليهودية في قضية توجيه المهاجرين اليهود إلى إسرائيل وخدمة مصالحهم ودمجهم في الحياة الاجتماعية والثقافية التي يعيشها المجتمع الإسرائيلي))[٢٨].

مظهراً دعمه للكيان الصهيوني، نقل المؤتمر اليهودي العالمي أحد أقسامه إلى مدينة القدس (الإدارة الثقافية). وطالب المؤتمر مرات عديدة بضرورة ترسيخ تضامن اليهودية العالمية مع الكيان الصهيوني وتعزيزه، وتتجاوب هذه المطالبة مع القرار الذي تم اتخاذه في المؤتمر السابع والعشرين للمنظمة الصهيونية العالمية في حزيران ١٩٦٨م، (برنامج القدس الثاني) الذي أقر ((بوحدة الشعب اليهودي ومركزية إسرائيل في حياته))[٢٩]. وأعلن زعماء المؤتمر كعادتهم عن دعمهم الكامل لنهج السياسة الخارجية الذي تتبعه تل أبيب. وصرحوا أن منظمتهم ((مصممة على فعل كل شيء، وبكل ما لديها من طاقات للحيلولة دون اتخاذ قرارات تشجب إسرائيل أو تدينها في الأمم المتحدة، وفي جميع المنظمات والمؤسسات الدولية))[٣٠]، وبناء عليه أيدت الأمانة العامة للمؤتمر اليهودي العالمي في عام ١٩٧٥م، الإجراءات التي قامت بها الحكومة الصهيونية وضم مدينة القدس الشرقية وأعلنت ما يلي: ((إن المؤتمر لن يقف فقط إلى جانب الشعب الإسرائيلي الذي قرر الحفاظ على وحدة القدس كمدينة موحدة وغير مجزأة، بل يدعم فكرة جعلها عاصمة لدولة إسرائيل))[٣١].

واتخذ زعماء المؤتمر اليهودي العالمي أكثر من مرة إجراءات تهدف إلى تخفيف موجات الاحتجاج الصادرة عن المجتمع الدولي التي أدانت سياسة الحكومة الصهيونية. وشهدت أروقة الأمم المتحدة نشاطات محمومة من قبل جماعات المؤتمر اليهودي العالمي، وأعلنت اللجنة التنفيذية للمؤتمر في تشرين الأول ١٩٧٥م، عن ((عميق أسفها وقلقها)) على قيام الأمم المتحدة بمناقشة مشروع قرار يدين الصهيونية. وأعرب ناحوم غولدمان رئيس المؤتمر الصهيوني العالمي آنذاك عن اعتقاده بأن اتخاذ هذا القرار ((سيلحق ضرراً كبيراً بسمعة الأمم المتحدة أكثر مما سيلحقه بالصهيونية))[٣٢]. ولم تترك مداخلات زعماء المؤتمر اليهودي العالمي أي تأثير على سير مناقشات مشروع القرار في الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة التي أخذت في العاشر من تشرين الثاني ١٩٧٥م، القرار رقم /٣٣٧٩/ المتضمن إدانة الصهيونية كشكل من أشكال العنصرية[٣٣].

جوبه قرار الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بردود أفعال سلبية قوية جداً من جانب المنظمة الصهيونية العالمية والمؤتمر اليهودي العالمي وحكومة الكيان الصهيوني. وقامت الأطراف الثلاثة مجتمعة بحملة واسعة النطاق على المستوى الدولي، تهدف إلى نزع الثقة عن مضمون القرار والتشهير به، والنيل من سمعة الأمم المتحدة ومصداقيتها واتهامها بإعلان الحرب على ((الشعب اليهودي والعقيدة اليهودية))[٣٤].

ويقدم المؤتمر اليهودي العالمي المساعدات الاقتصادية للكيان الصهيوني ليس فقط عن طريق المشاركة في جمع التبرعات من مختلف دول العالم التي يوجد فيها اليهود، بل في عملية مصادرة الأراضي العربية المحتلة واستيطانها. وبدءاً من عام ١٩٧٥م، ينشط داخل إطار المؤتمر اليهودي العالمي ما يسمى مجلس الاستيطان الذي يعمل بالتنسيق مع مجموعة من المنظمات البرجوازية اليهودية الأمريكية الفاعلة والمؤثرة مثل الكونغرس اليهودي الأمريكي وجمعية مكافحة القذف والتشهير المعروفة (بنعي بريت) والمجلس الأمريكي اليهودي[٣٥].

مع وصول إدارة الرئيس جيمي كارتر إلى السلطة في الولايات المتحدة الأمريكية، حصلت الجماعات المؤيدة للاستيطان في الأراضي العربية المحتلة على دافع جديد. وكان الرئيس جيمي كارتر قد أعلن خلال حملته الانتخابية ((أنه يجب اتخاذ إجراءات حاسمة لوقف الاستيطان الإسرائيلي في الأراضي العربية المحتلة))(٣٦)، وساعد موقف الرئيس كارتر في مستوى معين إلى إحياء المساعي للتحرك ضد الاستيطان، وكان يهدف من ذلك توجيه رسالة إلى مصر السادات والفلسطينيين للتعاون مع الإدارة الأمريكية الجديدة في سياستها الرامية إلى دفع العرب إلى التوقيع على اتفاقيات ((سلام)) مع الكيان الصهيوني. وتزايدت نشاطات ما يسمى ((رجال أعمال الطاولة المستديرة)) الذي يمثلون ١٧٠ شركة أمريكية كبرى. والذين تمكنوا من وضع مسودة مشروع قرار يسمح لإدارة الرئيس كارتر بوضع قانون مناهض للاستيطان،. ووقع كارتر على مشروع القرار في حزيران ١٩٧٧م، بعد موافقة الكونغرس الأمريكي عليه(٣٧).

ويقف زعماء المؤتمر اليهودي العالمي ضد إقامة دولة عربية فلسطينية مستقلة. وفي وثائق المؤتمر، يجري التأكيد دائماً على أن المؤتمر ((يدين بقوة النداءات التي تطالب بإقامة دولة عربية فلسطينية)). ويرى المؤتمر أن منظمة التحرير الفلسطينية هي ((منظمة إرهابية))، ويتطابق موقفه مع موقف المنظمة الصهيونية العالمية وموقف الكيان الصهيوني في هذا المجال. وفي آذار ١٩٨٠م، توجهت قيادة المؤتمر اليهودي العالمي إلى دول السوق الأوروبية المشتركة في لندن بطلب ترجو فيه التوقف عن المطالبة بمشاركة منظمة التحرير الفلسطينية في المباحثات المتعلقة بالصراع العربي-الصهيوني. وخلال اجتماع ١٩٨٠م، الذي عقد في باريس، أعرب زعماء المؤتمر اليهودي العالمي عن احتجاجهم على إعداد الاتحاد الأوروبي بياناً مشتركاً حول ((الشرق الأوسط)) تضمن الاعتراف بضرورة إحقاق الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني، وحقه في تقرير المصير، ومشاركة منظمة التحرير الفلسطينية في

تحقيق هذه الإجراءات واعتبارها طرفاً في المفاوضات لحل قضية الصراع العربي الإسرائيلي[٣٨].

تعد قضية توسيع ((نظام التعليم اليهودي)) وسط الجمعيات البرجوازية ((القومية)) اليهودية من أهم النشاطات الموجهة التي يقوم بها المؤتمر اليهودي العالمي، بالإضافة إلى تطوير التوجهات ((القومية)) الرجعية الإكليريكية (الكنائسية) في ((الثقافة اليهودية)). ونظراً لوجود علاقات تنسيق قوية بين قسم التعليم والثقافة في المنظمة الصهيونية العالمية، ووزارة الثقافة الإسرائيلية، فقد شارك زعماء المؤتمر اليهودي العالمي في إقامة عدد من المؤتمرات الدولية حول قضايا ((الثقافة اليهودية)). وعقد المؤتمر الدوري في حزيران ١٩٨٤م، في الكيان الصهيوني بإشراف الرئيس الصهيوني حاييم هيرتزوغ. وقام المشاركون في هذا المؤتمر مرة أخرى ومن جديد بإعداد الخطط اللازمة لـ ((توسيع التعليم اليهودي في الاتحاد السوفييتي))[٣٩]، وكان الهدف من ذلك كما جاء في كلمة الصهيوني الإنكليزي أ. جيندلير التي ألقاها أمام المؤتمر ((تأمين حركة هجرة جمعية إلى إسرائيل عن طريق التعليم اليهودي))[٤٠].

ويسعى المؤتمر اليهودي العالمي إلى إدخال الكثير من ممثلي الطبقة اليهودية المثقفة في البلدان الغربية في نشاطات وفعاليات توسيع ((التعليم والثقافة اليهودية)). ويؤدي الدور الأساسي في هذه الخطة هيئة الجامعات التابعة للمؤتمر اليهودي العالمي نفسه. حيث تقوم هذه الهيئة بإجراء حلقات البحث (السيمينار) العلمية بمشاركة ممثلي الكليات والجامعات الأمريكية. وتجري الأبحاث في الوقت الحاضر حول ((القضايا والمسائل اليهودية)) في الكليات والجمعيات الأمريكية بصورة أوسع وأكبر مما كانت عليه خلال السبعينيات والثمانينيات[٤١].

في كانون الثاني ١٩٧٩م، وبدعوة من المؤتمر اليهودي العالمي، تم إنشاء هيئة للبحوث، تهدف إلى تأمين الظروف المناسبة من أجل الحفاظ على ((الثقافة التاريخية والدينية لليهود، والقيم الروحية والمعنوية اليهودية)) في ((بلدان الشتات)). وقد

شاركت الهيئة في إعداد برامج ووضعها موضع التطبيق في عدد من البلدان الأوروبية(٤٢).

تولي قيادة المؤتمر اليهودي العالمي أهمية أكبر للنشاطات التي يقوم بها معهد لندن للقضايا والمشاكل اليهودية الذي يعد مركزاً للأبحاث يتبع مباشرة للمؤتمر اليهودي العالمي، وتربطه علاقات واسعة وقوية مع معاهد الأبحاث المشابهة له تماماً في الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانية، والكيان الصهيوني، وعدد من الدول الأخرى. وتتميز نشاطات وفعاليات هذا المعهد بتنوع برامجها وخططها. وتجاوباً مع الأوضاع المترتبة أثناء انعقاد الجلسة الدورية السابقة لهيئة المؤتمر اليهودي العالمي. طرحت مسألة إجراء بحوث علمية حول قضايا ((معاداة السامية)). غير أن هذه الأعمال لا تأخذ طابعاً علمياً على الإطلاق، ويغلب عليها طابع التلفيق والاختلاق. وفي عدد من الأبحاث التي أجراها المعهد، تجري محاولات لإثبات وجود ممارسات ((معادية للسامية)) على المستوى الحكومي الرسمي في الاتحاد السوفييتي (السابق)، والدول الاشتراكية الأخرى وتتضمن هذه الأبحاث إلى جانب مقالات كثيرة أخرى صدرت عن معهد لندن في مجلة ((سوفييت جويش أفريز)) الكثير من المعلومات الكاذبة عن وضع اليهود في الاتحاد السوفييتي، ومعلومات أخرى مناهضة للشيوعية، ومعادية للسوفييت، تأخذ طابعاً استفزازياً.

ويتولى المؤتمر اليهودي العالمي قضية حل عدد من المسائل تأخذ طابعاً خاصاً، وترتبط باحتجاجاته وتحفظاته على دور ((المتحدث عن مصالح يهود العالم)). وهكذا أخذ المؤتمر على عاتقه حل المسائل المتعلقة بإقامة الاتصالات مع الكنيسة البابوية الكاثوليكية وتوسيعها، من خلال النشاطات والتحركات التي يقوم بها ما يعرف باسم ((هيئة الاتصالات الدولية بين اليهود والكاثوليك)). وعن طريق هذه الهيئة التي تدخل في تركيبتها ممثلون عن الفاتيكان التي أسست من قبل الهيئة الدولية اليهودية التابعة

للمؤتمر اليهودي العالمي، تم تبادل وجهات النظر مع واشنطن، وجمع المعلومات حول القضايا العالقة بين قيادة المؤتمر اليهودي العالمي والحكومة في الكيان الصهيوني.

وتدعم الهيئة الدائمة مع أعضاء لجنة الترقية العليا في الفاتيكان، ممثل المؤتمر اليهودي العالمي في روما، ويحاول المؤتمر إقناع الفاتيكان بضرورة اتخاذ موقف دائم ومؤيد للكيان الصهيوني، ويسعى ممثلو المؤتمر قبل أي شيء لجعل الفاتيكان يؤيد موقف تل أبيب في سياستها التي تمارسها في مدينة القدس الشريف. ويعبر المؤتمر اليهودي العالمي، وكذلك المنظمة اليهودية العالمية، اهتماماً خاصاً بقضية تقاسم العلاقات مع (مجلس الكنائس العالمي). ويحاولون على الأقل تحقيق هدف إضعاف تأثيره في المشاركة في العمليات الموجهة ضد اهتمامات الكيان الصهيوني، والصهيونية العالمية. ومن أجل إقامة الاتصالات مع مجلس الكنائس العالمي، تم تشكيل هيئة ارتباط خاصة مع هذا المجلس.

ويسعى المؤتمر اليهودي العالمي بكل ما لديه من قوة ومن إمكانات لزيادة اتصالاته وترسيخها مع ممثلي المراكز المسيحية في اليونان. وقبرص، وفرنسة، وسويسرا، وعدد آخر من الدول الأوروبية. وأقام اتصالات مع فيدرالية لوثر العالمية، ومع الكنيسة الإنكليزية. ويتمثل أحد أهداف المؤتمر اليهودي العالمي في السعي إلى إدخال نهج اليهودية في حلقات البحث (السيمينار) المسيحية. ويقوم ممثلو المؤتمر اليهودي العالمي باتباع هذا المنهج أيضاً في مناطق أخرى من العالم.

تمتلك النشاطات والفعاليات التي يقوم بها المؤتمر اليهودي العالمي في المعاهد الدينية التابعة لمختلف المنظمات أهدافها الخاصة في التأثير على قيادات الأوساط الدينية من أجل دفعهم إلى تغيير جزء من وجهات نظرهم على الأقل من الأفعال التي تقوم بها الأوساط القيادية الحاكمة في الكيان الصهيوني المتصلة بمسألة إقامة دولة عربية فلسطينية، ووضع مدينة القدس، وعدد من القضايا والمسائل الأخرى.

تؤدي المنظمة الدولية البرجوازية ((القومية اليهودية)) (المؤتمر اليهودي العالمي) دوراً كبيراً في تقديم الدعم السياسي والمالي للكيان الصهيوني، وفي الكثير من القضايا والمسائل المتعلقة قبل كل شيء بنشر الثقافة والإيديولوجية ((القومية)) الصهيونية وسط السكان اليهود في مختلف بلدان العالم، وتعميق ((القومية)) لدى أعضاء الجمعيات اليهودية، وتفعيل نشاطها وفعالياتها السياسية (مع الحفاظ في الوقت ذاته على الاستقلالية المعهودة لهذه الجماعات ومنظماتها) والتي تخدم أيضاً في المحصلة النهائية الأوساط الإمبريالية التي ينتمون غليها، أو التي يحتفظ المؤتمر اليهودي العالمي معها بعلاقات ودية متميزة، ونشاطات المؤتمر المطابقة لنشاطات المنظمات الصهيونية.

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى أنه وعلى الرغم من الوحدة القائمة بين المؤتمر اليهودي العالمي ومجموع المنظمات ((القومية)) اليهودية يختلف معها بناحية واحدة هي أن المؤتمر اليهودي العالمي أوسع وأكبر من المنظمة الصهيونية العالمية واهتماماته السياسية أكثر شمولية منها، وهذا ما يهيئ له الظروف اللازمة للنشاط والتحرك بشكل ذاتي ومستقل عن الأوساط الحاكمة في الكيان الصهيوني وزعماء المنظمة الصهيونية العالمية في الساحة الدولية. وأصبحت الإمكانات المتوفرة لديه على أرض الواقع من أجل اتباع هذا المنهج أكثر وضوحاً على الرغم من أن كل شيء ما يزال متناقضاً وغير منطقة في واقع نشاطات المؤتمر اليهودي العالمي في أعوام السبعينيات والثمانينات عندما بدت جلية المؤثرات السلبية في الكيان الصهيوني وفي المنظمات الصهيونية الدولية وفي نظام العلاقت بين الكيان الصهيوني وما يسمونه ((يهود الشتات)). وعلى الرغم من تعمق الخلاف بين قادتي المؤتمر اليهودي العالمي، والمنظمة الصهيونية العالمية، والصهاينة الإسرائيليين، وتزايد ((استقلالية)) المؤتمر اليهودي العالمي فإنها لا تملك أساس الخلافات الإيديولوجية والسياسية. وبرأينا فإن

إمكانية تطور وتحرك المؤتمر اليهودي وفق هذا الاتجاه لم يتضرر على الإطلاق. ولا يمكن تفسير ذلك إلا بالوحدة العضوية التي تربط الثلاثي الصهيوني.

ثانياً- المنظمة الصهيونية العالمية و((إسرائيل)) مركز الصهيونية العالمية:

يتحدد مكان الكيان الصهيوني ودوره في الصهيونية العالمية من خلال جوهر النظام لهذا الكيان وطبيعته. وتعد سيطرة الأيديولوجية الصهيونية العدوانية والسياسية التوسعية على أدمغة الأوساط الحاكمة في الكيان الصهيوني العقدية الفعلية له، وتعكس المبادئ الحقيقية للصهيونية وأيديولوجيتها.

مع قيام الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨م، وضع الإيديولوجيون الصهاينة أمامهم مجموعة من المسائل ((الجديدة)) والأهداف السياسية للصهيونية العالمية. وكان ظهور هذا الكيان النتيجة المباشرة للنشاط المحموم الذي بذله زعماء الحركة الصهيونية على امتداد عشرات السنين[٤٣]. وجرى تشكيل جهاز أيديولوجي مهمته تحقيق ((وحدة الشعب اليهودي وإسرائيل)) التي أعلن عنها كـ ((دولة ليهود العالم كله)). ومهمة هذا الجهاز شرح فكرة ((الدور الخاص للدولة اليهودية وطبيعتها وسماتها)) التي عليها حسب رأي القيادة الصهيونية أن تصبح مركزاً لنشر الأفكار الصهيونية وسط اليهود في مختلف دول العالم.

يجب أن يستند الوضع المثالي لحالة ((الدولة اليهودية الفذة)) حسب رأي الأوساط الحاكمة في الكيان الصهيوني إلى اعترافات الجماعات اليهودية في العالم بمركزية الدور الإسرائيلي و((حق إسرائيل)) في التدخل في الشؤون الداخلية لهذه الجماعات من جهة، والقيام شكلياً ببعض ((التزامات)) الجماعات اليهودية في علاقاتها مع ((إسرائيل)) كـ ((دولة ليهود العالم كله))[٤٤]. ويرى الصهاينة الإسرائيليون أن السكان اليهود في مختلف دول العالم ملزمين قبل كل شيء بتأمين الدعم العالمي لـ ((إسرائيل)) والذي تفسره ضرورة ما يسمى ((الصراع من اجل البقاء)) الذي

تخوضه. ولهذا السبب شغل القرار المتعلق بـ ((التشابه الكامل للدولة اليهودية مع دولة إسرائيل مكاناً ومركزاً في وثائق المؤتمر الخامس والعشرين للمنظمة الصهيونية العالمية))(٤٥).

ويسعى الصهاينة الإسرائيليون إلى إقناع يهود العالم بأن الوجود العملي الأفضل ((للشعب اليهودي)) يمكن أن يكون مهدداً دائماً بالمخاطر، و((إسرائيل)) وحدها القادرة على الحفاظ على هذا الوجود العملي. وبنتيجة ذلك تقع فكرة ((الحفاظ على وجود إسرائيل كدولة)) محاطة بطوق من الدول العربية المعادية في مقدمة المخططات الواجب تنفيذها، بالإضافة إلى ضرورة ضمان ((أمنها العسكري))، الذي يفهمه الصهاينة على أنه ممكن فقط من خلال الوصول إلى ((الحدود الآمنة)) والمعترف بها عن طريق العمليات العسكرية الإرهابية الضخمة ضد الوسط العربي المحيط بها. وتعدّ ضرورة الحفاظ على النهج السياسي الصهيوني العدواني من أهم المبادئ التي تتطلبها مسألة ((البقاء)) بالنسبة للصهاينة.

منذ الأيام الأولى لوجود الكيان الصهيوني، طالب الصهاينة الإسرائيليون بجعل الجماعات اليهودية في مختلف أنحاء العالم تابعة لهم بشكل أو بآخر وتسخيرها لخدمة الكيان الصهيوني ومصالحه. وانحصرت دعاية مركزية ((إسرائيل)) ودورها بالنسبة لـ ((يهود الشتات)) في فكرة الهجرة الأكيدة لليهود إلى الكيان الصهيوني و((الولاء المزدوج)) لليهود الذين لا يرغبون بالهجرة إليه، وأخيراً بضرورة التخلص نهائياً من ظاهرة ((الشتات))، الذي يعدّه الزعماء الصهاينة الإسرائيليون لجوء مرحلي لليهود من ((أرض الميعاد)) ولا بدّ من عودتهم إليها ولو بعد حين.

وتوضعت المبادئ الأساسية للصهيونية في أساس جميع الوثائق والقوانين السياسية والشعارات التي تبنتها ((الدولة اليهودية الوليدة)) وامتلكت صفات متميزة مع تطور الكيان الصهيوني. وهنا لا بدّ من التذكير بمقطع حول أحد أهم قضايا السياسات الصهيونية -إقامة ((الدولة اليهودية)) حيث شغلت مكانه الآن نظرية ((الدور الجديد))

للكيان الصهيوني كمكان ((لجمع كافة المهاجرين اليهود)) في وطنهم ((التــاريخي)). وجرى تبني هذه النظرية كهدف رئيسي وأساسي للصهيونية العالمية[٤٦].

ووجد تطابق النشاطات التي يقوم بها الكيان الصهيوني مع المهام التـــي تقــف أمــام الصهيونية العالمية (وكذلك محاولات الأيديولوجيين الصهاينة التطابق مــع صــهاينة اليهود جميعاً نظرياً وعملياً وكذلك نظرية ((وحدة الشعب اليهودي وإسرائيل)) انعكاساً له في أول وثيقة صدرت عن الكيان الصهيوني ((إعلان قيام دولة إسرائيل))، الذي تم اتخاذه في ١٤ أيار ١٩٤٨م،[٤٧]، وقد حدد الإعلان ((إسرائيل)) كـــ ((دولة يهودية)) تمثل ((الشعب اليهودي)) في فلسطين وفي العالم كله). وتضمَّن نداء إلى يهود العــالم للتوحد حول ((إسرائيل)) في مجال ((الهجرة وتطوير الدولة)) والوقوف إلى جانبهــا في ((نضالها الدؤوب لتحقيق حلم الأجيال بولادة إسرائيل))[٤٨]. كما تضمَّن الإعــلان أيضاً ((الحقوق الطبيعية والتاريخية للشعب اليهودي في فلسطين[٤٩].

تكريس آخر في القوانين الصهيونية الأساسية، جاء في مظهر برنامج نشــاط الكيــان الصهيوني، ووجد انعكاساً له في القوانين الهامة الأولى التي تبناها هذا الكيان نــذكر منها ((قانون العودة لعام ١٩٤٩م)) و((قانون المواطنة لعام ١٩٥٢م)) وهذه القــوانين تعدّ في الواقع العملي تدخلاً في الشؤون الداخلية للدول، ومخالفة للقوانين والشــرائع الدولية. زد على ذلك، أن هذا يعدّ محاولة لتحويل ((المواطنة الإسرائيلية)) إلــى أداة دولية للاعتراف بـــ ((إسرائيل)) ((دولة يهود العالم كله)) ودعاية لفكــرة ((الــولاء المزدوج)) لـــ ((يهود الشتات)) كطاقة سكانية لـــ ((الدولة اليهودية)) والتي تعني في واقع الحال المطالبة الالتزام بتقديم الدعم من قبل المنظمات الصـــهيونية والجماعــات اليهودية للكيان الصهيوني في جميع المجالات.

معلنة وجود قسم من ((الشعب اليهودي على أرض إسرائيل التاريخية)) تولي تل أبيب أهمية بالغة لقضية ((الارتباط المتبادل)) بين المراكز الصهيونية الدوليـــة، والكيــان الصهيوني. وجاء إعداد وثيقة خاصة تتضمن هذه المراكز ودورها ومكانتها في الكيان

الصهيوني وطبيعة العلاقات القائمة بينها وبينه. وبالارتباط مع هذا طرحت قضية شكل هيكلية النشاطات المتبادلة بين المنظمة الصهيونية العالمية، والكيان الصهيوني قبل كل شيء. ورأى دافيد بن غوريون أول رئيس وزراء للكيان الصهيوني وزعيم الحزب الحاكم (ماباي) أن ((المنظمة الصهيونية العالمية لم تعد منظمة غير مجدية منذ لحظة قيام الدولة، وتقف أمامها مسائل وأهداف أكثر اتساعاً وشمولية. وتكمل الدولة والحركة الصهيونية بعضهما البعض))[٥٠].

في سبيل تنسيق النشاطات والفعاليات بين الحكومة الصهيونية والمنظمة الصهيونية العالمية تم إنشاء مجلس خاص عام ١٩٥٠م، أطلق عليه اسم مجلس التنسيق دخل في تركيبه ممثلون عن الكيان الصهيوني، والمنظمة الصهيونية العالمية. وجرى في الوقت نفسه الإعداد لتقسيم المهام بين الحكومة الصهيونية والمنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية. ولم تجر هذه العملية بسهولة، وتملك هذه العلاقات بالنسبة للقيادات الإسرائيلية في صيغة محددة أهمية خاصة، وتطرح تساؤلاً حول مركزية ((إسرائيل)) في الحركة الصهيونية. وكان دافيد بن غوريون والموالون له ضد إعطاء المنظمة الصهيونية العالمية وضعاً خاصاً في ((الدولة)) وفي تحديد هذه المنظمة وجعلها ((ممثلة للشعب اليهودي)). ويرى بن غوريون وجماعته أن المنظمة الصهيونية العالمية بهذا الشكل تمثل ((سلطة أكبر من دولة إسرائيل))[٥١].

خلال المؤتمر الثالث والعشرين للمنظمة الصهيونية العالمية، والذي يعدّ المؤتمر الأول بعد إعلان قيام الكيان الصهيوني وبصرف النظر عن انبعاث مؤيدي دافيد بن غوريون، تم اتخاذ قرار بضرورة ((تمثيل المنظمة الصهيونية العالمية في الكيان الصهيوني ومنحها وضعاً خاصاً))[٥٢]. وفي هذه الوثيقة أعلنت المنظمة الصهيونية العالمية ((مثلاً للشعب اليهودي)). جرى تحديد جملة من المسائل والقضايا التي هي من اختصاصها، وترتبط بـ ((المشاركة المنظمة ليهود الشتات في بناء البلاد وانبعاثها، والإسراع في امتصاص المهاجرين واستيعابهم))[٥٣]. وجرى التأكيد في

القرار على ضرورة تنسيق نشاطات المنظمة الصهيونية العالمية مع الكيان الصهيوني (بمعنى دار الحديث هنا عن مكان القيادة الإسرائيلية في نظام الصهيونية). وحسب زعماء المنظمة الصهيونية العالمية، كان من الواجب تثبيت هذه التركيبة من خلال إعطائها الدور القيادي للمنظمة الصهيونية العالمية في ((الشتات))، وقد حدد القرار التوجهات الرئيسية لنشاطات المنظمة الصهيونية العالمية، والوكالة اليهودية داخل الكيان الصهيوني. وجرى الحديث عن ضرورة وضع حدود لهذه النشاطات باتفاقية خاصة بين اللجنة التنفيذية في المنظمة الصهيونية العالمية –الوكالة اليهودية، وحكومة الكيان الصهيوني.

امتلك قرار المؤتمر الثالث والعشرين للمنظمة الصهيونية العالمية، الذي يقول بضرورة القيام بالنشاطات والفعاليات العملية للمنظمة في ((إسرائيل)) بالتجاوب مع قوانين البلاد الداخلية ومراقبتها من قبل الحكومة الإسرائينية أهمية خاصة جداً. وبالتجاوب مع هذا القرار رسخت المنظمة الصهيونية العالمية من صلاحياتها الإضافية الخاصة كممثل لليهود في بلدان العالم. وتمكنت من تحديد ((وضعها الخاص)) داخل الكيان الصهيوني. كما شكّل هذا القرار من ناحية أخرى الأساس لإصدار القانون الأساسي في ٢٤ تشرين الثاني عام ١٩٥٢م، حول وضع المنظمة الصهيونية العالمية –الوكالة اليهودية بالنسبة للكيان الصهيوني. والذي صيغت فيه بصورة رسمية المبادئ القانونية الأساسية للشراكة، وثبتت فيه العلاقات ((الخاصة)) بين حكومة الكيان الصهيوني، والمنظمة الصهيونية العالمية –الوكالة اليهودية، وجرى تحديد وظائفها[٥٤].

حصلت المنظمة الصهيونية العالمية في الكيان الصهيوني على حقوق خاصة، وعلى صلاحيات التحرك كجهة قانونية تمتلك حقوق إقامة الاتصالات الحرة، وحق التملك الكامل، الإدارة، ونزع الملكية. وحررت ميزانيات اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية ومؤسساتها الأخرى من الواجبات الضريبية والتبرعات الحكومية.

حددت الاتفاقية الخاصة الموقعة في ٢٨ تشرين الثاني عام ١٩٥٤م، بالتفصيل وظائف اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية – الوكالة اليهودية، كجهة قانونية تمتلك وضعاً خاصاً في الكيان الصهيوني، وسعت الحكومة الصهيونية إلى تحديد مجالات نشاط الوكالة اليهودية على أرض الكيان الصهيوني. وتضمنت الاتفاقية عشر وظائف للوكالة اليهودية انحصرت في الأساس في تفعيل الهجرة إلى الكيان الصهيوني وتنشيطها، وتمويل متطلبات امتصاص واستيعاب المهاجرين اليهود، والمساعدة في تطوير الاقتصاد والتعليم والثقافة داخل الكيان الصهيوني وتنسيق هذه النشاطات وتمويلها بالكامل(٥٥).

وأكدت الاتفاقية على الوضع الخاص، الذي تتمتع به الوكالة اليهودية في الكيان الصهيوني، وحررتها من السياسات الضريبية. وأُقيمت اتصالات متراصة بين الوكالة اليهودية والمؤسسات الحكومية في الكيان الصهيوني بموجب الاتفاقيات الموقعة مع الوزارات الصهيونية المختصة. وتساوى وضع قادة الوكالة اليهودية مع وضع أعضاء الحكومة الصهيونية. غير أن دور الوكالة اليهودية وأهميتها أصبح -إذن- دور الشريك للحكومة الصهيونية.

بعد حصولها على ((وضع خاص)) في الكيان الصهيوني، وعلى حق النشاط والتحرك وسط جميع الجماعات والجمعيات والمنظمات اليهودية لخدمة المصالح الصهيونية والكيان الصهيوني، تحولت المنظمة الصهيونية العالمية -الوكالة اليهودية في الواقع العملي إلى وسيط وقاطرة دفع لتأمين مصالح الكيان الصهيوني وضمانها.وبهذا المعنى بالذات، ووفقاً لهذا الاتجاه، وصف دافيد بن غوريون المنظمة الصهيونية العالمية بالنسبة إلى الحكومة الصهيونية بقوله: ((تحدد صلاحيات الدولة ذات السيادة وحدودها فقط من قبل مواطنيها... نشاطات المنظمة الصهيونية العالمية مبنية على أساس التعاون الطوعي وقادرة على الوصول إلى ما هو أبعد من حدود الممكن، وصلاحيات

الحكومة في هذا المجال. والمنظمة الصهيونية العالمية على الأغلب أعلى من الدولة))[٥٦].

العامل الذي يحدد توجيه نشاطات الصهيونية العالمية هو أن الحكومة الصهيونية والأوساط القيادية في المنظمة الصهيونية العالمية، حسب ما ترى جيروساليم بوست ((تقاد من قبل قيادة صهيونية واحدة))[٥٧]. ويحقق هذا تعاوناً متراصاً بين البرجوازية من أصل يهودي في الكيان الصهيوني وخارجه.

في عام ١٩٥١م، تم تبني ((برنامج القدس)) خلال انعقاد جلسات المؤتمر الثالث والعشرين للمنظمة الصهيونية العالمية، الذي رسخ بصورة نهائية مكانة ((إسرائيل)) كمركز أساسي للمنظمة الصهيونية العالمية، وخلال المؤتمر الرابع والعشرين للمنظمة الصهيونية العالمية (نيسان – أيار ١٩٦٥م)) تمت الموافقة على إعادة بناء هيكلية المنظمة الصهيونية العالمية بهدف توسيع صفوفها وزيادة تأثيرها وسط اليهود في مختلف دول العالم. كما أولت المنظمة الصهيونية العالمية خلال مؤتمرها الخامس والعشرين (كانون الأول ١٩٦٠م – كانون الثاني ١٩٦١م)، اهتماماً خاصاً بقضية التمويل المالي لهجرة اليهود إلى الكيان الصهيوني. وناقش الزعماء الصهاينة مسألة ((انعطاف شباب الشتات عن الصهيونية))[٥٨].

وجاءت الخطوة الدورية التالية في ((ربط الجماعات اليهودية مع إسرائيل والصهيونية)) في بلاغ حكومة ليفي إشكول، واللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية، الذي صدر في آذار ١٩٦٤م، حيث تضمن هذا البلاغ برنامجاً عملياً عاجلاً، يهدف إلى صهينة الجماعات اليهودية، وإعادة النظر من قبل القيادة الصهيونية بعلاقاتها مع ((يهود الشتات)) واعتبار وجودهم هناك ((حالة مؤقتة)). وتطورت هذه الفكرة لاحقاً خلال انعقاد المؤتمر السادس والعشرين للمنظمة الصهيونية العالمية (كانون الأول ١٩٦٤ – كانون الثاني ١٩٦٥م)، الذي عقد تحت شعار ((وجهنا نحو الشتات)). مشيراً إلى خطر ((الانقسام الديني)) بين اليهود، وقد أعلن المؤتمر عن

بداية ((عصر جديد)) في التعاون بين الكيان الصهيوني و((يهود الشتات)) في مجال ((تقديم المساعدات لليهود ضد أعداء السامية)).بعد عدوان الخامس من حزيران ١٩٧٦م، واحتلال مساحات جديدة من الأراضي العربية، غدت ماهية وكنه رجعية النظام الصهيوني داخل الكيان الصهيوني أكثر وضوحاً[٥٩]. وبدأت الأوساط القيادية في المنظمة الصهيونية العالمية تعدّ برنامج ((عصر جديد)) لتطوير الصهيونية بشكل يجعلها أكثر عدوانية وأكثر تطرفاً. وانعكس تبني ((البرنامج الإسرائيلي الجديد)) خلال المؤتمر السابع والعشرين للمنظمة الصهيونية العالمية في استمرار تزايد تأثير ((نظام المركز الإسرائيلي))، الذي يسعى إلى فرض حالة الهيمنة الإسرائيلية في المنطقة. وجرت صياغة ((أهداف جديدة)) وضعت أمام المشاركين في المؤتمر، في مظهر المسائل الملحة والهامة للصهيونية وحددت في البرنامج الذي تم تبنيه المسائل التالية:

١- تكريس وحدة ((الشعب اليهودي)).

٢- جمع ((الشعب اليهودي)) على ((أرض وطنه التاريخية - إريتس إسرائيل)).

٣- تمكين ((دولة إسرائيل)) وتقويتها كأساس لضمان ((مبادئ السلام والعدالة)).

٤- الحفاظ على الصفات الخاصة المميزة ((للشعب اليهودي)) عن طريق تطوير التعليم اليهودي.

٥- الدفاع عن ((حقوق اليهود)) في كل مكان[٦٠].

وأقر المؤتمر السابع والعشرون للمنظمة الصهيونية العالمية في مظهر إعداد الظروف المناسبة لسياسات الاحتلال الجديدة، أن الهجرة الجديدة يجب أن تكون موجهة نحو الأراضي العربية المحتلة، والتحرك السريع لزيادة وتقوية الجيش الصهيوني[٦١].

ومن جديد ارتبطت مسألة الهجرة اليهودية مع توطين المهاجرين اليهود في الأراضي العربية المحتلة، خلال المؤتمر الثالث والعشرين للمنظمة الصهيونية العالمية (١٨-٢٨ كانون الثاني ١٩٧٢م). وفي سبيل إدخال حالة الشعور بالعداء والعنصرية الشوفينية إلى أوساط اليهود في بلدان العالم المختلفة، تمت المطالبة من جديد بتمويل ضم عدد

أكبر من الجماعات اليهودية إلى ((إسرائيل))[٦٢]. كما جرى تبنـي جميـع مقـررات مؤتمر المنظمة الصهيونية العالمية تقريباً المتعارضة في نصها وروحها مع القـوانين والأعراف الدولية، بقرار من الكنيست الصهيوني صدر في ١٦ آذار ١٩٧٣م، حـول ((حقوق اليهود التاريخية غير المجزأة في إسرائيل))[٦٣].

وارتسمت في الوقت نفسه معالم ابتعاد قسم من الجماعات اليهودية في الخارج خـلال جلسات المؤتمر الثامن والعشرين للمنظمة الصهيونية العالمية عن فكـرة ((مركزيـة إسرائيل)) بشكل عام، بما في ذلك عن الوضع الأساسي ((برنامج القـدس الجديـد)) حول ((حتمية العودة من مختلف بلدان العالم)). وبدأت الجماعات اليهودية المتواجـدة في الدول الغربية الكبرى العمل بفاعلية ونشاط للحصول على اعتراف ((إسـرائيل)) بحقهم في الوجود المستقل عن ((الدولة اليهودية)). وفي المؤتمر الثـامن والعشـرين للمنظمة الصهيونية العالمية، طرحت الفقرة المتعلقة بضرورة الهجرة إلى ((إسرائيل)) من جانب حكومة الكيان الصهيوني فقط. ولم يطلق على ((يهود الشتات)) في قرارات هذا المؤتمر اسم ((المشردين))[٦٤].

أدّت حرب تشرين التحريرية ١٩٧٣م، إلى زيادة عزلة الكيان الصهيوني من الناحيـة العملية، وعمقت من الأزمة السياسية في داخله في وقت تزايدت فيه النزعة الشوفينية الصهيونية عمقاً ورسوخاً[٦٥]، وفي عام ١٩٧٧م، وصل إلى السـلطة فـي الكيـان الصهيوني تكتل اليمين المتطرف ((الليكود)). وعدّ انتقـال السـلطة مـن الأحـزاب الاشتراكية الصهيونية إلى الأحزاب البرجوازية انعكاسـاً لتزايـد القـوة السياسـية والاقتصادية للبرجوازية الصهيونية داخل هذا الكيان. وترتب على هذه الحالة وقـوع حركة انزياح جديدة من مختلف التوجهات اليمينية لدى مختلف التنظيمات الصهيونية المتواجدة في مختلف أنحاء العالم.

وظهرت التعارضات والتناقضات، وتولّد شعور بالأزمة في الأيديولوجيـة والسياسـة الصهيونية، بتوسيع الفارق بين القوى الصهيونية المتعصبة، والقوى ((الواقعية)) لدى

القسم الأعظم من اليهود في مختلف بلدان العالم، وعدم حيوية الطروحات الصهيونية بما فيها ((المركزية الإسرائيلية)).

وجدد التزايد المستمر في سياسة تل أبيب العدوانية أسطورة الدعاية الصهيونية حول ((رفض البلدان العربية وجود إسرائيل والخطر الذي يهدد بوجود الدولة اليهودية)). وأدّى تطرف القادة الصهاينة ومجازفتهم ولاسيما جماعات مناحيم بيغن وإسحاق شامير إلى زيادة حدة معارضة الكيان الصهيوني في الخارج بما في ذلك لدى بعض الجماعات اليهودية. وتعمقت بشكل مستمر الأزمة الاقتصادية والسياسية والمعنوية – النفسية داخل الكيان الصهيوني. وكاد أن يتكرس الاعتقاد لدى حكومة ((الوحدة الوطنية)) بأن القسم الأعظم من الناس في كل أنحاء العالم يرون أن الصهاينة يقودون المجتمع الصهيوني نحو حالة الإفلاس والضياع، ولا تستطيع أي حملة دعائية مهما كانت قوية، ولا أي خطوات تكتيكية تغطية الانهيار التام للوعود الصهيونية بإقامة ((مجتمع المساواة والعدالة)) في الكيان الصهيوني. وعلق أحد الزعماء الصهاينة (م. بارأون) على ذلك بقوله:

((منيت الصهيونية المعاصرة بهزيمة منكرة وفق المعيار الأساسي لها: أي مسألة إقامة المجتمع المثالي بنواته الاشتراكية في الاقتصاد الزراعي في صورة الكيبوتز حامل الأيديولوجية الصهيونية، وجمع يهود العالم كله، والقضاء على ظاهرة التشرد))[٦٦].

وبدت محاولات الزعماء الصهاينة في وضع إشارة للمساواة بين مثل هذه المفاهيم كـ ((اليهود)) و((دولة إسرائيل)) و((الصهيونية)) غير ممكنة على الإطلاق، والقسم الأعظم من اليهود في العالم لا يطابقون أنفسهم مع ((إسرائيل)) ويرفضون دعم سياستها (على الأقل ظاهرياً). وتبدو هذه الظاهرة بشكل خاص في ابتعاد ((يهود الشتات)) عن مبدأ ((وحدة مصيرهم)) مع مصير الكيان الصهيوني. كما اعترف الباحث الصهيوني م. ديفيس عام ١٩٧٧م، بأن ((معنى المصير المحتوم يقتصر فقط

على أقلية صغيرة من اليهود. في حين يعتقد القسم الأعظم من اليهود باستقلالهم ووجودهم عن وجود إسرائيل))[٦٧].

خلال السبعينيات والثمانينيات وضع منظرو ((الصهيونية في الشتات)) في سبيل خدمة مصالح البرجوازية اليهودية الكبرى في بلدانهم في مقدمة مخططاتهم وبرامجهم أكثر فأكثر تطوير ((علاقات جديدة)) بين الكيان الصهيوني والجماعات اليهودية في العالم وفق برنامج ((طويل الأمد ويمتلك امتداداً تاريخياً))[٦٨]. وشغلت الجماعات اليهودية الأمريكية مكاناً خاصاً في علاقات الكيان الصهيوني مع ((يهود الشتات)). ويعود الاختلاف في وجهات النظر بين المنظمات الصهيونية في المقام الأول إلى محاولات قسم من أبناء البرجوازية الأمريكية من أصل يهودي توجيه نشاطات وفعاليات الصهيونية العالمية. وقيادة الجماعات البرجوازية الأمريكية اليهودية المنظمة ليست راضية عن مسألة امتلاك الأوساط الحاكمة في الكيان الصهيوني (كما في السابق) الكلمة الفصل في توجيه أعمال الصهيونية ونشاطاتها.

وتواجه مساعي الحكومة الصهيونية لضمان التأييد التام لنهجها من جانب المنظمات الصهيونية باحتجاج مجموعة من زعماء المنظمات الصهيونية في الغرب. وحسب اعتراف رئيس القسم الأمريكي في المنظمة الصهيونية العالمية –الوكالة اليهودية، ورئيس الصندوق ((القومي)) اليهودي في الولايات المتحدة الأمريكية، ش. جيكوبسون فإن ((المشكلة الأساسية تبقى في قرار إسرائيل عدم تقاسم قيادة الحركات الصهيونية مع الشتات))[٦٩].

وجدت التعارضات والتضاربات داخل الصهيونية العالمية لنفسها انعكاساً محدداً في أعمال المؤتمر التاسع والعشرين للمنظمة الصهيونية العالمية ومقرراته، والذي عقد في بيت المقدس عام ١٩٧٨م.

وبضغط من قبل الكثير من زعماء المنظمات الصهيونية في الخارج تم الاعتراف بحق يهود مختلف بلدان العالم رفض الهجرة إلى الكيان الصهيوني. كما جرى في

الوقت نفسه إقرار حول استحالة وجود ((إسرائيل)) من دون مساعدة ((يهود الشتات)). وتمثل كلمات هذه الفقرة انعطافاً كاملاً عن الفقرة التي تقول: ((إن يهود الشتات بأمس الحاجة إلى دولة إسرائيل)). وهذا يعني إعادة النظر في النزعة الصهيونية.

في المؤتمر التاسع والعشرين للمنظمة الصهيونية العالمية تمكن زعماء اليهود في ((الشتات)) من انتزاع عدد من التنازلات من جانب الحكومة الصهيونية حول مجموعة من المسائل والقضايا المتعلقة ليس فقط بالتكتيك الصهيوني في الحقبة المعاصرة، بل وكذلك بالسياسة الداخلية الإسرائيلية، وسمعت في المؤتمر احتجاجات حادة على عدم المساواة بين اليهود الشرقيين في الكيان الصهيوني في مستوى تمثيلهم المنخفض في الدوائر والمؤسسات الحكومية الإسرائيلية، ومؤسسات المنظمة الصهيونية العالمية. ودفع خطر زيادة التضاربات الإثنية في المجتمع الصهيوني قيادة المنظمة الصهيونية العالمية إلى إعطاء اهتمام أكثر من السابق بتعديل حالة عدم المساواة في الحياة الاجتماعية والإثنية في المجتمع الصهيوني[٧٠].

وبموجب حالة الأحزاب الاجتماعية -الصهيونية، وبدعم من قسم كبير من الزعماء الصهاينة، خارج الكيان الصهيوني، اتخذ المؤتمر قراراً حول ((حرية العقيدة))و((المساواة في الحقوق بين مختلف الاتجاهات الدينية اليهودية)). ويعدّ هذا انعكاساً لعدم رضى ((يهود الشتات)) على قوة الحاخامات الأرثوذكس، والأحزاب الأرثوذكسية اليهودية في الكيان الصهيوني، وكذلك في مؤسسات المنظمة الصهيونية العالمية -الوكالة اليهودية.

ولا يطال التناقض التكتيكي والتناقضات والتعارضات بين الجماعات المستقلة للصهيونية العالمية، وكذلك مختلف الأحزاب الصهيونية، ونشطاء الصهيونية من المستقلين، أساس السياسة الصهيونية التي تمارس في الكيان الصهيوني. وهكذا فقد دعم المؤتمر التاسع والعشرون للمنظمة الصهيونية العالمية، وبصوت واحد،نهج

السياسات الخارجية الذي اتبعته حكومة الليكود، واتخذ قراراً بـ ((منح الثقة للحكومة الإسرائيلية)). وأكد المؤتمر من جديد على ((حق الشعب اليهودي الثابت في أرض إسرائيل)) وأن ((القدس جزء من أرض إسرائيل)). واعترف المؤتمر بأولوية وأهمية إقامة المستوطنات (في الأراضي العربية المحتلة) في المناطق التي تضمن عملية السيطرة عليها ((أمن إسرائيل)). وقدم المؤتمر للحكومة الصهيونية بموافقة على هذا القرار إمكانية ((حق انتقاء)) المناطق التي تراها مناسبة لضمان ((أمنها)).

أدى تزايد حدة السياسة الصهيونية العدوانية في عام ١٩٨٢م، إلى عدوان واسع النطاق على لبنان، شنه الجيش الصهيوني، وعكس مدى خطورة المخططات الصهيونية المحمومة التي عكست حقيقة النوايا التوسعية للقيادات الصهيونية في تل أبيب[٧١].

في سبيل تدارك النتائج السلبية التي ترتبت على عملية الغزو الصهيوني للبنان لجأت القيادة الصهيونية إلى اتباع سياسة تكتيكية موحدة ((مع يهود الشتات)) أثناء العدوان، سارت وفق خطة كانت الغاية من تطبيقها إظهار عدم رضى قسم من اليهود في مختلف بلدان العالم على سياسات الغزو الإسرائيلية في محاولة لامتصاص النقمة والمعارضة الدولية ضد العمل الصهيوني.

ومنذ بداية العدوان الصهيوني على لبنان عام ١٩٨٢م، أوقفت المنظمة الصهيونية العالمية عملية تمويل الحملات الدعائية المخصصة لدعم ((إسرائيل)). وبدأت في الوقت نفسه عملية جمع المساعدات بهدف تمويل قسم من النفقات المالية المترتبة على الحرب على لبنان. وتلقت نداءاً من الكيان الصهيوني يطالبها ((بإرسال مبلغ إضافي من المال يزيد على ١٠٠ مليون دولار مقبل نهاية العام))[٧٢].كما ((وصل إلى الكيان الصهيوني ما يقارب ٨٠٠ متطوع من اليهود الأمريكيين لشغل بعض أماكن العمل التي أخليت من اختصاصيين مؤقتاً بالجيش الإسرائيلي))[٧٣].

ووجه الزعماء الصهاينة في الغرب جلّ احتجاجاتهم المعلنة خلال الحرب على لبنان ضد بيغن وشامير، اللذين صوروا اليهود على حد قولهم في عيون العالم كقتلة متعطشين للدماء وكأن المسؤولية في هذا العدوان الصهيوني الغاشم هي مسؤولية أفراد لا مسؤولية كيان عنصري ومتعطش دائماً للقتل والتدمير.

في خطوة تكتيكية تالية لإنقاذ سمعة الصهيونية في الغرب بسبب الممارسات الإسرائيلية في لبنان، اتخذت مجموعة من الجماعات والجمعيات اليهودية في بريطانية موقفاً معارضاً لسياسة الحكومة الإسرائيلية في لبنان وتظاهرت الأوساط ((الليبرالية)) في هذه الجماعات بتوحيد منظماتها في مجموعة اشتراكية يهودية وقيادة مؤيدة للسلام الإسرائيلي -الفلسطيني. وعقدت عدداً من المؤتمرات ((أدانت)) فيها نشاطات زعماء الليكود. و((احتجت)) فيدرالية النساء الصهيونيات على الهجوم الإسرائيلي على لبنان، وأعلنت رئيسة هذه الفيدرالية ب. كيتين في اجتماع منظمتها ربيع عام ١٩٨٣م، ((أن الحرب في لبنان ستجعل معاداة السامية شرعية، وستؤدي إلى انشقاق الجماعات اليهودية.. وإلى ظهور عقبات خطيرة في نشاطات الفيدرالية))[٧٤]. وفي حزيران ١٩٨٢م، كتب ٦٠٠ أمريكي يهودي (منهم أربعون حاخاماً) في صحيفة نيويورك تايمز نداء دعوا فيه حكومة الليكود إلى سحب قواتها من لبنان وبدء محادثات مع الفلسطينيين على أساس الاعتراف المتبادل[٧٥].

ووصلت موجة الاحتجاجات التكتيكية والملفقة إلى الذروة أثناء انعقاد المؤتمر الثلاثين للمنظمة الصهيونية العالمية الذي جرى في كانون الأول ١٩٨٢م، وحسب رأي القسم الأعظم من المشاركين فيه بأن المؤتمر ((مني بالفشل التام))[٧٦]. واضطر الزعماء الصهاينة إلى الحديث عن أن الصهيونية تعاني أزمة حقيقية، وعن ضرورة إحداث إعادة بناء كاملة في نظام الصهيونية العالمية، وإعادة النظر في طرائق نشاطات المنظمة الصهيونية العالمية: ((على الحركة الصهيونية أن تعيد تشكيل نفسها من جديد كي تكون قادرة على الاستمرار))[٧٧].وكتبت صحيفة الصهاينة الإنكليز ((جوشي

كرونيكل)) أنه ((على الرغم من أن المؤتمرات الأخيرة للمنظمة الصهيونية العالمية في عامي١٩٧٢ و١٩٧٨م، أظهرت ضرورة إعادة تشكيل الحركة الصهيونية، فإن المؤتمر الثلاثين أظهر بشكل أوضح ضرورة هذه العملية))[٧٨].

ويمكن ملاحظة واحدة من مظاهر الأزمة التي عاشتها الصهيونية آنذاك على المستوى الداخلي، لكنها ارتبطت بالسياسات الداخلية التي كانت تمارسها حكومة الليكود بزعامة مناحيم بيغن. وقد بلغ عدد مقاعد ممثلي الليكود في المؤتمر الثلاثين للمنظمة الصهيونية العالمية ٢٤٢ مقعداً في وقت حصلت فيه أحزاب المعارضة (الصهاينة الاجتماعيون، حركو الدفاع عن حقوق المواطنين، شينواي) فقط على ١٥١ مقعداً، في حين امتلكت الأحزاب المستقلة والمنظمات اليهودية في ((الشتات)) المقاعد الباقية وعددها ٢٦٣ مقعداً. وطالب الليكوديون المؤتمر بدعم نهج السياسات الداخلية الذي تتبعه تل أبيب. غير أن غالبية المشاركين (١٩٠ مشاركاً ضج ١٨٣) وافقت على اقتراح تقدمت به حركة الدفاع عن المواطنين والمابام يقضي بتوزيع المساعدات المالية التي تقدم للكيان الصهيوني عبر الوكالة اليهودية ((للمحتاجين)) في أحياء ((المدن الإسرائيلية))، وليس من أجل تمويل حركة الاستيطان في الأراضي العربية المحتلة حسب ادعاء المؤتمرين[٧٩].

ولدى مناقشة مسألة الاستيطان في الأراضي العربية المحتلة تم التوصل إلى مشروع حل وسط (عد هزيمة لجماعة الليكود) يقضي بعد اتخاذ قرار حل مسألة استمرار استيطان في الضفة الغربية. وبهذا الشكل يكون المؤتمر أيد تجميد الاستيطان في الأراضي العربية المحتلة، وتوسيع الاستيطان في المستوطنات الصغيرة داخل ((إسرائيل)) نفسها[٨٠].

ولم تتمكن الأوساط الحاكمة في تل أبيب أيضاً من اتخاذ قرار بالنداء الذي أطلقه ((الرئيس الإسرائيلي)) ي. نافون إلى ((الصهاينة الحقيقيين)) ليكونوا على استعداد للهجرة إلى ((إسرائيل))[٨١]. وبدت القيادة الصهيونية غير قادرة على ضمان استمرار

الهجرة، وممولو المنظمات الصهيونية المركزية والمحلية. وتثبت وثائق المؤتمر ((أن المؤتمرين توجهوا لمرتين متتاليتين بالرجاء إلى زعماء (يهود الشتات) لدعم عقيدة عالياً))[٨٢]. واضطر ر. كوتلوفيتش مدير قسم الهجرة في الوكالة اليهودية إلى عدم مراعاة جانب السرية، وأعلن ((أن وضع الهجرة اليهودية إلى ((إسرائيل)) في اسوأ حال له منذ خمسة وعشرين عاماً))[٨٣].

عاكساً القلق المتزايد لدى الزعماء الصهاينة من الهجرة المتزايدة من الكيان الصهيوني إلى الخارج، توجه المؤتمر الثلاثين للمنظمة الصهيونية العالمية إلى ((المهاجرين الذي غادروا إسرائيل والذين يقيمون بشكل دائم في الخارج بالعودة إلى إسرائيل))[٨٤].

وأخيراً يمكن القول إن ((ارتخاء العقد الأيديولوجية)) الظاهري لا يعني على الإطلاق إضعاف الوحدة المتينة التي تربط المنظمات الصهيونية بجميع أشكالها، وأينما وجدت، مع الكيان الصهيوني. وعادت المنظمة الصهيونية العالمية في آخر جلسات مؤتمرها الثلاثين إلى تأييد استمرار عملية الاستيطان في الأراضي العربية المحتلة[٨٥]. وأعلنت تأييدها الكامل لمنهج السياسات الخارجية التي يتبعها الكيان الصهيوني. وتلتقي المنظمة الصهيونية العالمية مع المنظمات اليهودية والصهيونية في تأييد السياسة العدوانية التي تنتهجها تل أبيب، ولا غرابة في ذلك، فعملية تقاسم الأدوار بين أقطاب الصهيونية تتطلب ذلك.

الخاتمة:

بعد هذا العرض التاريخي لتطور العلاقات المتبادلة بين الثالوث الصهيوني في جوانبها المختلفة، وضع النتائج التالية:

١- جعلت الأيديولوجية الصهيونية من الثالوث الصهيوني تكتلاً واحداً غايته تحقيق الأهداف والتطلعات الصهيونية التي من أهمها: خلق ((قومية للشعب اليهودي))، الذي لا وجود له في التاريخ البشري إلا كاتباع عقيدة دينية يسمون اليهود، وينتمون إلى شعوب وأعراق مختلفة، ولا تربطهم بعضهم

ببعض إلا العقيدة الدينية. واختراع ((ثقافة قومية ذاتية للعشب اليهودي العالمي))على قاعدة ما تحتويه التوارة من أساطير مع كل ما دخل عليها من تحريف وتزوير، ويعطي هذا الوضع المسوّغ للقول إن الثالوث الصهيوني يتعامل مع يهود العالم على ضوء العلاقات الضيقة لليهود، هذا إن وجدت في الواقع، بدلاً من ربطهم بتاريخ الدول التي يعيشون فيها، ويشكلون جزءاً ولا يتجزأ من شعوبها.

٢- كانت الصهيونية الأمريكية وراء إنشاء المؤتمر اليهودي العالمي، وبواسطته بسطت سيطرتها الحقيقية على المنظمة الصهيونية العالمية التي بقيت تعد أكبر تنظيم صهيوني حتى أواسط الثلاثينيات، وأجبرت زعيمها الصهيوني الإنكليزي حاييم وايزمان على الاستقالة من منصبه. وبذلك وضعت الصهيونية الأمريكية يدها على مفاصل التحكم بتوجيه وقيادة الجماعات والجمعيات والمنظمات اليهودية في جميع أنحاء العالم، الأمر الذي ساعدها في صياغة علاقات التحالف الاستراتيجي غير المعلن مع الإدارة الأمريكية قبيل الحرب العالمية الثانية. وساعدت ((الصهيونية غير اليهودية))[٨٦]، في الولايات المتحدة الأمريكية التي ترعرعت وسط ((الأصولية المسيحية البروتستانتية))، والتي في الحقيقة المسؤولة عن اختراع الصهيونية السياسية، في بلورة هذه العلاقات، ورفدها دائماً بدماء جديدة.

٣- يعدّ الجهل بتاريخ الصهيونية أحد الأسباب لكثير من سوء الفهم الذي يؤثر في القضية الفلسطينية في الغرب. ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى قدرة الصهيونية، منذ وقت مبكر من ظهورها على خلق تيار خفي في الحضارة والثقافة الغربية ملوث بأساطير الصهيونية سواء الدينية منها أو العلمانية. وبذلك استطاعت الصهيونية إقامة خيوط اتصال متينة مع الغرب استخدمتها في الترويج للأيديولوجية الصهيونية على المستويين الرسمي والشعبي، والتي

وصلت إلى درجة تبنيها من قبل العديد من المسؤولين الحكوميين في الدول الغربية. ثم نسجت شبكة متينة من العلاقات بين هذه الدول والكيان الصهيوني، وجعلت من التعهد بحمايته، والدفاع عنه، الصفة السائدة للسياسات الغربية تجاه المنطقة العربية. ورفع مستوى العلاقات بين الكيان الصهيوني، والولايات المتحدة الأمريكية في الثمانينيات إلى مستوى الاتحاد والتحالف الاستراتيجي والعسكري، وغدت واشنطن ((الشريك الروحي)) لتل أبيب.

٤- منذ قيام الكيان الصهيوني في فلسطين العربية عام ١٩٤٨م، والثالوث الصهيوني يدعم بكل ما لديه من طاقات وإمكانات المبدأ الصهيوني القائل بـ ((الدور المركزي لدولة إسرائيل في حياة الشعب اليهودي)). وغدا هذا المبدأ الإطار العام للتعاون بين أقطاب الثالوث الصهيوني الذي يهدف قبل كل شيء إلى تفعيل حركة الهجرة اليهودية إلى الكيان الصهيوني، وتكريس دور هذا الكيان في حياة ما يسمونه ((يهود الشتات))، وتهديد الأراضي العربية المحتلة عن طريق تفعيل حركة الاستيطان الصهيوني فيها إلى أقصى درجة ممكنة، وتغطية نفقات الاستيطان الصهيوني من أموال البرجوازية اليهودية في الدول الغربية بشكل خاص، وتقديم الدعم الكامل لنهج السياسات العدوانية التي تتبعها الحكومات الصهيونية المتعاقبة ضد العرب.

٥- يركز الثالوث الصهيوني جلّ اهتماماته منذ مطلع التسعينيات على تمكين علاقاته مع مجلس الكنائس العالمي، بعدما نجح إلى حد بعيد في ترسيخ علاقاته مع فيدرالية لوثر العالمية، ومع الكنيسة الإنكليزية. ويسعى إلى إدخال نهج اليهودية في حلقات البحث المسيحية، والتأثير على قيادات الأوساط الدينية الكنسية البابوية، ودفع الفاتيكان لتأييد السياسات الصهيونية التي تمارس في مدينة القدس الشريف، على اعتبار أن الكنيسة البابوية تعدّ

الكنيسة الأكثر تأثيراً على العالم المسيحي في الوسط والجنوب الأوروبي، وفي كل مكان ينتشر فيه المذهب الكاثوليكي. كما يولي الثالوث اهتماماً متزايداً بعلاقاته مع البطركية الأرثوذكسية الروسية بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وازدياد دور البطركية الروسية في الحياة السياسية داخل الاتحاد الروسي، في محاولة منه لإقامة شكل من أشكال علاقات التنسيق والتعاون لخدمة المصالح والأهداف والتطلعات الصهيونية، لاسيما بعد ما تبين أن الكنيسة الأرثوذكسية الروسية أصبحت الوعاء الوحيد الذي يجمع أبناء الشعب الروسي ويوحدهم.

الحواشي

(١) تيودور هرتزل (١٨٦٠-١٩٠٤م) مؤسس ما يعرف بالصهيونية السياسية التي تدعو إلى حل المسألة اليهودية عن طريق ضمانات سياسية واعتراف علني من قبل دولة أو مجموعة من الدول بالسيادة الصهيونية على منطقة ما، وإقامة دول فيها. ويعدّ كتاب "الدولة اليهودية Der Judenstaat" الصادر سنة ١٨٩٦م، من أهم الكلاسيكيات الصهيونية التي لها بالغ الأثر في تشكيل الحركة الصهيونية الحديثة وتطورها. للمزيد من المعلومات عن شخصية هرتزل انظر الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الدراسات الخاصة (في ستة مجلدات) المجلد السادس دراسات القضية الفلسطينية الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٠م، ص ٥٤١-٥٤٢.

(2) Политология. Энциклопедический словарь. Изд. Московского Университета. 1993. с. 353.

(٣) للمزيد من المعلومات عن المنظمة الصهيونية العالمية. انظر الموسوعة الفلسطينية، المجلد الرابع (ل– ي) الطبعة الأولى دمشق ١٩٨٤م، ص ٣٢٨-٣٣٣.

(٤) للمزيد من المعلومات عن المؤتمر (الكونغرس) اليهودي والمنظمات اليهودية الأخرى في الولايات المتحدة الأمريكية. انظر الموسوعة الفلسطينية – القسم الثاني، الدراسات الخاصة (في ستة مجلدات)، المجلد الرابع دراسات الحضارة، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٠م، ص ٥٥١-٥٥٢، والمجلد السادس، ص ٣٠٤-٣٠٧.

(5) Chazan R., Raphael M. Modern Jewish History. N. Y. 1974. P.223.

(٦) يعود نجاح الصهيونية– الذي بلغ أوجه في قيام المحيمية الاحتلالية اليهودية في فلسطين– إلى المواهب السياسية والدبلوماسية لليهود الصهاينة من أمثال حاييم وايزمان وإلى طاقاته الجبارة وتصميمه وإخلاصه للصهيونية، ومواهبه في الدبلوماسية والإقناع. انظر كتاب ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية

جذورها في التاريخ الغربي، ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٩٦ كانون الأول ١٩٨٥م، الكويت، ص ١١.

(٧) ناحوم غولدمان هو أحد مؤسسي المؤتمر اليهودي العالمي، ومن أشدّ أنصار إقامة "الوطن القومي اليهودي في فلسطين" حماسة. حضر جميع دورات المؤتمر الصهيوني، وتولى رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية منذ عام ١٩٥٦م، وبعد حرب ١٩٦٧م، أخذ غولدمان ينادي بعدم جدوى تحقيق أمن ((إسرائيل)) عن طريق الاعتماد على القوة العسكرية وبضرورة التفاهم مع العرب. انظر التفاصيل في الموسوعة الفلسطينية ، المجلد الثالث (ص – ك) الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٨٤م، ص ٤١٢.

(8) СИОНИЗМ В СИСТЕМЕ ИМЛЕРИАЛИЗМА. М. НАУКА. 1988. 38.
(9) ТАМ ЖЕ с. 38.
(10) ТАМ ЖЕ с. 39.
(11) ТАМ ЖЕ с. 39.
(12) ТАМ ЖЕ с. 39.
(13) Decisions et Resolutions de la sixiéme Assernblée. Jerusalem 1985, P 23.82.
(14) СИОНИЗМ В СИСТЕМЕ ИМЛЕРИАЛИЗМА. С. 40.
(15) ТАМ ЖЕ с. 41.
(16) ТАМ ЖЕ с. 41.
(17) ТАМ ЖЕ с. 41.
(18) Palestine Studies . Beirut, Spring 1972, N3.
(19) СИОНИЗМ В СИСТЕМЕ ИМЛЕРИАЛИЗМА. С. 42.

(٢٠) يرجع موقف القيادة الحالية في المؤتمر اليهودي العالمي إلى وجهات نظر الرئيس السابق للمؤتمر ناحوم غولدمان (١٩٤٩-١٩٧٧)م، الذي ظل على موقف الصهيونية، واختلف بصورة جدّية (بشكل خاص في أواسط الستينيات) مع القسم الأكبر من الزعماء الصهاينة الآخرين حول مجموعة من القضايا والمسائل التكتيكية والسياسية حتى الأيديولوجية، بالإضافة إلى أنه وصف القادة

الإسرائيليين بالتعنت والممانعة للحيلولة دون حـل قضـية الصـراع العربي الإسرائيلي.

(21) Сионизм В Системе Имлериализма. С. 42.

(٢٢) انظر تفاصيل مشروع ريغن في كتاب تيريز حـداد: القـرارات والمبـادرات الخاصة بالقضية الفلسطينية ١٩٤٧-١٩٨٨م، عمان ١٩٨٨م، ص ٥٨-٥٩.

(٢٣) انظر تفاصيل مقررات مؤتمر بلتيمور الذي عُقد في أيار ١٩٤٢م، في كتـاب إميل توما: جذور القضية الفلسطينية، منظمة التحرير الفلسـطينية، دار الجيـل، دمشق، ١٩٨١م، ص ٢٨٦.

(24) Сионизм В Системе Имлериализма. С. 43.

(25) ТАМ ЖЕ с. 44.

(26) ТАМ ЖЕ с. 44.

(27) ТАМ ЖЕ с. 44-45.

(28) Le C. J. M. Politique et activité. Genéve. P. 71

(29) Сионизм В Системе Имлериализма. С. 45.

(30) Decisions et Réso l utions de la sixiéme Assemblée. P. 5.

(31) Сионизм В Системе Имлериализма. С. 45.

(32) ТАМ ЖЕ с. 46.

(٣٣) الأمم المتحدة، القرارات التي تبنتها الجمعية العامة في دورتها الثلاثين (٦ أيلول – ١٧ كانون الأول ١٩٧٥م) ملحق رقم ٣٤ (أ / ١٠٠٣٤) ص ٨٣-٨٤.

(34) Сионизм В Системе Имлериализма. С. 46.

(35) Pritte I., Nelson W.H. The Economic War Against The Jews. L. 1978. P. 194

(36) Сионизм В Системе Имлериализма. С. 46.

(37) ТАМ ЖЕ с. 47.

(38) ТАМ ЖЕ с. 47.

(39) ТАМ ЖЕ с. 47.

(40) ТАМ ЖЕ с. 47.

(41) ТАМ ЖЕ с. 47.

(42) ТАМ ЖЕ с. 47.

(43) Resolution of the 30[TH] Zionist Congress. Jerusalem. 1981. P.1.
(44) Сионизм В Системе Имлериализма. С. 50.
(45) Lows of the State of Israel. vol. 1., 1948. P.4.
(46) Сионизм В Системе Имлериализма. С. 51.

(٤٧) للمزيد من المعلومات عن مضمون إعلان قيام (دولة إسرائيل) مساء يوم الجمعة ١٤ أيار سنة ١٩٤٨م، انظر كتاب وثائق فلسطين، منظمة التحرير الفلسطينية – دائرة الثقافة ١٩٨٧م، ص ٣١١-٣١٢-٣١٣.

(48) Сионизм В Системе Имлериализма. С. 51.
(49) ТАМ ЖЕ с. 51.
(50) Lieberman Charles S. Pressure Without Sanction. The Influence of World Jewry on Israeli Policy. L., 1977. P. 135.
(51) Kraines O. Government on Politics in Israel. Boston, 1961. P. 22.
(52) Davis John H. The Invasive Place. L., 1968. P. 73.
(53) Сионизм В Системе Имлериализма. С. 52.
(54) ТАМ ЖЕ с. 52.
(55) ТАМ ЖЕ с. 53.
(56) ТАМ ЖЕ с. 53.
(57) ТАМ ЖЕ с. 53.
(58) ТАМ ЖЕ с. 53.
(59) Сионизм - правда и вымыслы. Сборник статей. Вып. 4. М. Прогресс. 1987. с. 100- 106.
(60) Сионизм В Системе Имлериализма. С. 54.
(61) ТАМ ЖЕ с. 54.
(62) New Outlook. October-December 1983, P 24.
(63) Сионизм В Системе Имлериализма. С. 54.
(64) ТАМ ЖЕ с. 55.

(٦٥) انظر نتائج حرب تشرين التحريرية ١٩٧٣ في :

(65) Дмитриев Е. Палестинская трагедия. М. Межд. отн. 1986. с. 83.
(66) Сионизм В Системе Имлериализма. С. 55.
(67) Israel and Palestine. 1983, June-July, P. 12.

(68) Сионизм В Системе Имлериализма. С. 56.
(69) ТАМ ЖЕ с. 56.
(70) ТАМ ЖЕ с. 57.
(٧١) انظر تفاصيل أهداف الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢م، في كتاب إسرائيل وتجربة حرب لبنان، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، لبنان، ١٩٨٩م، ص ١٠١. الغزو الإسرائيلي للبنان، مجموعة من الباحثين، إصدار مؤسسة تشرين للصحافة والنشر، دمشق، ١٩٨٣م.
(72) Report on the Activities of Departments of WZO for The Period of 30TH Zionist Congress. Jerusalem, December 1982. P. 2-3.
(73) Resolutions of XXIX Zionist Congress. Jerusalem, 1979. P. 44-45.
(74) Сионизм В Системе Имлериализма. С. 58.
(75) ТАМ ЖЕ с. 58.
(76) ТАМ ЖЕ с. 58.
(77) ТАМ ЖЕ с. 59.
(78) ТАМ ЖЕ с. 59.
(79) ТАМ ЖЕ с. 59.

قراءة في الحرب العراقية - الإيرانية ١٩٨٠

الدكتور سمير بهلوان
قسم التاريخ
جامعة دمشق

* المقدمة:

تحتل "منطقة الشرق الأوسط"* أهمية جيواستراتيجية متميزة، وقد حافظت على تلك الأهمية رغم ثورة العالم التكنولوجية، في عالم الاتصال والمواصلات، ولاسيما أن صراع القوى الأجنبية وأطماعها ما زلت متمركزة حول المنطقة لاسيما الوطن العربي. بدليل تفجير بؤر التوتر بين دول المنطقة، التي تأخذ أشكال الخلافات الحدودية أو النزاعات الإثنية والطائفية والإقليمية، أو الصراعات الاقتصادية والعسكرية. ومن اللافت للاهتمام، عودة الدول الطامعة إلى الأساليب القديمة للاحتلال المباشر بعد انحسارها في أعقاب الحرب العالمية الثانية، "الاحتلال الأمريكي-البريطاني للعراق في صيف ٢٠٠٣ نموذجاً" ونحن في بدايات القرن الحادي والعشرين.

انطلاقاً من هذا الواقع، فإن الحرب العراقية-الإيرانية عام ١٩٨٠، "التي اندلعت في أعقاب نجاح الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩"، كان لها نتائج وآثار سلبية

* إن استخدام النص لمصطلح "الشرق الأوسط" دون أي شك بعيد كل البعد عن الهدف الأجنبي الغربي والأمريكي والذي ما زال يسعى جاهداً عبر سني تاريخنا المعاصر طمس هويتنا العربية جغرافيا وسياسيا وإيديولوجيا. ولم يأت استخدام هذا المصطلح إلا للإشارة لدول الجوار العربي "إيران، باكستان، تركية، أفغانستان، وغيرها" وذلك تجنباً للتكرار في ذكر الأسماء. (الباحث).

خطيرة على الصعد كلها، وطنياً وعربياً وعالمياً. وما زالت تلك الآثار تتفاقم أكثر، مستهدفة المزيد من إضعاف دول المنطقة، والمزيد من تمزيق الوطن العربي، وضمان تفوق إسرائيل الأداة الأفضل والأهم لتحقيق أهداف الطامعين في ثروات بلدان المنطقة.

*** يتركز هدف الدراسة حول النقاط التاليه:**

- مزيد من تسليط الضوء على المخاطر التي تتعرض لها منطقة "الشرق الأوسط" ولاسيما الوطن العربي، والخليج العربي تحديداً، من جرّاء إشعال الحروب المدمرة المستنزفة لمواردها.
- تتبع الدور المترتب على حكومات تلك الدول وشعوبها، لمواجهة الأخطار العسكرية والاقتصادية والسياسية، علّها تدرك أهمية الحفاظ على الروابط الثقافية والروحية لشعوب المنطقة، أمام أطماع الغرب وأمريكة وإسرائيل، ودأبهم في استلاب الهوية الحضارية لتلك البلدان.
- الوقوف عند الثورة الإسلامية –الإيرانية، باعتبارها السبب البعيد المدى، أي السبب الحقيقي لتفجر الحرب العراقية – الإيرانية، بتحريض وتخطيط الغرب وأمريكة وإسرائيل، بهدف استمرار الهيمنة على بلدان الشرق الأوسط، وإحكام السيطرة على مواردها الاستراتيجية.

وبهذا فإن قراءتنا للحرب العراقية – الإيرانية وجدلية تأثيراتها الداخلية والخارجية، تعدّ محطة تاريخية مهمة لرصد مجمل الأزمات التي تشهدها منطقة الخليج العربي، وانعكاساتها على دول "الشرق الأوسط" وما ينتج عن ذلك من خطط استعمارية جديدة، وكيفية مواجهتها للحفاظ على استقلال بلدان المنطقة وعلاقاتها المتوازنة فيما بينها. في عصر التكتلات الاقتصادية والسياسية، وهيمنة القطب الواحد، وما نتج عنه من غزو ثقافي وصراع حضارات وما إلى ذلك...

وبهذا فإن البحث سيتناول نقاطاً عدة، وفق منهج تحليلي لمجريات الأحداث، ومواقف القوى المعنية دولياً وعربياً منها:

١- الأهمية الجيوستراتيجية والاقتصادية لمنطقة "الشرق الأوسط" لاسيما لكل من إيران والعراق.

٢- التطورات السياسية في كلتا الدولتين المعنيتين إثر قيام الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م.

٣- الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م، وتأثيراتها "الشرق أوسطية" والمواقف المختلفة منها إقليمياً، عربياً، ودولياً.

٤- الحرب العراقية – الإيرانية ١٩٨٠، أحد أهم منعكسات الثورة الإسلامية الإيرانية وأسبابها الحقيقية والمواقف العربية والدولية إزاءها.

٥- رؤية تحليلية حول تلك الحرب، وما نتج عنها، وما يمكن من حلول.

٦- الخاتمة.

* الأهمية التاريخية والجيوستراتيجية لكل من إيران والعراق

إن دراسة الأهمية الاستراتيجية والجيوسياسية والجيواقتصادية لمنطقة "الشرق الأوسط"، تعدّ ركيزة أساسية يستند إليها البحث في تتبع تطور الأحداث وتفاعلاتها، بحكم تأثير الموقع الجغرافي وما يفرضه من صلات سياسية واقتصادية وثقافية وغيرها... يحكمها في غالب الأحيان المصالح المتبادلة بين الأطراف المعنية داخلاً وخارجاً. وهذا ما عكسته معظم التقارير المتبادلة بين ساسة المستعمرات عبر مراحل التاريخ الحديث والمعاصر قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها. ففي تقرير قدمّه "إيفون كيرباتريك" الوكيل الدائم لوزارة الخارجية، في مكتب "الشرق الأوسط البريطاني" يذكر فيه: "إن مصلحتنا الرئيسية في الشرق الأوسط هي استراتيجية. والمنطقة مهمة للغاية بالنسبة لنا بسبب الفرص التي تتيحها والتي نأمل أن نطوّرها من أجل مصالحنا

التجارية. ولكنّ أهميتها الأساسية تكمن في كونها أحد مراكز تقاطع الطرق في المواصلات البحرية والجوية، وفي النفط الذي تحتويه، وما فيها من مجال المناورة والهجوم في حالة الحرب مع روسيا[١]". وهو ما أكده أيضاً الرئيس الأمريكي ترومان (١٩٤٥-١٩٥٣)، في البيان التاريخي الذي ألقاه بمناسبة يوم الجيش في ٦ نيسان ١٩٤٦، بقوله: "في الشرق الأدنى، موارد طبيعية هائلة، فضلاً عن أنها منطقة تقع عبر أفضل الطرق البرية والمواصلات الجوية والمائية. فهي لذلك بقعة ذات أهمية اقتصادية واستراتيجية عظيمة.. لذلك يسهل على المرء أن يدرك كيف أن الشرق الأدنى والأوسط يمكن أن يصبحا يوماً حلبة لمنافسة عنيفة بين القوى الخارجية. وكيف أن تنافساً كهذا يمكن أن يتحول فجأة إلى صراع مسلّح"[٢].

لقد أوجد المحيط الجيوستراتيجي الواحد للمنطقة العربية وما يجاورها من بلدان أخرى، كتركية وإيران والعراق وغيرها، تاريخاً مشتركاً منذ أقدم العصور، استمر تفاعله وتأثيره حتى يومنا هذا، وهذا ما تؤكده الخارطة الطبيعية للمنطقة، "أي قبل رسم الحدود السياسية المعاصرة"، إذ إنّ الطبيعة الجغرافية قد تسهل روابط التواصل الحضاري بين الشعوب لكل أبعاده، لاسيما إذا كانت الدول مرتبطة بجذور حضارية واحدة، وهذا ما صرّح به رئيس وزراء تركية في مطلع ١٩٨٤، بقوله: "إن على تركية أن تقوم بدور في الشرق الأوسط، نظراً إلى موقعها الجغرافي وروابطها الثقافية مع المنطقة"[٣].

إذن، أين تكمن جوانب تلك الأهمية الجيوستراتيجية سياسياً واقتصادياً في "الشرق الأوسط"، ولاسيما لكل من تركية-وإيران والعراق؟.. (القصد من التطرق إلى تركية هنا، هو اتخاذها نموذجاً أهم بين دول المنطقة، من حيث العلاقات التاريخية – العربية لاسيما مع العراق وإيران).

تمتد تركية عبر آسية الصغرى، بتميز لافت، لامتلاكها المضائق والموانئ الواقعة على المياه الدافئة "البوسفور والبحر الأسود..." التي تشكّل مع بعضها حلقة وصل بين

دول البلقان ومنطقة "الشرق الأوسط" مع الاتحاد السوفييتي سابقاً، وتشترك بحدودها الجنوبية مع سورية بـ ٨٧٧كم، ومع العراق بـ ٣١١ كم. إضافة على تميز تركية بأن المنطقة الشمالية الغربية من البلاد تعدّ مواطئ قدم تركية الوحيد في أوروبة بـ ٢٦٩كم مع بلغاريا، و ٢١٢كم مع اليونان(٤).

وتمتد إيران أيضاً في وسط الكتلة الآسيوية في جنوبي غربي آسية، حيث يحدّها من الشمال الاتحاد السوفييتي وبحر الخزر، ومن الغرب تركية والعراق، ومن الجنوب الخليج العربي وخليج عمان، ومن الشرق الباكستان وأفغانستان. تلك الموقع الاستراتيجي الممتد إلى جوار الاتحاد السوفييتي "السابق" ودول شرق آسية، امتلكت إيران تفوقاً نسبياً بين دول الخليج العربي الأخرى(٥).

أما العراق، فيشترك مع تركية وإيران وسورية بحدوده الشمالية والشمالية الغربية والغربية ومع إيران في الشرق، ومن الجنوب يطلّ على الخليج العربي ودوله، ومع هذا، فإن وادي نهري دجلة والفرات -اللذين شهدا أقدم حضارات العالم وأهمها- يشكلان رابطاً جغرافياً طبيعياً مع تركية منذ أقدم العصور التاريخية، من المنبع في جبال طوروس وعبر المسار في أرض الشام والعراق، وصولاً إلى المصب في الخليج العربي.

وقد تزايدت الأهمية الاستراتيجية للدول المعنية بدراستنا، بما تمتلكه من ثروات اقتصادية مهمة تشكل عصب التطور الحضاري في العالم. إذ إن العراق وإيران يملكان ثلثي مخزون النفط في العالم، وينتجان منه كميات كبيرة جداً، وتعدّ إيران من أهم دول العالم المنتجة للنفط ففيها "تتركز أهم منابع النفط في العالم"(٦)، أما تركية فيبلغ مخزونها النفطي "٣٩٠ مليون برميل وتدعي الحكومة بأن لديها ٧٠٠ مليون برميل"(٧).

هذا غير مصادر الثروات الطبيعية لدى الدول الثلاث، من معادن وغاز طبيعي وفحم حجري وغيرها... إضافة إلى ما يمتلكونه من ثروة مائية وزراعية غنية. بهذا فإن

تلك الدول "تشكل قلب العالم الاستراتيجي بعد الحرب العالمية الثانية"(٨)، وهو ما أثبتته الأحداث المتتالية في منطقة "الشرق الأوسط" منذ الحرب العالمية الثانية حتى اندلاع الحرب العراقية – الإيرانية ١٩٨١ وصولاً إلى المرحلة الراهنة.

ومما لا بدّ من ملاحظته، أن سمة التكامل الطبيعي جغرافياً واقتصادياً بين دول المنطقة، وقد أدّت إلى خلق احتياجات متفاوتة فيما بينها سعياً لامتلاك النفوذ الذي قد يساعد في تأمين الأسواق والاستثمارات –لاسيما مساعي تركية الحثيثة لامتلاك نفوذ دائم في الجوار الإقليمي بحكم الاعتبارات الاقتصادية– "حيث أصبحت أنقرة خلال عقد السبعينيات تشعر بالحاجة لأن تنهل من ثروة الدول النفطية الغنية أسواقاً لسلعها ومنتجاتها الزراعية والصناعية، لجذب كتلة نقدية من ثروات النفط المستجدة الاستثمار(٩).

* التطورات السياسية:

استناداً إلى ما سبق، نجد أن الواقع الجيوستراتيجي والاقتصادي في "الشرق الأوسط" لاسيما تركية، إيران، العراق، قد رسم بشكل أو بآخر نمط العلاقات السياسية، ولاسيما بعد الحرب العالمية الثانية، بما يخدم مصالح تلك الدول، سواء فيما بينها وبين أقاليم "الشرق الأوسط"، أو بينها وبين دول العالم، آخذين بالاعتبار ما تفرضه المصالح الاقتصادية والسياسية للدول الأقوى على الدول الأضعف من ضغوط.

بناءً على ذلك، اندفعت أمريكة بكل ثقلها السياسي إلى "الشرق الأوسط"، لتحل مكان إنكلترة وفرنسة، بعد الحرب العالمية الثانية، مستخدمة شتى السبل من مشاريع استعمارية وأحلاف عسكرية تحت شعارات المساعدات المالية، الهادفة إلى ربط المنطقة بعجلة المصالح الغربية، وضمان تفوق إسرائيل على الدول المحيطة، التي كانت تحظى بحصة الأسد من جملة المساعدات التي قدمتها لبلدان "الشرق الأوسط".

ففي العراق بعد الحرب العالمية الثانية سعت بريطانية "أمام المنافسة الأمريكية" لاستمرار مصالحها الاقتصادية والسياسية، إذ إنها تعتبر "هذه الدولة مفتاحاً لرقعة

شطرنج الشرق الأوسط داخل مناطق نفوذها"(١٠).فكان عليها تأمين سلامة أنابيب النفط العراق التي تذهب إلى البحر الأبيض المتوسط عبر سورية، بعد أن ارتفع إنتاج النفط العراقي ارتفاعاً كبيراً في أوائل الخمسينيات(١١). وتركت بريطانية وراءها خلافات سياسية خطيرة بين حكّام مناطق الخليج العربي (شيوخ أو أمراء العشائر أو حكّام)، شكّلت قنابل موقوتة مستقبلية على حدودها، (الحدود العراقية -الكويتية، والعراقية - الإيرانية، وغيرها من الدول العربية والشرق أوسطية).

وقد كان النشاط الأمريكي في العراق كبيراً أيضاً، وشمل مجالات تنموية واستثمارية وعسكرية واسعة، معنية بموارد النفط، وموارد اقتصادية أخرى، وقضايا سياسية، بحيث يجري التركيز حول إخضاع "العراق لدبلوماسية الدولار"(١٢). بمعنى السعي لربط بترول العراق بالدولار، كمنافس أهم للإسترليني البريطاني آنذاك. وفي الوقت نفسه عملت أمريكة إلى جانب بريطانية خلال الخمسينيات من القرن العشرين، على جرّ العراق إلى جملة المشاريع الاستعمارية، الاقتصادية والعسكرية والسياسية كالنقطة الرابعة، مبدأ إيزنهاور، حلف بغداد، والهلال الخصيب وغيرها... آملتين من العراق أن يكون أداة التأثير لانضمام الدول العربية إلى تلك المشاريع، -لاسيما الدول العربية الرافضة لتلك المشاريع كسورية ومصر "اللتين قاومتا المشاريع بكل قدراتهما"، إضافة إلى الاعتماد على إسرائيل صنيعة الإمبريالية العالمية- لحفظ مصالح الغرب وهذا ما ورد في خطاب لتشرشل رئيس وزراء بريطانية ١٩٤٠-١٩٤٥ بقوله: "من العوامل المهمة في الشرق وجود إسرائيل"(١٣). واستنزاف قدرات المنطقة العربية واقتصادياتها بحكم التوتر الدائم على الحدود المجاورة، واشتعال الحروب لاستلاب مزيد من الأراضي العربية.

واستمر الحال هكذا مع السلطة الملكية العراقية، إلى أن تمكنت الحركة الوطنية العراقية من الإطاحة بالنظام الملكي في ١٤ تموز ١٩٥٨. ليدخل العراق مرحلة جديدة من حياته السياسية، منذ الستينيات حتى نهاية القرن العشرين وبداية القرن

الحادي والعشرين، تلك المرحلة التي لن ندخل في تفاصيل مجرياتها، والتي لم تخل من الضغوط الأجنبية والتوجيهات الساعية لإعادة نشاط المصالح الغربية والأمريكية، عبر تفجير بؤر التوتر بين العراق والدول المجاورة، ولاسيما الدول الأكثر إنتاجاً واحتياطاً للنفط "إيران والعراق"، وهو ما جعل أمريكة تختار إيران لتجعل منها قوة صناعية عسكرية رأسمالية متطورة، كقاعدة للتطور الرأسمالي في غرب آسية.. وما لبثت إيران أن أصبحت أكبر مصدر للنفط بعد السعودية. وفي تقرير لمجلة "الإيكونومست اللندنية" جاء: "أجلت المملكة المتحدة (بريطانية) قواتها العسكرية من الخليج رسمياً في عام ١٩٧١. وقبل ذلك أكدت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانية بشكل واضح جداً، أن إيران قد تمّ تعيينها الوسيط العسكري الجديد في الخليج، وحامي الدول العربية الصغيرة. ومعقل المصالح الإيرانية –الغربية في المنطقة. وتمّ تخصيص موارد مالية كبيرة فورية لتطوير القوات المهيمنة في الخليج"[١٤]، وتحققت فعلاً السيطرة الإيرانية على الخليج من جرّاء بناء قواعد بحرية بمعدات عسكرية ثقيلة على المحيط الهندي. ولم يتنبه العراق لتلك التطورات الإيرانية بسبب انشغاله بالمناطق التي يسعى إليها الأكراد في شمال العراق، وتنازل صدام حسين للشاه في اتفاقية الجزائر في ١٩٧٥/٣/٦، عن شطر من شط العرب لإيران بتعيين الحدود الجديدة طبقاً للخط الملاحي العميق في النهر، مقابل تعاون الشاه في قطع الإمدادات عن حركة البرزاني التي كانت في عنفوان قوتها، وتضم /١٢,٠٠٠/ مسلح، فانهارت الحركة بين عشية وضحاها...[١٥]، واستثمر صدام حسين انهيار المعارضة الكردية المسلحة لتوطيد قدراته الاستراتيجية "التدفق الهائل في عوائد النفط في السباق الاستراتيجي مع إيران"، وبدأ التقرّب من دول الخليج والأردن، والابتعاد عن دول الصمود والتصدي "سورية، ليبية، الجزائر، اليمن الديمقراطية". وتصاعدت طموحاته في التوسع والهيمنة على الخليج.

وفي خريف ١٩٧٨، نجح أحمد حسن البكر "الرئيس السابق لصدام" في عقد القمة العربية وعزل نظام السادات في مصر بسبب عقد اتفاق "كامب ديفيد". كما نجح في السعي إلى اتفاقية الوحدة مع سورية(١٦)، لكن صدام حسين تمكّن من تصفية الرئيس أحمد حسن البكر ليتسلّم زمام السلطة في العراق، والتراجع عن سياسة سابقه في التقارب الوحدوي وسياسة الهدوء في المنطقة بعيداً عن الحروب. وقد تصادفت تلك الأحداث مع انتصار الثورة الإيرانية وسقوط نظام الشاه في ١١/٢/١٩٧٩، مما دفع بصدام حسين للإسراع بضرب إيران وإنهاء سيطرتها على الخليج. "وقد قدم له الجانب الإيراني المسوّغات المطلوبة"، ولاسيما الدعوة لتصدير الثورة الإسلامية إلى العراق ودول الخليج.

وعلى هذا كانت حرب الخليج الأولى ١٩٨٠، مع إيران وحرب الخليج الثانية مع الكويت عام ١٩٩٠، مما فسح المجال واسعاً للتدخل الأجنبي العسكري -الأمريكي والبريطاني وغيرهما - في منطقة الخليج العربي، ومن ثم التخطيط لاحتلال العرق الذي تم تنفيذه بحلول جيوش الاحتلال البريطاني والأمريكي على أرض العراق بعد تدمير بناها التحتية والفوقية في ١٥/٤/٢٠٠٣.

وفي إيران، أثبتت الأحداث بعد الحرب العالمية الثانية، بروز الدور الأمريكي اقتصادياً وسياسياً -كما سبق أن ذكرنا- كقوة لا منازع لها في العالم الرأسمالي، مما مكنها من تأدية دور عسكري وسياسي قيادي في إيران. فعملت على "تحويل إيران إلى قاعدة قوية للهجوم المعادي للاتحاد السوفييتي، وتحولت البعثة العسكرية الاستشارية الأمريكية في العام ١٩٤٧ إلى بعثة تقوم بدور عملياتي، وبدأت بتزويد القوات الإيرانية بآخر مبتكرات السلاح الأمريكي، وأطلق على اسم البعثة "أراميش" وكان قد حدّد في البداية مبلغ ١٠ ملايين دولار لإنفاقها على السلاح الأمريكي، وارتفع المبلغ عام ١٩٤٨ إلى ٦٠ مليون، ووصلت العلاقات إلى حدّ التوقيع على "اتفاقية التعاون والمساعدة الدفاعية" في العام ١٩٥٠، بين إيران والولايات المتحدة،

وقد أسهم هذا في توفير قواعد صلبة لمزيد من المساعدات اللاحقة، وتلقت إيران معونة عسكرية ما بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٧٠، بلغت قيمتها أكثر من ١٣٦٥,٦ مليون دولار، وحصلت على ما قيمته ٨٣٠,٤ مليون دولار، وفي أواخر الخمسينيات كان يعمل نحو ٩٠٠ خبير أمريكي في صفوف القوات المسلحة الإيرانية.. وتلقى نحو ١١٠٠٠ إيراني تدريبهم العسكري في مؤسسات أمريكية فيما بين نهاية الحرب الثانية حتى العام ١٩٧٥[١٧]. وبلغت العلاقات الأمريكية –الإيرانية ذروتها في عهد الرئيس ريتشارد نيكسون ١٩٦٩ – ١٩٧٤، لتصبح إيران خلال هذه الفترة قوة إقليمية رئيسية بدعم أمريكي[١٨]. فكانت إيران "أحد المستوردين الرئيسين للسلع الأمريكية وأهم وأكبر مستورد للسلاح الأمريكي في العالم، بالإضافة إلى أن إيران تشكل قوة رئيسية داخل منظمة أوبك[١٩]. كما بلغت قيمة المشتريات الإيرانية من السلاح الأمريكي ما بين ١٩٧٢ –١٩٧٤ بـ ١٠,٤ بليون دولار، وما بين ١٩٧٦– ١٩٨٣ بـ ١٨,٥ بليون دولار[٢٠].

لقد أدّت العلاقات الوثيقة ما بين إيران والغرب إلى اندماج إيران في النظام الدولي للعلاقات الرأسمالية، ومكنتها من تشكيل نمط الروابط الاقتصادية متعددة التوجهات. حيث حرص نظام الشاه على منع أية حركة راديكالية، أو أي دولة مناهضة لسياسة الغرب يمكن أن تضعف مركز إيران الاستراتيجي من أن تبرز في المنطقة. ويعني هذا أن إيران ستتدخل لسحق القوى الوطنية والثورية في خارج حدودها، التي تعتقد أنها تشكل خطراً عليها، والتي تعتقد أنه بإمكانها أن تخمدها[٢١]، باعتبارها أداة لحماية مصالح الغرب وأمريكة وحلفائهما. لهذا فإن ثورة العراق في ١٤ تموز ١٩٥٨، التي أطاحت بالنظام الأمريكي العراقي، قد أفزعت شاه إيران وجعلته يطلب مساعدات عسكرية إضافية من الولايات المتحدة، وقام الشاه بتوقيع معاهدة دفاعية بين البلدين في آذار ١٩٥٩[٢٢]. واستمرت سياسة الشاه في تعميق توجهها الأمريكي –الغربي، الذي

وصل إلى حد التدخل في الشؤون الداخلية، حتى قيام الثورة الإسلامية الإيرانية عام ١٩٧٩.

أما تركية "كنموذج آخر له أهميته الكبرى بين دول تلك المنطقة" بعد الحرب العالمية الثانية، فقد رحبت -مثل إيران- بانغماس الولايات المتحدة الأمريكية في شؤون الشرق الأوسط ولاسيما بعد تراجع الدور البريطاني في المنطقة. وكان انضمام تركية إلى المعاهدة المركزية (السينتو) كجزء من النظام الدفاعي الغربي، بحيث لم يترك لها خياراً قابلاً للمناورة، فقد ظلت علاقاتها مع حلفائها الغربيين أعمق بكثير من صلاتها مع بلدان الشرق الأوسط والبلدان العربية[٢٣]. وقد كان لفكرة تأسيس "منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط"، التي أدّت فيها تركية دوراً قيادياً، مما كان له تأثير سلبي على العلاقات التركية – العربية. وهو ما صرّح به وزير خارجية تركية "فؤاد كوبرولو" عام ١٩٥١ ، بقوله: "إننا نعتقد أن الدفاع عن الشرق الأوسط ضرورة حتمية للدفاع الاستراتيجي والاقتصادي عن القارة الأوروبية[٢٤]، وفي الوقت نفسه وبدعم أمريكي أدّت تركية دوراً هدفت منه ربط الوطن العربي بنظام الأمن الغربي بموجب مبدأ إيزنهاور عام ١٩٧٥، هذا عدا عن مواقف تركية عديدة مؤيدة للغرب ضد المطالب العربية التحريرية في الجزائر ولبنان وسورية والأردن والعراق وغيرها... هذا إضافة إلى تأييدها لإسرائيل، إذ إن تركية "تعتبر وجود إسرائيل ضرورياً لاحتواء سورية التي تصر مدعومة من جميع البلدان العربية على عودة لواء اسكندرون إليها"[٢٥].

لكن مما لا بدّ من ملاحظته التغيير الذي أخذ يطرأ على العلاقات التركية -الغربية وأمريكة، بعد إثارة قضية قبرص عام ١٩٦٤، وخلال تصويت الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٦٥. ذلك الموقف الذي أثّر في السياسة الخارجية التركية، ولاسيما تجاه الدول العربية، حيث أخذت العلاقات التركية -العربية تتجه نحو التحسن، ونحو تغيير الموقف تداه الصراع العربي- الإسرائيلي، كما لوحظ أن ابتعاد سياسة أنقرة

الخارجية "في الشرق الأوسط" عن السياسة الأمريكية، يعني أيضاً التخفيف من حدة الاتجاه العلماني في تركية(٢٦)، وبذلك "يصبح العامل الغربي لأول مرة عاملاً إيجابياً في تأثيره على علاقات أنقرة مع الوطن العربي"(٢٧). إزاء ذلك التغيير في السياسة الخارجية التركية، أعلنت تركية في ربيع ١٩٦٧، عن عدم استخدامها للقواعد العسكرية الأمريكية الموجودة على أرضها تجاه أي نزاع في بلدان "الشرق الأوسط". وفي حرب حزيران ١٩٦٧، التي أعلنتها إسرائيل ضد العرب "اتخذت حكومة أنقرة موقفاً مؤيداً للعرب تدريجياً، ونحّت جانباً حيادها المتشدد على الرغم من إصرار حزب الشعب الجمهوري على أن تلتزم الحكومة الحياد التام إزاء هذا الصراع مثلما كانت تفعل قبل نشوئه"(٢٨). كما عارضت تركية ضم الأراضي العربية المحتلة من قبل إسرائيل، وطالبت بانسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي التي احتلتها، وبدفع تعويضات مالية عن الأضرار التي سببتها... كما رفضت مع باكستان قرار إسرائيل بضم القدس. كما أخذت تركية تشارك في المؤتمرات الإسلامية، وإن كان تصريح ديميريل ١٩٩٤-١٩٩٨ "بأن بلاده سوف تشارك في المؤتمرات الإسلامية التي ليس لها طابع سياسي"، وشاركت في المؤتمر الإسلامي الأول الذي انعقد في الرباط عام ١٩٦٩ وما تبعه من لقاءات(٢٩). قد يكمن وراء تلك السياسة سببان أساسيان:

الأول، خشية تركية من نزوع إسرائيل لأن تصبح "الدولة القائدة" داخل النظام الإقليمي "الشرق أوسطي"، ولاسيما أن لها طروحات ومشاريع، قديمة –حديثة، لتدخل في النسيج الاقتصادي العربي. وتصبح سنغافورة الشرق الأوسط"(٣٠).

الثاني، احتياج تركية لنفط الشرق الأوسط لتسيير عجلة اقتصادها، ذلك أن مصادر النفط التركي لا تغطي سوى ١٦% من احتياجاتها فقط(٣١). ولاسيما أن أسعار النفط الخام قد تضاعفت أربع مرات خلال عامي ١٩٧٣-١٩٧٤، وهو ما أدى إلى تزايد وزن العلاقات الاقتصادية مع البلدان النفطية في المنطقة.

لهذا، فقد أصبحت تركية تشعر بالحاجة لأن تنهل من ثروة الدول النفطية الغنية، فتتخذها، أسواقاً لسلعها ومنجاتها الصناعية والزراعية، ولجذب كتلة نقدية من ثروات النفط المستجدة للاستثمار في تركية(٣٢). كما باتت تركز أكثر من أي وقت مضى على الجوانب الدولية والإقليمية لأمن الخليج وتهتم بمخاطر التدخل الخارجي، وأسباب عدم الاستقرار الداخلي في المنطقة والصراعات العربية – العربية، إضافة إلى اهتمامها بالصراع العربي –الإسرائيلي باعتباره عاملاً مؤثراً في المواقف العربية، و"الشرق أوسطية"، والدولية.

* الثورة الإسلامية الإيرانية ١٩٧٩:

كان قيام الثورة الإسلامية الإيرانية عام ١٩٧٩، حدثاً مهماً على المستويين العالمي و"الشرق أوسطي"، وفي هذا قال الرئيس السوري حافظ الأسد ١٩٧٠ -٢٠٠٠: "الثورة الإيرانية نقطة بارزة ومضيئة جداً في هذه المنطقة"(٣٣). ووضح أيضاً وزير الخارجية الألماني جوشاك فيشر أهمية الثورة وقائدها بقوله: "برأيي أن الإمام الخميني وإيران أنجزا عملاً عملاً تاريخياً إزاء الغرب... أعتقد أنه من العجيب أن الثورة الدينية قد أخذت مكاناً من نوع جديد جداً في عالم اليوم"(٣٤). أما المفكر الفرنسي روجيه غارودي فقد قوّم الثورة بقوله: "إن الثورة حازت اهتمام العالم... والثورة قدمت نموذجاً جديداً تماماً للمجتمع الإنساني. وهذا هو السبب الذي يكمن وراء عداء الغرب تجاهها. والإمام الخميني أعطى معنى جديداً إلى حياة إيران(٣٥).

حقاً، إن الثورة الإسلامية شكلت منعطفاً رئيسياً في مسار تاريخ استراتيجية "الشرق الأوسط" سياسياً واقتصادياً وفكرياً وعسكرياً. ذلك لأن أمريكة والغرب وإسرائيل فقدوا الشاه حارس مصالحهم على منابع النفط والغاز في المنطقة. وهذا ما صرّح به مناحيم بيغن رئيس وزراء إسرائيل ١٩٧٧-١٩٨٣، بعد إزاحة شاه إيران في حديث مع الرئيس الأمريكي جيمي كارتر ١٩٧٧-١٩٨١، في ١٢ أيار ١٩٧٩، بقوله: "هناك قضايامعلقة، يتحتم حلها قبل استئناف الكلام في السياسة، وأهمها موضوع البترول.

فإسرائيل "طبقاً لأقواله" كانت تشتري بترولاً من إيران إلى جانب ما تحصل عليه من سيناء، وهي الآن فقدت أو كادت تفقد كلا المصدرين"[٣٦]. كانت هذه الحسابات الأمريكية –الإسرائيلية قائمة، لأنهم أدركوا تماماً بأن الثورة الإسلامية الإيرانية لا تبشر بالخير[٣٧]. ولا بدّ لهم من حلول وبدائل، كي لا يفقدوا مصالحهم الاستراتيجية في إيران. وهذا يعني ضرورة البحث في خطط مشتركة بين المتضررين من الثورة الإيرانية – أي أمريكة وإسرائيل وحلفائهما – للعمل السري ضد الثورة وتأثيراتها في النطاق المحيط بها، والذي أخذ يتفاعل مع نداءاتها. لذلك عملت أمريكة وإسرائيل وغيرهما من أعداء الثورة، على إثارة النزعات القومية، وإثارة الأقليات ضد الثورة، والعمل على إجهاضها وفي هذا يقول دبلوماسي غربي في بداية الثورة الإسلامية: "... إن الحكومة لديها مشاكل عديدة متفجرة.. يكفيها مشكلة الأقليات ... إنها قنبلة موقوتة قابلة للانفجار في أي وقت، إن هذه القضية يمكن أن تهدد كل إيران في الحاضر والمستقبل..."[٣٨]. ومن جانب آخر، فإن الثورة الإيرانية فرضت على أمريكة حسابات جديدة في مفاوضات الصلح المصري الإسرائيلي، وفي سياسة المنطقة، مما جعل الرئيس الأمريكي كارتر يتخذ ثلاثة اتجاهات للتحرك في المنطقة: ١– ضرورة تسريع المفاوضات المصرية– الإسرائيلية. ٢– إعادة تقويم الموقف العسكري بعد سقوط نظام الشاه، وبدء قيادة الإمام الخميني في إيران. ٣– التوجه نحو إعلان التدخل في المنطقة لحماية موارد النفط في الخليج العربي بالقوة، إذا ظهر أي تهديد محتمل[٣٩].

أما الاتحاد السوفييتي "آنذاك" قبل سقوط النظام الاشتراكي، فقد كانت له حساباته الخاصة، اقتصادياً، وسياسياً، وإيديولوجياً، بعد نجاح الثورة الإسلامية الإيرانية، ولاسيما أن أمريكة والغرب في ظروف الحرب الباردة، كانوا يسعون بشكل حثيث لإبعاد الاتحاد السوفييتي عن أن يأخذ أي دور محوري في المنطقة تحت أي ظرف.

وعلى المستوى العربي: كان لمعظم الدولُ العربية (لاسيما دول الخليج العربي والسعودية) مخاوفها الكبرى على عروشها أو مواقع نفوذها ، خشية من انتقال عدوى

الثورة إليها، فكانت حذرة من أي خطوة تقدم عليها إزاء الثورة في تلك الفترة، وكان لا بدّ لها أيضاً من محاولات العمل على إضعاف الثورة والسعي للقضاء عليها منذ بداياتها الأولى، وبتحريض أمريكي -إسرائيلي - غربي بُذِلَتْ مساعٍ كبيرة "لإشعال الفتنة بين العراق وإيران، ولاسيما أن التناقضات بين أمريكة وإسرائيل بلغت ذروتها عام ١٩٨٠، بعد فشل أمريكة في إنقاذ الرهائن[٤٠]. وأمام تلك الأجواء الإقليمية والدولية، بادر النظام العراقي في /٢٢/ أيلول عام ١٩٧٩، ومن جانب واحد، لإلغاء اتفاقية الجزائر المعقودة في آذار ١٩٧٥، بشأن الحدود العراقية - الإيرانية[٤١]. وهذا يعني زرع بذور التوتر والأزمات أمام الثورة الإيرانية، واستنزاف قوة البلاد اقتصادياً وعسكرياً.

لقد خشيت تركية أيضاً من الثورة الإسلامية الإيرانية، ومن نهجها السياسي الجديد في عداء الغرب وأمريكة، وأخذت تنظر إلى حسابات جديدة فيما إذا أصبحت إيران الدولة الأقوى في المنطقة، لاسيما في منطقة الخليج العربي، لذا كان يترتب عليها سياسة الحيطة والحذر إزاء الدول الإسلامية من جهة، ودول الغرب وأمريكة، وضرورة اتباع منهجية عمل أخرى.

* الحرب العراقية- الإيرانية، ودوافعها الأساسية والمواقف الدولية والعربية المتخذة منها:

انطلاقاً من كل ما سبق عن الثورة الإسلامية الإيرانية، والمواقف العربية والدولية منها، أخذ التوتر يزداد حدة على الحدود بين العراق وإيران، حيث كانت السلطة العراقية تسعى نحو تخطيط متكامل للحرب مع عمل سياسي "يضم جهات عديدة منها قوى المعارضة في داخل وخارج إيران والقوى ذات المصلحة في إسقاط النظام الجديد /القوى الغربية/، إضافة إلى بعض دول المنطقة التي كانت خائفة من المدّ الإسلامي"[٤٢]. كما شمل ذلك التخطيط مسائل تخزين السلاح والعتاد والمواد التموينية بكميات كبيرة جداً إضافة إلى الإعداد النفسي والفكري والعملي للقوات المسلحة، من

حيث "التقليل من أهمية الأطروحة الدينية التي ينادي بها النظام الجديد في إيران وكذلك التركيز على الحضارات العرقية القديمة البابلية والسومرية كبديل عن تاريخ العراق الإسلامي"[٤٣].

وكانت قد بدأت مناقشات الخطة العسكرية العراقية قبل شهرين من بداية الحرب "وبالتحديد في شهر تموز ١٩٨٠". ومن ثم كان اندلاع الحرب بشكلها الواسع في ١٩٨٠/٩/٢٢[٤٤]. تلك الحرب التي لم يكن فيها أي فائدة لا للعرب ولا لإيران ولا "لمنطقة الشرق الأوسط" بكاملها. وهو ما ذكره الرئيس السوري حافظ الأسد في حديث له مع الأمين العام للأمم المتحدة "كورت فالدهايم" ١٩٧٢-١٩٨٢ في ١٩٨٠/١٠/٢٧، بقوله: "الحرب العراقية – الإيرانية اعتبرناها حرباً عبثية تدميرية لا يستفيد منها إلا أعداء الشعبين في البلدين المتحاربين"[٤٥].

إذن، ما هي المواقف العربية والدولية من هذه الحرب، في تلك المنطقة الاستراتيجية من العالم، وبين بلدين يعدّان من أهم الدول المختزنة للنفط في العالم، مع الأخذ بالاعتبار أن المواقف التي نود الوصول إليها، مستندة إلى الأسباب والدوافع الحقيقية الكامنة وراء تلك الحرب.

الدول العربية: أيدت معظم الدول العربية – باستثناء سورية وليبية والجزائر – القرار العراقي في إعلان الحرب على إيران، ووقفت إلى جانبه لاسيما السعودية ودول الخليج العربي، تلك الدول التي خشيت من الثورة الإيرانية وسعت إلى ضربها. لذلك دفعت السعودية للعراق نحو "٢٦ بليون دولار"[٤٦]، للمساعدة في سدّ نفقات الحرب، ونتيجة لرفض سورية الحرب، وإغلاقها أنابيب النفط العراقية عبر أراضيها إلى البحر المتوسط، بلغت خسارة العراق من جراء ذلك حوالي ٦ بليون دولار[٤٧]. مما أجبر العراق على زيادة ضخ النفط عبر الأنابيب العراقية –التركية بتكلفة كبيرة جداً، وبحكم التأييد السعودي للعراق فلقد دفعت إلى سورية مبلغ ٢ بليون دولار لقاء إعادة ضخ النفط العراقي عبر أراضيها، لكن سورية رفضت طلب السعودية، مما جعل السعودية

تسعى إلى بناء خط جديد يصل العراق بميناء ينبع على البحر الأحمر تعادل كلفته ٢ بليون دولار، ينتهي بناؤه عام ١٩٨٦، كما سعت لبناء خط آخر يمرّ من "الزرقا" في الأردن ومنها إلى خليج العقبة ثم إلى البحر الأحمر(٤٨)، كل هذا خلق للعراق صعوبات اقتصادية كبيرة جداً واحتياجات مالية ضخمة -بالعملة الصعبة- لسدّ نفقات الحرب، وهذا ما دفع صدام باتجاه مصر وفتح علاقات جديدة معها، لأن مرور النفط من خليج العقبة إلى السويس إلى البحر الأحمر، كان حلاً بديلاً للعراق - منذ منع سورية مرور النفط العراقي عبر أراضيها- رغم تكلفته المادية الكبيرة. لكن تقارب صدام حسين مع السادات آنذاك، أبرز تناقض موقفه المعلن من قضية فلسطين ورفضه الحل السلمي المصري - الإسرائيلي، وأضعف مصداقيته في المحيط العربي، وبالتالي بقي هذا التقارب ضعيفاً وغير قادر على أداء دوره السياسي على المستوى العربي. كذلك تحملت دول الخليج العربي المؤيدة لصدام جزءاً لا بأس به من نفقات الحرب وسهّلت وصول الأسلحة إلى الجبهات المتحاربة عبر مرافئها وخطوطها الجوية.

أما دول **الغرب وأمريكة وإسرائيل**، فقد أيدوا الحرب، بل خططوا لها، ودفعوا لتفجيرها. لذا كان أقصى طموح معظم ساسة الغرب، أن يبدأ العراق الحرب مع إيران -وهو ما حصل- لأن الحرب ستضعف الثورة الإسلامية، وتصرفها عن بناء إيران وفق توجهات الثورة، وتهدر ثرواتها الاستراتيجية، هذا على الصعيد الداخلي، أما على الصعيد الخارجي، فإن التوجه الأمريكي سعى نحو عزل إيران الإسلامية واستبعادها عن منظومة العمل الإقليمي، سواء على المستوى الأمني أو السياسي أو الاقتصادي، وذلك لأن إيران بعد الثورة:

١- تشكل خطراً على مصالح الغرب والولايات المتحدة في الخليج العربي.

٢- لأنها مصدر دعم "للأصولية الإسلامية" حسب زعم أمريكة.

٣- لأنها تتخذ موقفاً متشدداً من إسرائيل وسياستها التوسعية في المنطقة، ومن نهجها في عملية السلام.

وهذا ما أكده أيضاً، تصريح بالغ الأهمية لوزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق "هنري كسنجر ١٩٦٨-١٩٧٥" مفاده: "أنه من المؤسف أن الحرب قد تنتهي بخسارة أحد الطرفين فقط، فكل ما يتمناه الدبلوماسي الإمبريالي الصهيوني اللئيم هو خسارة الطرفين معاً. ومن هنا سعت أمريكة لإطالة أمد الحرب بمختلف الأساليب العسكرية والسياسية"(٤٩)، وأدّت أمريكة دور المحرّض والمشجّع لإثارة الحرب بتزويدها العراق بمعلومات زائفة أو على الأقل مبالغ فيها عن نقاط الضعف في القوات المسلحة الإيرانية... كما جمدت الأموال الإيرانية في البنوك الأمريكية وصعدت الأعمال العدائية الأخرى بما فيها المناورات المسلحة ضد إيران وتعبئة فلول الشاه المخلوع.. مما شجع صدام حسين على ارتكاب مغامرته العسكرية في إيران...(٥٠). ولم يفت عن استراتيجية "دولة المركز في العالم" أي أمريكة، أن تسعى أيضاً نحو محاولة استدراج إيران من جديد كحليف يحاذي أكثر حدود الاتحاد السوفييتي حساسية. "بهذا تفسر صفقة الأسلحة الأمريكية لإيران التي أثارت بدورها مخاوف المصالح النفطية في أمريكة وخروجها من الحرب منتصرة كقوة عسكرية كبيرة. كما أثار مخاوف أصدقاء أمريكة ولاسيما في البلاد العربية، ورغم ردود الفعل فالسياسة الأمريكية سائرة في طريق إطالة أمد الحرب..."(٥١). لاستنزاف الطرفين المتحاربين.

لقد استغلت إسرائيل فرصة انشغال الجميع بحرب الخليج، فأعلنت ضمها للقدس عاصمة أبدية لها، وكذلك ضم الجولات السوري، ومن ثم شنّ الحرب العدوانية ضد لبنان، وتصاعد تهديداتها لسورية وعملياتها القمعية ضد الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة... وقصف المفاعل النووي في بغداد، ومقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس .

بهذا فإن تلك الحرب، سوف تفرغ الطاقة العراقية الحيوية والمتجددة، وتعطلها عن التوجه نحو المصالح الحقيقية للأمة العربية، ولاسيما أن العراق يشكل عمقاً استراتيجياً

للجبهة العربية الشرقية في مواجهة المشروع الصهيوني من جهة، وكسند ودعم للاستراتيجيات العربية في منطقة الخليج العربي من جهة ثانية، وكقوة متوازنة يمكن للتعاون أو التفاهم بينها وبين إيران أن يشكل أثراً إقليمياً يمكنه الخروج عن الخطوط الحمراء الأمريكية من جهة ثالثة. الأمر الذي يعتبر تهديداً مباشراً للأمن القومي الأمريكي، بحسب الدراسات الأمريكية – فيما يخص النفط وإسرائيل- قوة النفوذ السياسي في الخليج العربي[٥٢]. لذلك فإن عزل إيران وإضعاف العراق وتدمير قوته الاستراتيجية يتيح الفرصة للوجود الأمريكي والتدخل العسكري في الخليج وفي قطاعات أخرى من إقليم "الشرق الأوسط". إضافة إلى أن الحرب بين البلدين ستمكن أمريكة من ضرب ما تسميه "الأصولية الإسلامية"، التي تقودها إيران و"الراديكالية العربية"* التي يقودها العراق وبالتالي تحول دون لقائهما الذي يشكل أيضاً خطراً كبيراً على المصالح الأمريكية –الإسرائيلية في المنطقة.

وبالنسبة **للاتحاد السوفييتي** "آنذاك" و "الذي كان قد بدأ في غزو أفغانستان في كانون الأول ١٩٨٠"[٥٣]، هذا النظام الذي لم يكن مع الشاه وسياسته الأمريكية في أي وقت، كما أنه كان يخشى من انتشار مؤثرات الثورة الإسلامية الإيرانية إلى الجمهوريات الإسلامية السوفيتية المتاخمة لإيران، مما جعله متحفظاً من الثورة الإسلامية الإيرانية وشعاراتها واندفاعاتها. وقد تصادف اندلاع الحرب العراقية- الإيرانية ضمن فترة تراجع الحرب البادرة، والتغييرات التي أخذت تتفاعل بين دول المنظومة الاشتراكية، "حيث ظهور الجمهوريات الإسلامية الجديدة في إطار رابطة الدول المستقلة، مما فسح للسياسة الإيرانية حقلاً جديداً للعمل تؤدي فيه الصلات التاريخية والثقافية، والجوار الإقليمي، دوراً مؤثراً وكبيراً[٥٤]. وهذا ما سيفتح آفاقاً مهمة أمام إيران لاتخاذ دور مهم وفاعل بين تلك المجموعة الإقليمية، وهذا يعني حذر السوفييت من الحرب ومخاطرها وتبعاتها السياسية "شرق أوسطياً" وعالمياً.

أما **تركية**، التي خشيت من الثورة الإسلامية الإيرانية، ورغبت في فشلها، لإبقاء إيران ضعيفة وغير قادرة على تأدية أي دور إقليمي منافس. إلا أنها اتخذت موقفاً حيادياً من الحرب العراقية – الإيرانية، البلدين المجاورين، لتحقيق فوائد اقتصادية وسياسية هامة: حيث أفادت اقتصادياً، من مرور النفط العراقي عبر أراضيها، ومن تزايد النشاط التجاري لموارد مختلفة عبر حدودها وموانئها البحرية، باتجاه البلدين إيران والعراق "وهذا ما أنعش الاقتصاد التركي في تلك الفترة"[٥٥]، حيث ارتفع حجم التجارة التركية مع إيران بسرعة، فقفز من ٨٥ مليون دولار عام ١٩٨٠ إلى ١٠٠٨ مليار دولار عام ١٩٨٣[٥٦]، وأصبحت إيران الدولة السادسة في استيراد السلع والمنتجات التركية، في الوقت نفسه تصدر إيران إلى تركية نفطاً بقيمة ١٠٢ مليار دولار وبإمكان المنتجين الأتراك أن يتوقعوا ورود طلبات رئيسية من إيران لاستيراد الحديد والمنسوجات والمنتجات الكهربائية والإلكترونية والآليات والأجهزة والكيماويات. وتحصل تركية على ٦ ملايين طن من النفط بطاقة نقل ١٠٥ مليون برميل يومياً من النفط الإيراني.. وفي مطلع عام ١٩٨٥، وقّع أوزال ومير حسن موسوي رئيس وزراء إيران على بروتوكول للتبادل التجاري بقيمة ٣ مليار دولار، أملت تركية أن يؤدي إلى تصدير ما قيمته ١٠٥ مليار دولار من السلع والمنتجات خلال السنة نفسها[٥٧]. كما صدّرت تركية عام ١٩٨٤ إلى العراق ما قيمته ٩٠٠ مليون دولار من السلع... بينما يجري العمل على إقامة خط أنابيب ثانٍ موازٍ لخط أنابيب النفط العراقي الذي ينقل النفط الخام من حقول كركوك إلى ميناء ماتورلنيك على البحر المتوسط[٥٨].

أما ما أفادت منه تركية سياسياً، فهو أنها قدمت "مجاناً وضعاً استراتيجياً سياسياً"[٥٩] رئيسياً بعد أن استنزفت الحرب طاقات البلدين، في ظل تردي أوضاع المنطقة العربية من جراء تزايد حدة الصراع العربي–الإسرائيلي، وخطط التسوية الهادفة لإخضاع البلدان العربية للهيمنة الصهيونية، خاصة بعد إخراج مصر من ساحة الصراع. إذ إن تركية لن تترك الفرصة لتمر دون تأدية دور إقليمي قيادي، وفي هذا صرّح "توغورت

أوزال" رئيس وزراء تركية في ١٩٨٤ "أن على تركية أن تقوم بدور في "الشرق الأوسط"... إن هذا الدور تقرره أولوياتنا السياسية وتطور الأوضاع في المنطقة"(٦٠). ومما يؤكد هذه السياسية، الشعارات التي أعلنتها تركية في ذلك الحين، حول رصّ الصفوف بدافع "من الإحساس بالمصير المشترك" و"ضرورة حماية المنطقة". وبذلك فإن سياسة الحفاظ على الأوضاع القائمة هي الأكثر ملاءمة لمصالح تركية والغرب في تلك الفترة.

لهذا لم تساند تركية أي من طرفي النزاع في الحرب، مما أدى لأن يكون الرئيس التركي السابق "أوزولو" عضواً فعالاً في "لجنة المساعي الحميدة" المنبثقة عن "المؤتمر الإسلامي" للتوسط بين العراق وإيران(٦١). كما اتخذت تركية سياسة الحيطة والحذر تجاه أمن المواطن العربي، مما جعلها تمتنع عن السماح باستخدام المنشآت الدفاعية في تركية ضد الدول العربية. إلا أن هناك مخاوف تركية من استمرار الحرب، حول تحركات الأكراد الانفصالية والقوى المعادية ضد البلدين، مما دفع القوات المسلحة التركية في أيار ١٩٨٣ بموافقة الحكومة العراقية، بعملية توغل داخل الأراضي العراقية بعمق ١٠ كم، لمحاربة المجموعات المسلحة في تلك المنطقة(٦٢).

بذلك نجد أن السياسة التركية كانت تتحرك إقليمياً، وآنياً، وفق ما يخدم مصلحتها الوطنية والدولية، وفي ذات الوقت تحافظ بثبات على جوهر توجهات سياستها الغربية، ولاسيما في المجال الدفاعي.

* تداعيات الحرب العراقية-الإيرانية عربياً، إقليمياً، دولياً:

- إن المواقف العربية المتخذة من الثورة الإسلامية-الإيرانية، ما بين مؤيد للثورة (سورية، الجزائر، ليبية)، ومتوجس بعيد عن تأييدها (خاصة دول الخليج العربي والسعودية) قد عكست تباين السياسيات العربية، وصعوبة التوصل إلى موقف عربي موحد. وهذا ما عكسته الحرب العراقية- الإيرانية، حيث برزت حالة التمزق العربي، التي ثبت أنه لا بد من تجاوزها في ظل تزايد أطماع الغرب

وأمريكة في المنطقة وضرورة التوصل إلى موقف متضامن يحمي الوطن العربي، ويحافظ على أهميته الاستراتيجية، لمواجهة الأخطار المهددة لأمنه.

- برز بوضوح في أعقاب الحرب العراقية- الإيرانية، سباق التسلح في الخليج العربي والاعتماد بشكل رئيسي على السلاح الغربي والأمريكي، خاصة في ظل ظروف تراجع الحرب الباردة، ومؤشرات تراجع دور المعسكر السوفييتي. لذلك "بدأت السياسة الغربية ومنذ عام ١٩٨٠، بمدّ الجسور مع النظام العراقي وتزويده بالأسلحة التي يطلبها، وفسحت المجال للتجار والوسطاء بالعمل على توريد التجهيزات والأسلحة التي لا تسمح قوانين تلك الدول ببيعها إلى دول مثل العراق، ونتيجة لذلك تجول التسليح العراقي إلى الغرب بنسبة كبيرة جداً، خاصة في المجالات الأكثر تكنولوجية"(٦٣). إضافة إلى المبالغ الطائلة من البترودولارات التي دفعت كمعونات أجنبية، التي لا بد من أن تشكل ضغوطاً سياسية تسخّر في خدمة مصالح الدول المدينة، هذا ما سيزيد في ظهور حالات عدم الاستقرار في المنطقة.
- أدت الحرب العراقية – الإيرانية، التي استنزفت قوة البلدين، إلى تزايد حدة الصراع العربي- الإسرائيلي، ولاسيما في ظل سياسة التسويات السلمية، الهادفة إلى مزيد من تمزيق الأمة العربية في مواجهتها خطر التوسع الصهيوني في المنطقة. وهذا ما نشرته صحيفة الحزب الجمهوري الإسلامي في مقال استعرض الخسائر الفادحة التي أصابت المدن الإيرانية من جراء الحرب... ووصفت الشلل الكبير الذي أصاب معامل تكرير البترول إلخ... وأشار المقال إلى أن الحرب الدائرة بين الدولتين لن تفيدهما، بل ستفيد إسرائيل العدو الأول للعالم الإسلامي(٦٤).
- كما فسحت الحرب العراقية- الإيرانية المجال واسعاً، للتدخل العسكري (الغربي الأمريكي) في الخليج العربي، مما شكل تهديداً خطيراً، فكان تفجر حرب الخليج الثانية عام ١٩٩٠، مما أدى إلى تغيير جذري في السياسة الكويتية "مؤداه التحول إلى سياسة الردع العسكري مما استدعى إخراج العراق من معادلة التوازن

الاستراتيجي في المنطقة، وتدعيم القدرة الدفاعية الكويتية(٦٥)، بالاعتماد على الضمانات الخارجية لأمن الكويت، وبنفس الوقت استبعاد دور سورية ومصر وإيران المباشر في أمن الخليج.

- إن عزل إيران، وإضعاف العراق وتدمير قوته الاستراتيجية يتيح الفرصة لوجود وتدخل هيمنة عسكرية أمريكية في الخليج وفي قطاعات أخرى من "الشرق الأوسط".
- أدت الحرب إلى مزيد من التمسك الأمريكي بالحفاظ على ضمان تفوق إسرائيل في المجالات كلها بين دول المنطقة، وبالتالي ضرورة زيادة تسليحها، وخلق مسوغات تسلطها وتوسعها.
- أدت تداعيات الحرب العراقية - الإيرانية إلى تبدل الإطار الإقليمي للسياسة الخارجية الإيرانية منذ نهاية الحرب، وذلك بحكم ضرورة إعادة البناء. وهذا يعني خروج إيران من عزلتها العامة التي وقعت بها بسبب الحرب، وصار لا بد لها من الانفتاح السياسي والاقتصادي إقليمياً ودولياً. ولذا قامت إيران بالتحرك تجاه المشرق والمغرب العربي في محاولة لاكتساب أرضية إقليمية وتحسين علاقاتها الدبلوماسية بعدد من الأنظمة الحاكمة وعلى ضوء هذا التوجه، أنجزت الحكومة الإيرانية سلسلة من العلاقات مع معظم دول الخليج "السعودية والكويت وقطر والبحرين... وغيرها، إضافة إلى العلاقات مع المغرب العربي وليبية ومصر والسودان"(٦٦).
- لقد دفعت الحرب بكل من إيران والعرب - لاسيما دول الخليج العربي- إلى ضرورة اتخاذ خطوات لا بد منها وهي: ١- التوقيع على ميثاق تضامن وعدم اعتداء فيما بينها كإجراء حماية، ٢- تشكيل كتلة تجارة إقليمية تضمنها جميعاً، لحفظ قدراتها الاقتصادية.

دراساته، وتهدف إلى تفتيت سورية ومصر والعراق، ثم تفتيت تركية وإيران وباكستان.

- إذن، إن سياسة التعاون والتضامن الوثيق عربياً وإسلامياً، قد يخلق فرص النهوض ومواجهة الأخطار الكبيرة التي تجتاح منطقة الشرق الأوسط وتهدد وجودها.

وبهذا فإن الحرب العراقية الإيرانية، قد أدت إلى تداعيات خطيرة في منطقة "الشرق الأوسط" بشكل عام وفي الوطن العربي بشكل خاص، إذ إن احتلال امريكا لأفغانستان، والاحتلال الأمريكي-البريطاني للعراق، والتهديد الأمريكي للدول العربية الأخرى، (دول الخليج العربي التي أصبح معظمها قواعد أمريكية- غربية). تعد من أهم تلك الأخطار، والتي لا بد من مواجهتها بمزيد من الوعي للخلاص من التخلف والتبعية، والسعي نحو تطبيق الديمقراطية الصحيحة النابعة من المطالب الوطنية والقومية، ومقتضيات النهوض الاقتصادي والسياسي والاجتماعي للبلاد. ومما لا بد من الاهتمام به، العمل على التعاون والتضامن مع بعض دول "الشرق الأوسط" التي تتعرض للأخطار والتهديدات الأمريكية -الغربية نفسها، (إيران وتركية وباكستان وغيرها...) وذلك لتشكيل كتل اقتصادية-سياسية قادرة على التحدي والمواجهة، ولاسيما أن إمكانية التكامل بين تلك الدول متوافرة على أرض الواقع، لأنها تقع في محيط استراتيجي متميز واحد.

الهوامش

(١) صفوت نجدت فتحي، من نافذة السفارة (**العرب في ضوء الوثائق البريطانية**). رياض الريس للكتب والنشر. لندن ١٩٩٢، ص ٢٢.

(٢) زين نور الدين، ال**صراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان**. دار النهار. بيروت، ١٩٧٧، ص ٢٢.

(٣) حيدر نبيل، تركية، **دراسة في السياسة الخارجية منذ ١٩٤٥**. صبر للطباعة والنشر. دمشق ١٩٨٦، ص ٢٢.

(٤) **المصدر السابق**، ص ١٠٣.

(٥) وثائق دامغة. صادر عن وزارة الإرشاد الإسلامي. طهران ١٩٩٠، ص ٢١٠.

(٦) هيكل حسنين محمد، **المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل**، ج١، الشروق، القاهرة، ١٩٩٦، ص ١٦٦.

(٧) سلسلة دراسات استراتيجية (١٢) تركية، صعوبات وآفاق. دائرة الشؤون الخارجية والدفاع القومي، إدارة أبحاث الكونغرس، مكتبة الكونغرس ١٩٨٠، ص ٤٦.

(٨) هيكل حسنين محمد، **المفاوضات السرية، ج١، السابق**، ص ١٦٦.

(٩) تبيل حيدري، تركية، **مصدر سابق**، ص ١١٥.

(١٠) صحيفة اللومند، باريس ٢١ نيسان، ١٩٣٥.

(١١) صفوت نجدت فتحي، **من نافذة السفارة**، مصدر سابق، ص ١٥٦.

(١٢) **المصدر نفسه**، ص ١٦٢.

(١٣) **المصدر نفسه**، ص ١٥٤.

(١٤) خيري زكي، **الحرب العراقية-الإيرانية (قضايا الدفاع عن الوطن والثورة)**، د.م، د. ن، ٢٥ نيسان ١٩٨٧، ص ١٠.

(١٥) **المصدر السابق**، ص ١٢.

(١٦) **المصدر السابق**، ص ١٦.

(١٧) فريد هوليداي، **مقدمات الثورة في إيران**، ترجمة مصطفى كروكوتي، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٧٩، ص ١٢٦-١٢٧.

(١٨) **المصدر نفسه**، ص ٣٤٠.

(١٩) **المصدر نفسه**، ص ١٤١.

(٢٠) **المصدر نفسه**، ص ١٣١.

(٢١) **المصدر نفسه**، ص ٣٥٠.

(٢٢) **المصدر نفسه**، ص ٣٤٠.

(٢٣) حيدري نبيل، **مصدر سابق**، ص ١٠٦.

(٢٤) **المصدر نفسه**، ص ١٠٧.

(٢٥) **المصدر نفسه**، ص ١٠٧.

(٢٦) **المصدر نفسه**، ص ١١٢.

(٢٧) **المصدر نفسه**، ص ١١٣.

(٢٨) **المصدر نفسه**، ص ١١٤.

(٢٩) **المصدر نفسه**، ص ١١٣-١١٤.

(٣٠) **التحديات الشرق أوسطية والوطن العربي**، مركز دراسات الوحدة، بيروت آذار ١٩٩٤، ص ١٢٨.

(٣١) حيدري نبيل، **مصدر سابق**، ص ١١٥.

(٣٢) **المصدر نفسه**، ص ١٥٥.

(٣٣) من حديث إذاعة مونـــت كـــارلو، منـــدوب مجلـــة المســـتقبل بتـــاريخ ١٩٧٩/٤/٢٧.

(٣٤) مأخوذ عن الإنترنت Htt://en2.wikpeda.org

(٣٥) مأخوذ عن الإنترنت IBID.

(٣٦) هيكل حسنين محمد، **المفاوضات السرية، ج١، السابق**، ص ٢٨.

(٣٧) الدسوقي شتا ابراهيم، **الثورة الإيرانية**، الزهراء للإعلام العربي طهـــران ١٩٨٤، ص ٢٤٦.

(٣٨) مركز دراسات الوحدة ، **مصدر سابق**، ص ٢٠٥.

(٣٩) هيكل حسنين محمد، **المفاوضات السرية بين العـــرب وإســـرائيل**، ج١، الشروق، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٤٤٩.

(٤٠) خير ذكي، **المصدر نفسه**، ص ١٤.

(٤١) البوسعيد نزار، **المصدر نفسه**، ص ١٠.

(٤٢) **المصدر السابق**، ص ١١.

(٤٣) **إيران اليـــوم**، صادر عن منظمة الإعلام الإسلامي، طهران رقـــم ٣٨٣، صدر عام ١٩٩٠، ص ٧٣.

(٤٤) البوسعيد نزار، **الحرب العراقية الإيرانية**، دراسة سياسية عسكرية، جامعة دمشق مديرية المكتبات ١٩٩٤، ص ١٤.

(٤٥) من كلمة السيد الرئيس حافظ الأسد لدى استقباله الرئيس كورت فالـــدهايم بتاريخ ١٩٨٨/١٠/٢٧، مأخوذ عن كتاب كذلك قال الأســـد، دار اطـــلاس للدراسات الترجمة والنشر، دمشق، ص ٤٦٦.

(٤٦) مركز الدراسات الاستراتيجية، **مصدر سابق**، ص ٨٣٤.

(47) Syria under Assad, Edited by Moshe Mooze and Avner Yaniv, London & P.p 108.

(48) IBID.

(٤٩) خيري زكي، **المصدر نفسه**، ص ٢٠.

(٥٠) **المصدر السابق**، ص ٢١.

(٥١) **المصدر السابق**، ص ٢١.

(٥٢) مركز الدراسات الاستراتيجية، **مصدر سابق**، ص ٧٩٧.

(٥٣) مجلة عالم المعرفة، العدد (٢٥٠)، السبكي آمال، **تاريخ إيران السياسي بين ثورتين (١٩٠٦-١٩٧٩)**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٩٩، ص ٢٤٨.

(٥٤) مركز الدراسات الاستراتيجية، **مصدر سابق**، ص ٩١٠.

(٥٥) لقاء مع وزير الإعلام السوري، بتاريخ ٢٠٠٤/٥/١٠.

(٥٦) حيدري نبيل، **مصدر سابق**، ص ١٢٠.

(٥٧) **المصدر نفسه**، ص ١٢١.

(٥٨) **المصدر نفسه**، ص ١٢٠.

(٥٩) **المصدر نفسه**، ص ١٢٣.

(٦٠) **المصدر نفسه**، ص ١٢٤.

(٦١) **المصدر نفسه**، ص ١٢٦.

(٦٢) مركز الدراسات الاستراتيجية، **مصدر سابق**، ص ٧٩٧.

(٦٣) **المصدر السابق**، ص ٨٣٦.

(٦٤) مجلة عالم المعرفة، ، العدد نفسه، ص ٢٥٧.

(٦٥) **المصدر السابق**، ص ٢٦١-٢٦٢.

أثر الفكر الأنغلوسكسوني في تشكيل الذهنية المعاصرة وتعاملها مع الشعوب "العراق نموذجاً"

الدكتور محمد يوفا
قسم التاريخ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة دمشق

١-احتلال انكلترا لأمريكة والمدرسة الأنغلو- سكسونية:

كان عام ١٧٨٣، هو العام الذي ظهرت فيه الولايات المتحدة الأمريكية دولة مستقلة على الساحة الدولية. لا يمكننا عامة تجريد تاريخ أمريكة الشمالية – الشرقية من أوربا لاسيما من إنكلترا حتى هذه المرحلة التي عيشت بها هذه الحالة. وكانت هذه الجغرافية الاستعمارية تحت رحمة المؤسسات التعليمية والكنائس والمؤسسات السياسية المستوردة من إنكلترا والتي تُحكم بقوانين إنكلترا(١). تستخدم المستعمرات والجماعات الموجودة في أمريكة من قبل ملكية إنكلترا وهي ملك خاص لشركات مختلفة متخصصة من قبل ملك إنكلترا. جميع الأراضي المسلوبة والثروات هي المُلكية الخاصة للملك الذي يمثل "الإله" في الأرض والملك حائز سلطة استخدام هذه القوة بكل سخاء من أجل "رفاهية" شعبه ووطنه وأفراد عائلته. مما لاشك فيه أن

الثروة الهائلة، التي تم سرقتها من القارة الأمريكية وتم تحويلها إلى أوربا، عززت القوة الاقتصادية للطبقات الأسبانية والبرتغالية والهولندية والفرنسية والإنكليزية الحاكمة. عدا ذلك جعلت هذه القوة المغامرات العسكرية الجديدة وعملية التوسع ممكنة. بالرغم من عدم تحقيق القطاعات الواسعة مكاسب اقتصادية كبيرة خلال المرحلة الأولى، تم إجبار الطبقات الحاكمة على توزيع قسم من الثروات المسروقة نتيجة إرتفاع حدة الحروب الاستعمارية وانتشارها إلى أماكن واسعة. لقد كون الاشتراك "جماعياً" بالاستعمار والاستفادة "مناصفة" من المسلوبات، سياسات الاستعمار الإنكليزي _ الأوربي على أمريكة(٢).

هذه هي إحدى الحقائق الموجودة وراء إظهار الشعب الاحتجاجات "الضعيفة" تجاه الولايات المتحدة الأمريكية التي وضعت المفاهيم السياسية – العسكرية ضد الشعب المحلي والرقيق الأفريقي في الداخل والشعوب المختلفة في الخارج حيز التنفيذ وذلك منذ تأسيسها بدون استثناء. يوجد وراء التعصب والتمييز العنصري "الأبيض" الأوربي المنشأ هذا العامل المهم الذي تطور ضد المجموعات الأجنبية والأقليات الموجودة في بنيتها(٣). يجب علينا ذكر الحوادث الثلاثة المهمة لكي نفهم هذا الموقف الذي حدث في تاريخ إنكلترا قبل مغامرة أمريكة. إذ تقدم لنا هذه المراحل التاريخية الثلاثة معلومات مفيدة لكي نفهم المرحلة التاريخية للتربية الدينية– العنصرية التي تأسست في إنكلترا وتم تصديرها إلى أمريكة.

الحادثة الأولى هي الهجرة اليهودية المنظمة الأولى إلى إنكلترا في القرن الثاني عشر.

أ. مفهوم "الشعب المختار" والمدرسة البوريتانية:

أقامت مجموعة يهودية قليلة العدد في الجزيرة البريطانية. كذلك قدمت من فرنسا خلال الاحتلال الفرنسي للجزر البريطانية الذي تم عام ١٠٦٦ على يد ويليام الملك

النورمندي (الفرنسي) أول هجرة يهودية حدثت بشكل منظم إلى إنكلترا كانت في عهد الملك Richard (١١٨٩-١١٩٩) الذي سُمي "قلب الأسد". لقد حقق اليهود الذين انتقلوا إلى الأندلس (منذ القرن السابع والثامن) في عهد تطور الإمبراطورية العربية -الذين كانوا بمثابة جسر بين أوربا الشمالية - الشرقية وسورية- مكاسب قيمة في مجال التجارة والدبلوماسية. إذ استخدموا مكاسبهم هذه في إعطاء الشكل السياسي والتحويلي لأوربا. و قد اضطر Richard ، الذي شارك بالحملات الأوربية للعودة إلى بلاده دون أن يحقق أطماعه في سورية ليعطي اليهود امتيازات كبيرة بهدف الاستفادة من خبراتهم في معرفة المنطقة بشكل جيد. وقد جرت أول عمليات جدية ضد اليهود بسبب الفعاليات المناهضة للكاثوليكية وبسبب ضلوعهم في حبك "المؤامرات والدسائس" ضد البارونات المتضررين من نظام Richard "الاحتكاري". ولكن نتيجة تدخل Richard استمر اليهود بالحفاظ على وضعهم "الخاص". غير أنه تم إخراج قسم كبير منهم من إنكلترا في عهد الملك Edward الأول (١٢٧٢-١٣٠٧). قبَل البوريتانيون(٤)، الذين سيطروا على الحياة السياسية في إنكلترا ابتداء من عام ١٦٤٠، بعودة اليهود مرة أخرى وذلك بعد المحادثات التي أجروها مع زعيم التجمع اليهودي في هولندا Menasehben Israel . وتُصادف هذه المرحلة تحقيق النظام البوريتاني الإنكليزي مكاسب مهمة خارج بلادهم. ولا يخفى على أحد الدور الذي أدّاه الحاخامات في إنقاذ العديد من الدول الأوربية بما فيها إنكلترا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر من ظلم كاثوليكية روما إسهامهم في الحركة البروتستانتية. وقد أثبتت المصادر، أنه كان لليهود إسهامات فعالة في الاحتلال الأوربي للقارة الأمريكية الذي بدأ مع رحلات Columbus ولاسيما في الفعاليات الإنكليزية. فضلاً عن بدء اعتناق التعاليم الإيمانية العرقية، التي تؤمن بأن اليهود شعب الله "المختار" وأنهم عرق "متفوق" والسائدة في العقيدة اليهودية، والمتمثل آنذاك في المؤسسات الدينية - السياسية الإنكليزية ابتداء من

القرن الثاني عشر. وقد شكل مفهوم "الشعب المختار" لليهود، الذي انسجم مع السياسات العرقية للسلطات الإنكليزية، أساساً لنشاط الاحتلال الإنكليزي لأمريكة، واستخدم كأسلوب حياة لها على نطاق واسع(٥).

ب. العامل الديني في المفهوم الاستعماري:

تعد المسألة الثانية من أسس الكنيسة الإنكليزية "Anglican Church" التي وُضعت تحت الرعاية المطلقة للسلطات السياسية – الاقتصادية الإنكليزية المهيمنة. إذ عملت التعاليم التاريخية التقليدية على سيادة مفهوم يؤكد أن الحركة البروتستانتية التي ظهرت على مسرح التاريخ ضد كنيسة روما الكاثوليكية أنها تمتلك مبادئ سياسية "شعبية" و"تقدمية". بل تقف أيضاً إلى جانب المظلومين ومع الأسف لم يخضع هذا الموضوع لأي تقويم علمي. وقد قبلت هذه المفاهيم، التي تفتقر لأي دليل ملموس من قبل بعض الأوساط الأكاديمية بشكل مطلق شريطة أن نقبل حقيقة أن كنيسة روما مرت في مراحل تاريخية متعددة كانت فيها "ظالمة" و "توسعية" و "متعصبة". غير أن إطلاقنا كلمة "تقدمية" لكل حركة تظهر مناهضة لهذه المؤسسة "الرجعية" وضد ما تمثله من قيم سيوقعنا في أغلاط كبيرة. وقد خلق هذا المعنى بروز بعض المؤسسات البديلة ذات الصبغة السياسية الأكثر "رجعية" من سابقتها. وبالرغم من وجود مقولات "تقدمية" و "إنسانية" في لب الطرح البروتستانتي **فإن الذين شجعوا الحركة ودعموها بشكل مباشر هم الفئات التي لم تستفد من برامج كنيسة روما القائمة على أساس "السلب والنهب".**

ومن الجدير بالذكر أن كنيسة روما الكاثوليكية كانت تتقاسم العالم بالشكل الذي تريده انطلاقاً من كونها المرجع الوحيد الأقوى لأوربا من الناحية السياسية والعسكرية والاقتصادية. ويأتي على رأس الدول المستفيدة من ذلك إسبانيا والبرتغال اللتان أثبتتا أنهما مصممتان على "مناهضة المسلمين" ولم تستطع دول شمال-غرب أوروبة

ولاسيما إنكلترا المشاركة في عمليات " نهب العالم" بالطريقة التي يريدونها. ونتيجة لذلك لم يستطيعوا نيل الثراء الذي يرغبون به. ولهذا اتهموا روما بأنها سبب ذلك فدعموا سراً وعلناً كل فعالية تتشكل ضدها (روما). وكم تليق عبارة جميلة للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه "كلمة حق يراد بها باطل" لوضع إنكلترا آنذاك.

لقد تم اتخاذ أول موقف إنكليزي جدي ضد روما حيث قطعت الروابط جميعها من قبل الملك Henry الثامن (١٥٠٩-١٥٤٧). وفي الحقيقة لم يكن Henry هذا "متديناً" بل كان مرتبطاً مادياً ومعنوياً بالخرافة الأنغلو-سكسونية التقليدية وكان يدعم الفكرة القائلة " إن السعادة والثراء لا تأتيان من الكنيسة ولا من رجال الدين، بل عن طريق قراءة الإنجيل التي تمثل وجهة نظر John Wycliffe أحد عمالقة الأدب الإنكليزي. وبالرغم من أن Henry "العلماني" الذي أخذ غضب الكاثوليك الموجودين في بلاده بعين الاعتبار، لا يزال يعد نفسه كاثوليكياً ، وتزعم الكنيسة من خلال إعلانه أن الملك هو المخلوق الوحيد الذي يمثل الإله على وجه الأرض. ويدعي بأن "الذات" التي تتزعم الكنيسة روما ليست أكثر من مجرد راهب مسؤول يستولي على ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية ويتقاسم المال المسلوب من الكنيسة بين البارونات الإنكليز و"الرهبان" الجدد الذين عينهم Henry في الكنيسة. في الحقيقة ما نشاهده في تاريخ إنكلترا من علاقات بين الدولة والدين يوضح لنا أن الدين استخدم كوسيلة استعمارية وضغط أساسي بيد السلطة السياسية التي أكدت إفراغ محتوى مفهوم "الدين المسيحي" السماوي، التي قامت به كنيسة روما الكاثوليكية قبل ١٢٠٠ عام وتحويله إلى عنصر بيد الدولة ضد المجتمع. أما المرحلة التي بدأت مع Henry فهي مرحلة عدم فصل المؤسسات الدينية عن السلطات السياسية خشية تحولها إلى مؤسسات جانبية تعمل على إظهاره وتدافع فيه عن جميع ممارساته بالوساطة والأقاويل الدينية. هذا التاريخ هو في الوقت نفسه تاريخ سرقة ونهب القراصنة الإنكليز أو بعبارة أخرى "الكلاب البحرية

الإنكليزية" الذين استخدموها بكل فخر واعتزاز ضد السفن الأسبانية التي كانت تنقل ثروات القارة الأمريكية.

المسألة الثالثة هي تحويل الفعاليات التجارية الخارجية إلى شركات لفرض السيطرة الاحتكارية.

ج. الهيمنة الاحتكارية والقومية البوريتانية في أمريكة:

إن الملكة Elizabeth التي تربعت على عرش إنكلترا في الخامسة والعشرين من عمرها (١٥٥٨-١٦٠٣) كانت بمثابة مؤسسة للكنيسة الإنكليزية "Anglican Church" . الملكة هي أهم ممثلة للفعاليات الاستعمارية التي خُبزت بسياسات "التعاليم الدينية الإنكليزية " و "الوطن" و"الشعب" و "إنكلترا". هذا المفهوم سيشكل بعد ذلك حجر أساس المستعمرات الإنكليزية في أمريكة. الأسطول الأسباني الذي تحرك من أجل معاقبة إنكلترا في عام ١٥٨٨م وعودته منهزماً من مغامرة إنكلترا، خلق لإنكلترا الإمكانات الاستعمارية الجديدة ما وراء البحار. فقد قامت الدولة الإنكليزية وإليزابيث كرأس الكنيسة بتنظيم جميع الفعاليات التجارية الخارجية والداخلية بوساطة الشركات الخاصة التي تأسست بإذن منها والتي كانت هي مساهمة فيها.لقد تبنت إليزابيث خطوات أسبانيا ، من مرحلة "الاحتكار" والتحول إلى شركات للتجارة والمؤسسات المالية فمثلت أم الرأسمالية التجارية الإنكليزية.

لقد تم تأسيس جميع المستعمرات من دون استثناء من قبل الشركات الخاصة. حيث عدّت جميع الأراضي المحتلة و الأشياء المغتصبة هي ملك الشركات الخاصة وملكية إنكلترا و لا يحق لأي شركة التدخل بشؤون الشركة الأخرى ولا يتم استخدام المنتجات التجارية التي تمثلها هذه الشركة كَ "سلعة" من قبل الآخرين. وهذا ما يذكرنا بأن الشركات الدولية الكبيرة الإنكليزية الأكثر تأثيراً في تلك الفترة:

British East Indian Company التي احتكرت تجارة الشاي السيلاني واكتسبت حق نهب الهند، Moscavy Company إذ راقبت الفعاليات الموجودة في منطقة البلطيق

وأوروبة الشرقية-الشمالية وآسيا الوسطى و Royal Exchange التي حولت الحياة الاقتصادية الداخلية والخارجية بالقروض و John Cabot مما أسفر عن ذلك ازدهار تجارة الرق و Frankis Drake وقد كان المسؤول عن إدارة عمليات القرصنة و Walter Raleigh المكلف بتأسيس المستعمرات الأولى في شمال أمريكة. وهذه المرحلة هي التاريخ الذي نفذ فيه "الإرهاب" و "التخريب" على يد الدولة وتم التشجيع على ذلك بشكل علني في تاريخ إنكلترا(٦). بالرغم من الثروة الهائلة التي جمعتها إنكلترا طوال حكم الملكة Elizabeth ، لقد كان الشعب الإنكليزي يعيش أسوأ الحروب مع الفقر والأمراض الشائعة، ولهذا قامت إليزابيث بإصدار "فرمان" يتضمن تحويل دعم المنازل الفقيرة من قبل الدولة إلى قانون بغية تحاشي التمرد. فقد قامت الأرستقراطية الإنكليزية، التي زادت غناها ، بتقديم اقتراح ذات صبغة غريبة وذلك كونهم رفضوا تقديم إمكاناتهم للجماهير الفقيرة، من هنا نمت فكرة تصدير "الفقراء" و "المجرمين" إلى مستعمرات خارجية وقد أسفر عن عملية تصدير المشاكل التي مازالت سارية المفعول في يومنا هذا إلى الخارج، بغية الحفاظ على رفاهية "ديمقراطية" الطبقة الحاكمة وإزالة الفقر من الجذر. وقد أسهمت عملية تصدير أوروبة ولاسيما وإنكلترا، الناس إلى نيوزلندا واستراليا وأمريكة وأفريقيا الجنوبية وفلسطين واليوم إلى قواعد إنكلترا والولايات المتحدة الأمريكية، التي يفوق عددها الثمانمائة قاعدة المنتشرة في العالم، وذلك من اجل مواصلة "الديمقراطية الليبرالية" (!) و "الاستقرار" السياسي الموجود في بلدهم لأنهم يدركون تماماً بأنهم سيضطرون لتحويل سياساتهم اللاديمقراطية وسياسة "السلب والنهب" التي مارسوها في الخارج على شعوبهم في حال فقدوا مستعمراتهم وأسواقهم.

نؤكد أن الحكم الإنكليزي على أمريكة قام على العنصرين الرئيسيين التاليين:

الرجعية الدينية والسيطرة الاقتصادية الاحتكارية

إن ممثلي المدرسة الأنغلو-سكسونية(٧)، الذين هم العنصر القائد في تنميط تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، يدافعون عن إله وعد المجتمع الإنكليزي بأمريكة والتي تمثل إليهم أرض "كنعان". ولهذا استخدم John Winthrop والي ولاية المستعمرة الإنكليزية Massachusetts الكائنة في شمال-شرق أمريكة مفهوم "شعب بلا أرض وأرض بلا شعب" والذي سيستخدم من قبل الصهاينة الأوربيين ضد فلسطين بعد مدة طويلة من الزمن، نفذت من أجل أمريكة وسكانها المحليين في أوائل القرن السابع عشر، حيث قام بالدفاع عن المفهوم التالي : أن السكان المحليين ليسوا مسيطرين على الأرض ولهذا السبب عدّوا بأنهم مرتبطون برباط "طبيعي" بهذه الأراضي وليس برباط قانوني مدني (!) وادّعوا بأن الإله وعد اليهود ببلد "كنعان" (سورية، لبنان، فلسطين، ومنطقة البحر الأبيض المتوسط الشرقية التركية) وقوة أرض "كنعان الجديدة" الأمريكية للإنكليز نفسها. وقد يتباهى المفهوم "البوريتاني " علناً بأن الإله خلق الأمريكي لكي يكون مسيطراً على العالم وأنه يريد أن يراه "ثرياً" دون غيره. "القوي والثري يكون باقياً دائماً. الرب قوي وأقرب إلى هؤلاء ، ومن يبقى في الأسفل يسحق" وقد اعتمد هذا المبدأ بشكل أساسي دعاة المدرسة البوريتانية. وثبت بعض المؤرخين ممن سعى لإقامة توازنات رئيسية بين البروتستانتية البوريتانية، والرأسمالية الاحتكارية(٨).

لقد ظهرت المدرسة البوريتانية في شمال-شرق أمريكة بعدما أخذت المستعمرات الإنكليزية مكانها بشكل مكثف في القرن السابع عشر، إذ ادعت بأنه تم توظيفهم من أجل تأسيس "نظام عالمي جديد" في أمريكة. وقد زعموا بأن المجازر التي قاموا بها ضد الشعب المحلي هي خطوة "تقدمية" ومن اجل تأسيس "حضارة عالمية" جديدة، وكتبوا بأن ما قاموا بفعله هو ضرورة "إلهية" لأن جميع المصادر والمذكرات التي

كتبت في ذلك الحين من دون استثناء، خاصة كتاب "Of Plymouth Plantation" الذي كتب خلال عام ١٦٣٠ والذي يعد مرجعاً تاريخياً مهماً عن تلك المرحلة ، يشكل مثالاً مهماً للمشاريع الدينية المتعصبة والتوسعية والعنصرية(٩). قام (البوريتانيون) الأنغلو-سكسونيون منذ أن وطأت أقدامهم أرض أمريكة باستخدام الأديان السماوية كورقة بأيديهم معتمدين الإرهاب وسيلة وغاية لتحقيق مآربهم ضد السكان المحليين.

لقد تم تنفيذ أبشع الاعتداءات ضد شعوب Cherokee, Narraganset, Peqouts الأكثر حضارة آنذاك في شمال أمريكة. فاعتمدوا سياسة الإبادة متسترين خلف برابرة الدين انطلاقاً من المقولة الواردة في التوراة "إن من يعارض القوة يكون قد عارض إرادة الرب وبهذا يكونون قد جلبوا اللعنة إلى أنفسهم."(١٠)

إن أول حادثة "وحشية" جرت في منطقة Long Island الواقعة في شمال أمريكة بتاريخ ١٦٣٠ . حيث تم تخصيص أراض زراعية للقوافل المهاجرة الجديدة التي وصلت من إنكلترا، مطالبين البوريتانيين ترك قراهم ومناطقهم والهجرة إلا أن المحليين قاوموا مطالبيهم فتعرضوا من جراء ذلك إلى مجزرة دموية نفذها John Mason. ولكي يتجنب Mason تعريض مؤيديه لخسائر، عمد إلى حرقه قرية Mistik River بشكل كامل. ومما أكد ذلك ما قاله William Bradfort والي Plymouth المستعمرة الإنكليزية الذي اعتز وبكل فخر بنفي "٤٠٠ رجل وإمرأة وطفل" و "تقطيع" كل من فر من الحريق بالسيوف الحادة الذي كان الإنكليز يستخدمونها بمهارة عالية:

"عملية تأديب العدو ونفيه عن الوجود عملية جلبت معها نتائج إيجابية عسكرياً. إذ تنقلنا هذه العملية للأهداف التي نتمناها بأقل خطورة. لقد كسب Mason نصراً إلهياً. متذرعاً بأن الرب قبل دعاءنا وذوقنا نصراً معجلاً وبتعبير آخر الرب قهر العدو"(١١)

ج. التربية البوريتانية العنصرية:

يشكل الموقف اللاإنساني الذي اتخذه الأنغلو_سكسونيين ولاسيما الكنائس الإنكليزية تجاه الأفارقة وتجارة الرق المخجلة التي نفذت في أمريكة مئات السنين، مثالاً ذا معنى في فهم التربية العنصرية لهذه المدرسة. إن "ثورة " الولايات المتحدة الأمريكية سقطت من حيث الاعتبار هذا. لقد استمرت العبودية في الولايات المتحدة الأمريكية رسمياً حتى تاريخ ١٨٦٣ .

ومن بعد ذلك تحصنت العنصرية الأمريكية بالقوانين حتى تاريخ ١٩٦٤. وما زال هناك في الولايات المتحدة الأمريكية منظمة Klu klux klan الإرهابية تشكل خطورة وتهديداً جدياً ضد أي قوى بشرية تعارضها. أصبح المسيح الذي نشر رسالة "السلام" و "المحبة" و "الأخوة"، وتعاليمه قيماً طوبائية في نظر الحركة البروتستانتية الإنكليزية. كذلك فقد رفض البوريتانيون، الذين رددوا الآيات المقدسة والرب باستمرار وبكل فرصة متاحة، قبول جميع الذين ليسوا أنغلو_سكسونيين بأنهم بشر. حملت اسبانيا الكاثوليكية وإنكلترا البروتستانتية، اللتان ما استطاعتا ترقيق المحليين في أمريكة منذ عام ١٥٠٣ ، ملايين الأفارقة كبديل إلى القارة الجديدة. وبعد تاريخ ١٦٠٦ قامت المستعمرات الإنكليزية الموجودة في شمال أمريكة باستغلال الرقيق الأسود بشكل منظم في حقول التبغ والقطن بشروط وظروف لا يتقبلها الحيوان.

قام Gary Nash المؤرخ الأمريكي الباحث المخضرم في هذا المجال بتثبيت عدد السود الذين تم جلبهم إلى القارة الأمريكية خلال عام ١٦١٩ بما يزيد على مليون. إذ قال Nash إن المحليين كانوا في وطنهم والأوربيين كانوا ضمن بيئتهم الثقافية التي حملوها إلى أمريكة، إلا أن السود الذين خطفوا من إفريقيا حُرموا من جميع هذه الإمكانات وتعرضوا إلى صدمة ثقافية وتخريب نفسي كبير[١٢] . توفي ٥٠ مليون أفريقي في المستعمرات الأمريكية في مرحلة تأسيس "الحضارة الغربية الحديثة" وذلك

في بداية القرن التاسع عشر. ثم اتخذ أعضاء الكنيسة مواقف متناقضة فيما يخص تجارة الرقيق التي تأسست في الولايات المتحدة الأمريكية. وبالرغم من معارضة بعض رجال الدين وبعض المؤسسات الدينية للرق باعتباره "مكروهاً" و "غير مقبول" فإن الكنيسة المهيمنة كانت ضمن هذا العمل قد دافعت عنه(١٣). وفي شهر شتوي قارس من عام ١٧٤١ تم إعدام رجلين وامرأتين من البيض وثمانية عشر رقيقاً أسوداً و حرق ثلاثة عشر آخرين بسبب العمليات المشتركة التي نظمها السود بالاشتراك مع فقراء البيض. من أجل نسف التضامن السياسي الذي بدأ بين الأوربيين البيض "الفقراء" و "الرقيق" الأفريقي قامت السلطات السياسية الإنكليزية المهيمنة على شمال-شرق أمريكة بإصدار قانون خاص يخول الأثرياء الأوربيين البيض تقديم مساعدات مادية للمحتاجين البيض.(١٤)

هـ. ثورة أم ثورة مضادة؟

تعد حروب السنين السبعة، التي انتهت بمعاهدة باريس عام ١٧٦٣ من أهم الحوادث التي حققتها إنكلترا آنذاك، وفي الوقت نفسه كانت بداية النهاية في تاريخ أمريكة الشمالية حيث قام الإنكليز الذين خرجوا منتصرين من جميع المعارك التي شنوها في أوروبة والهند وأمريكة الشمالية وكندا ضد الفرنسيين، ببسط سيطرتهم على جميع الولايات الشمالية-الشرقية من أمريكة وعلى كامل الضفة الغربية من نهر Mississippi. وبالتراجيدية الأحداث إذ أنه كان للسكان المحليين إسهام كبير في أن تكون هذه الحروب لصالح إنكلترا. فقد ألزمت الضمانات، التي قدمها الملك الإنكليزي George، السكان المحليين بالوقوف إلى جانب "الشر" وبعد الحرب لم تأخذ إنكلترا الوعود التي قطعتها بعين الاعتبار، غير أن التمرد المسلح الذي بدأ بقيادة Pontiac(١٥) أجبر الإنكليز على العودة إلى طاولة المفاوضات مرة أخرى. وأصبحت جبال Appalachion التي تفصل بين الولايات المستعمرة الإنكليزية الثلاثة

عشرة الواقعة في شمال-شرق أمريكة عن منطقة وسط وغرب أمريكة كحدود رسمية. وقد ضمنت إنكلترا ذلك باتفاق رسمي يخولها إنشاء أي وحدة استيطانية "بيضاء" خلف هذه الحدود.

إنني أرمي من ذكر هذه الحادثة إلى تقديم تفسير استراتيجي لتلك التناقضات التي شهدتها أمريكة آنذاك. لم تكن التعهدات الإنكليزية التي أعطيت للسكان المحليين هي التي تقف وراء العمليات العسكرية والسياسية التي بدأت ضد إنكلترا من قبل سكان المستعمرات في شمال-شرق أمريكة في عام ١٧٧٦. إذ طالبت من جديد بالمساحات التي يقطنها السكان المحليون من أجل بناء وحدات استيطانية جديدة لتلبية حاجات مالكي الأراضي الذين يريدون سلب هذه الأراضي الجديدة وكذلك حاجات المغامرين والتجار الذين يبحثون عن الذهب والمهاجرين الجدد القادمين من أوروبة. وطبعاً لا يتم ذكر هذه الحادثة أبداً في الكتب التي تُدَّرس في الجامعات والمدارس الأمريكية. بل إن ما تركز عليه معظم هذه الكتب هو التمجيد بأجدادهم الذين قدموا من أجل خوض نضال مشرف ضد النظام الإنكليزي "الطغياني" ومن أجل "الحرية" و "الديمقراطية" و "الاستقلال" و "حق الشعوب في تقرير مصيرها بحرية". ويتم شرح قصص الأبطال والقيم "الثورية" و "التقدمية" التي كانوا يمثلونها وكأنها حقائق مثبتة. ولم يكن يتجاوز عدد الذين يحاكمون هذا التاريخ محاكمة منطقية أصابع اليد.ومما لا شك فيه أنه كان باستطاعتنا العثور على شعارات "الحرية" و "الثورية" وعلى التأثير العميق للفلاسفة الفرنسيين في التمرد الأمريكي.

وأول إجراء هام اتخذته هذه الدولة هو إهمالها لجميع المعاهدات التي أجريت مع السكان المحليين. وبعد أن رفضت أمريكة الحدود المرسومة لها شجعت من جديد على "التوسع" باتجاه الغرب وعلى "الاستيلاء" على الأراضي الجديدة. وأُجْبِرَ السكان المحليون الذين تعرضوا لمجازر جديدة على الهجرة للمرة الثانية وكانوا ضحايا

للممارسات "الوحشية". وباختصار نرى أن المجتمعات المحلية والرقيق الأفارقة والنساء حتى الأوربيين البيض "الفقراء" لم يستفيدوا من هذه الثورة.

ونؤكد أن "الثورة" الأمريكية أكثر رجعية من السياسات القمعية التي طبقها الإنكليز على المستعمرات. إن هذه الحادثة التي تسوّق على أنها "ثورة" ليست أكثر من احتجاج الفئات التي لم تحقق مكاسب كبيرة من برامج "النهب والسلب" الإنكليزي. وهي ردة فعل الأرستقراطية الموجودة في المستعمرات التي تريد المشاركة في الثروات "المنهوبة".

إن أكثر من عبر عن ردة الفعل بشكل جميل وصادق هو الشاعر الأمريكي Vechel Lindsay (١٨٧٩-١٩٣١). ففي قصيدته In Praise of Johnny Appleseed التي كتبها في ذكرى John Chapman الذي عبر جبال Appalichian في عام ١٩٢١ وتحدى السكان المحليين يقول: حققت الأمة الأمريكية نصرها الحقيقي بعد أن اجتازت جبال Appalichian(١٦).

ويعرف المؤرخ الأمريكي Henry Demarest Lloyd أن المرحلة التي مرت بها أمريكة بعد الثورة هي مرحلة إنشاء الثراء الاحتكاري ضد الثراء الجمعي(١٧) ويؤكد Mathew Josephson في كتابه الذي نشره عام ١٩٣٤ والذي تناول فيه تاريخ عائلة Rockefeller التي تعد واحدة من الشركات العالمية الرئيسية التي أسست الرأسمالية الاحتكارية في أمريكة، على أن عمالقة الصناعة الاحتكارية قد ظهروا على المسرح السياسي-الاقتصادي بعد الحرب الأهلية الأمريكية التي جرت في أمريكة بين عامي (١٨٥٩-١٨٦١) مؤكداً أن هؤلاء العمالقة لازالوا حتى الآن يقررون مصير البلد. وأما الكاتب الأمريكي Allen Nevins الذي دافع عن عائلة Rockefeller في السِّجالات الحادة التي أجراها مع Josephson الذي وصف هذه الشركات الصناعية بأنها عبارة عن بارونات "لصوص"، فإنه يقول: إن "الوطنيون" أمثال Rockefeller هم الذين "أنقذوا

العالم من خطر الشيوعية المستبدة". وهم الذين حولوا المجتمع الأمريكي إلى المجتمع "الأكثر رفاهية" في العالم(١٨). غير أن Nevins لم يذكر أن المجتمع الأمريكي قد أباد العديد من المجتمعات واستولى على ثرواتها لكي يصبح "ثرياً" بل ولم يرد ذكر ذلك.

و. المدرسة البطركية والولايات المتحدة الأمريكية:

ظهرت المدرسة البطركية (١٩)، التي بدأت دخولها إلى الحياة العملية في القرن التاسع عشر، كبديل عن تعاليم الطرائق التقليدية وبديل عن الكنيسة التي لم تلبِ احتياجات السادة الإقطاعيين التوسعية التي بدأت فعاليتها في مستعمرات ما وراء البحار ولكي تلبي حاجات الأرستقراطية التجارية. وراحت تفسر ما لم تستطع التعاليم "المقدسة" تفسيره باستخدام المعطيات العلمية-المادية، بتشجيع الإصلاحات المهمّة في الحياة العلمية والاقتصادية والصناعية. ولكن لم يكن في برامجها أيْ مكان للمرأة أو للزنوج الرقيق أو للسكان المحليين أو للآسيويين أو للأوربيين "البيض" الفقراء. وتدافع عن ضرورة امتلاك الطغمة التجارية المسلحة بالعلم لجميع الوسائل والإمكانات. وتسيطر على مقولاتها عبارة تفوق الغرق الأنغلو-سكسوني. ويؤمن George Bankraft الذي درس التاريخ في ألمانيا عام ١٩٢٠ بأنه يقع على عاتق العرق الأنغلو-سكسوني مهمة تاريخية خاصة.

لقد كُلِّفت الشعوب الأنغلو-سكسونية بمهمة نشر الديمقراطية في العالم. إذ إن المؤسسات الديمقراطية التي ستقام بقيادة الأنغلو-سكسونيين ستؤمن تدريجياً الحرية الكاملة لجميع أنحاء العالم. وقد أعد الرب مشروعاً لهذه الغاية. وتنص هذه الخطة على خلق الشعب المتفوق على يد الشعوب الأنغلو-سكسونية والديمقراطية الأمْريكية(٢٠).

ويدعي المؤرخ الأمريكي Frankis Parkman الذي يدافع عن فكرة مفادها أن الجماهير "كسولة وبليدة" بإصرار على أن الأنغلو-سكسونيين الممثلين للقيم البروتستانتية ويؤمنون بالديمقراطية والنزعة الفردية متفوقين في جميع المجالات على الفرنسيين الكاثوليك المستبدين الاشتراكيين الذين يؤمنون بالنزعة المركزية.(٢١)

لا ترفض هذه المدرسة الكنيسة والطرائق الدينية بل تؤكد عدم إهمالها كأساليب جيدة لتحقيق الأهداف الاقتصادية. ويؤمن المنطق الذي تمثله هذه المدرسة بعمق برجال العلم مثل Galileo الإيطالي و Johnnes Kepler الفلكي الألماني والفلاسفة الفرنسيين Descartes و Rousseau و Voltaire ورجال العلم الإنكليز Newton و Darwin والفيلسوف الإنكليزي John Lock .

الإدارة الأمريكية في يومنا هذا ليست إلا صورة عن هذه المدرسة في القرن الواحد والعشرين. نشاهد أن السياسات الأمريكية لم تعد تتجاوز هذا المفهوم وما زلنا نشاهد تأثيراته العميقة. بالرغم من تعرض المفهوم الاقتصادي الاجتماعي **السائد**، الذي تمثله هذه السلطات ومعظم الإدارات الأمريكية، إلى انقطاعات في بعض المراحل بالداخل والخارج، بقيت معظم السلطات الأمريكية تحت تأثير تعبيرها الاقتصادي والتربية الإيديولوجية للمدارس "الانغلو-سكسونية " و "البوريتانية" و "البطركية". إن معظم القوى الاقتصادية-السياسية المسيطرة في الولايات المتحدة الأمريكية بما فيها إدارة George W. Bush ينطبق عليها هذا المفهوم الأكثر رجعية والأكثر تعصباً في الطرائق اليهودية والبروتستانتية ويجب أن لا نستغرب الوضع الذي هم فيه الآن. ومن أحد الموضوعات التي يجب علينا ذكرها أن التعاليم الأنغلو-الأمريكية كعناصر متممة للمدرسة الأنغلو-سكسونية تسلطت على الساحة الدولية قبل وبعد الحرب العالمية الأولى خاصة عشية وخلال الحرب العالمية الثانية(٢٢).

تم مناقشة مفهوم التاريخ "الرسمي-(التقليدي)" و "التعديلي" و "الواقعي" الذي أخذ مكانة المدارس التقليدية والمؤسسات الأكاديمية في القرن العشرين، بجدل حاد عملت الولايات المتحدة الأمريكية على تسويق خطة "حق الشعوب في تقرير مصيرها" التي أعلن عنها الرئيس Wilson بأسلوب يتناسب مع سياساتها التوسعية خلال الحرب العالمية الأولى. ووضعتها على جدول أعمالها من أجل تصفية الإمبراطوريات الأخيرة التي شهدها العالم. لقد قدمت الولايات المتحدة الأمريكية بديلاً واحداً ضد "الفاشية" أولاً وضد "الشيوعية" بعد ذلك للعالم فور انتهاء الحرب العالمية الثانية . كما أوصى المفهوم المعروف بتعاليم ترومان شعوب العالم إما أن يكونوا بجانب الولايات المتحدة الأمريكية التي تقدم أسس "الحرية والديمقراطية" و "السوق الحر" أو إما أن يعيشوا تحت قبضة مجموعة الدول السوفيتية التي تمثل "الديكتاتورية" و "الظلام" وذلك بأسلوب "التهديد". إن إدارة الولايات المتحدة الأمريكية في يومنا هذا تفرض على العالم أضيق أشكال هذا المفهوم ألا وهو "إما أن تكون بجانبي أو إما أن تكون بجانبي".

من الملاحظ أنه تم إعداد مشاريع "نظام جديد للعالم" التي بدأت مع الاستيلاء على أمريكة، بشكل أكثر تخطيطاً وأكثر نظاماً وأكثر فعالية بغية تشكيل رأي عام في الولايات المتحدة الأمريكية وبغية التوجه نحو التطلعات الخارجية. وقد تم تعزيز الأسلوب، الذي لم يتغير من حيث المبدأ، بوسائل جديدة، ولقد تم تأسيس المؤسسات التعليمية الخاصة التي تمثل نظرتهم الكونية، وشبكة إعلامية قوية وقوة عسكرية مزودة بأحدث منتجات التكنولوجيا ووحدات استخباراتية مدعومة بميزانية تقدر بمليارات الدولارات وطرائق كنائس دينية جديدة وبالنشاطات التبشيرية، والأهم من ذلك، تم إنشاء مراكز أبحاث استراتيجية لبحث الأسس السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي تربي وتوجه الرأي العام والتي ضمت في بنيتها السياسيين والدبلوماسيين والأكاديميين والصحفيين الأكثر فعالية وكل ذلك من أجل استمرارية

سيطرة الشركات الاحتكارية التي بدأت سيطرتها بالتبلور بعد الحرب العالمية الأولى، وكذلك من أجل نقل مراكز الدراسات الاستراتيجية إلى أرض الواقع. ويأتي على رأس هذه المؤسسات التي تستند إليها المدرسة الأمريكية "الرسمية" في قراراتها الداخلية والخارجية:

أ. Project for New American Century (PNAC):

- مشروع من أجل العصر الأمريكي الجديد (PNAC):

هي من أهم المؤسسات اللوبية الأمريكية التي تتمتع بعلاقة متينة مع أكبر الشركات الاحتكارية في مجال السلاح والنفط، وتعمل لدى البنتاغون والكونغرس الأمريكي والبيت الأبيض من أجل تبني قرارات مناسبة لمشاريعهم الداخلية والخارجية. وإن نائب الرئيس بوش ديك تشيني والمستشارة السياسية كونزاليزا رايز ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد هم من أهم ناشطي هذه المنظمة.

ب. Council of Foreign Relations (CFR):

- مجلس العلاقات الخارجية (CFR):

هو من أهم المنظمات الصهيونية الأمريكية والمؤثرة في صنع القرار السياسي الخارجي الأمريكي ويدافع بقوة عن مصالح إسرائيل وهو مصدر مركزي لتشويه الحقائق حول قضايا ساخنة في الشرق الأوسط ومعادية للقضايا الأمنية العربية. ومن أهم الشخصيات فيه هنري كيسنجر اليهودي، بول وولوفيتز اليهودي نائب وزير الدفاع الأمريكي ، ريتشارد بيرلي اليهودي الذي كان مسؤولاً عن محطة ال CIA في الشرق الأوسط.

ج. Washington Institute of Near East Policy (WINEP)

- معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى (WINEP):

وهو مركز الدراسات الإستراتيجية التي تتعلق بقضايا ساخنة في الشرق الأدنى والأوسط وتقدم بحوثاً ودراسات سياسية أمنية اقتصادية خاصة خلال فترة مناقشة

مسائل في الكونغرس الأمريكي تتعلق بمنطقتنا. ومعظم ناشطيها من المحافظين والمتطرفين الصهاينة.

د. **Rand Corporation**

- مؤسسة رانت (RC):

من أقدم المؤسسات اللوبية العسكرية تم تأسيسها مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية من قبل ضباط عسكريين أمريكيين متقاعدين للدفاع عن المؤسسات العسكرية ومصالح الشركات لإنتاج الأدوات العسكرية الرسمية والخاصة منها.

هـ. AIPAC الشهيرة.

لجنة من أجل التضامن الإسرائيلي الأمريكي:

تمثل المصالح الإسرائيلية في أمريكة وهي من أخطر المنظمات الصهيونية المؤثرة في صنع القرار السياسي الخارجي الأمريكي.

لقد أدّت هذه المؤسسات الناطقة باسم سادة الاحتكارات النفطية والصناعية التي تعد السلاح الأقوى بيد الولايات المتحدة الأمريكية، دوراً أساسياً في الإعداد لمشاريع احتلال العراق وفي توجيه الرأي العام. وتعد هذه المؤسسات التي تعكس المشاريع الاستراتيجية للشركات المتعدد الجنسيات، بخطوتها العريضة مركزاً لإنتاج الحجج والمسوغات المستخدمة في إعادة صياغة الشرق الأوسط بما يتناسب مع احتياجات إسرائيل في بقعتنا الجغرافية. وسنسلط الضوء هنا، بتركيز، على (مشروع العصر الأمريكي الجديد)

Project for New American Century الذي له علاقة مباشرة مع العراق.

٢. الإمبريالية الأمريكية والفعاليات اللوبية:

ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية على مسرح التاريخ بشكل فعال عام ١٨٩٨ . ففي عام ١٧٧٦ أنشأ الأمريكيون الذين قيّموا على أنهم عائق أمام "تطور" النظام الإنكليزي، دولتهم الجديدة. وكان الموقف العدواني الذي اتخذته أمريكة "الثورية" ضد الثورة الفرنسية ١٧٨٩ مثالاً للطريقة الجيدة (!) التي سددت فيها الدين الذي بذمتها لفرنسا التي أدت دوراً هاماً في نيلها استقلالها. وتفهم هذه الدولة "الشابة" التي عاشت أول تجربة إمبريالية ضد الدول الأوروبية عام ١٨١٢ "ولو بشكل متأخر"، لأن المحيط الأطلسي مازال تحت سيطرة القوات الإنكليزية والفرنسية والإسبانية ولهذا فلن تستطيع أن تنشب مخالبها في أوروبة "القديمة " دون أن تدفع ثمناً باهظاً. (٢٣)

وبعد هذه التجربة السلبية قامت الدولة "الجديدة" التي أدارت ظهرها للمحيط الأطلسي بتحويل أنظارها إلى الغرب وحيث قامت الولايات المتحدة الأمريكية التي لم تستطع استخدام قوتها ضد أوروبة "القديمة" بشن هجوم وحشي ضد السكان المحليين "المظلومين" و"الضعفاء" و"غير المستعدين للحروب" وتعيد احتلال أراضيهم. يقول الشاعر الأمريكي Henry David Threau (١٨١٧-١٨٦٨) في قصيدته "سير": " يجب أن أسير باتجاه الغرب وليس باتجاه أوروبة. يجب أن أستلهم من الشرق تاريخاً وفناً وأدباً. غير أن سيري يجب أن يكون باتجاه الغرب من أجل المغامرات الجديدة والتجارة والمستقبل". ومن هنا نرى أنه يؤكد على ضرورة اتجاه أمريكة نحو الغرب كي تستمر بالوجود. وتؤمن الولايات المتحدة الأمريكية التي تشن هجوماً على غرب ووسط أمريكة منتهكة جميع القوانين، أكبر مكسباً لها من خلال حملة النهب التي شنتها ضد المكسيك عام ١٨٤٨، حيث ضمت إلى دولتها أرضاً تقدر بخمسة أضعاف مسافة تركيا. ولا تكتفي أمريكة التي وصلت بهذا "النصر" إلى المحيط الهادي بالنعمة التي أغدقتها عليها هذه الجغرافيا بعدما أشعرتها على أنها "نمر حبيس في قفص".

ويؤكد بروفيسور التاريخ في جامعة تكساس Watter Prescott Webb في أوائل القرن العشرين بأن أمريكة قد أتمت تطويرها بوصولها إلى حدود المحيط الهادي وبأن الحضارة الغربية قد وقفت وجهاً لوجه أمام هذا الوضع الاستثنائي. ويقول Webb "يجب أن تقبل أمريكة بشجاعة أنه ما عادت هناك أرض جديدة لتنهبها وأن الضرورة تقتضي صرف طاقتها من أجل حل مشاكلها الداخلية. (٢٤)

غير أن بارونات أمريكة لا يشاطرونه الرأي. وتضع الشركات الكبرى، التي سيطرت على جغرافية شاسعة ممتدة من غرب المحيط الأطلسي حتى شرق المحيط الهادي، عيونها وأطماعها على أوطان بعيدة جداً وعلى مستعمرات إسبانية استراتيجية في منطقة البحر الكاريبي وفي مناطق جنوب-شرق آسيا.

وتشعر أمريكة، التي لم تعش علاقات متأزمة مع الدولة الإسبانية، بالحاجة "لحقائق" تعطي الشرعية لحروبها ولاستيلاءاتها الجديدة. لقد تعب الرأي العام الأمريكي ولم يعد متشوقاً لخوض مغامرات جديدة. نعم، في جو كهذا اكتسبت الأعمال "اللوبية" المنظمة أهمية خاصة. وقد شعرت الشركات الأمريكية بالحاجة إلى الفلبين ذات الموقع الاستراتيجي اللازم للوصول إلى كوبا وهائيتي وجمايكا الغنية بالسكر وللوصول إلى حقول التبغ ولحدائق الثمار الاستوائية الموجودة في أمريكة اللاتينية وللوصول إلى جزر هاواي (Hawaii) العائمة وسط المحيط الهادي كالسفن وللوصول إلى أسواق جنوب وشرق آسيا المربحة، فإن الأمر يتطلب تحميل تلك المرحلة حملة دعائية تعتيمية قذرة ضد اسبانيا مستخدمة شائعات لا أساس لها من الصحة. كما يجب أن تفرد صفحات الجرائد أمكنة واسعة للمانشيتات التي تتحدث عن "المجازر" التي ترتكبها الإمبريالية الإسبانبة ضد الشعوب الكوبية والفلبينية التي تطالب باستقلالها والأعمال "الوحشية" التي تنفذ ضد هذه الشعوب. كذلك فعلى أمريكة، التي تعد نتاجاً

لحرب "الاستقلال"، مقالات تتحدث فيها عن دينها التاريخي للشعوب المسحوقة. وتقوم الجامعات التقليدية للطبقة الارستقراطية التي وقفت مكتوفة الأيدي أمام المشاكل الاجتماعية لأمريكة، بعقد ندوات أكاديمية وبتنظيم مظاهرات طلابية بهدف القضاء على إسبانيا "الإمبريالية" و "الرجعية". ولم تأخذ الاستخبارات العسكرية والجيش الأمريكي دور المتفرج حيال ذلك. و يتم تفجير السفينة العسكرية "Main" ، التي كانت تقوم بزيارة رسمية إلى كوبا الواقعة تحت السيطرة الاسبانية في ميناء هافانا والسبب مجهول. ويغرق مئات الطواقم الأمريكية في قاع البحر. وتتقدم الحكومة الاسبانية باقتراح للحكومة الأمريكية بهدف فتح تحقيق حول الحادث. وترفض الولايات المتحدة الأمريكية هذا الاقتراح وبعد ثماني ساعات من الحادث تعلن الصحافة الأمريكية بصوت واحد عن المجرم: إسبانيا. وبعد سنين تكتشف، استناداً إلى الوثائق الأمريكية، أن إسبانيا لم تكن وراء هذا الحادث. وفي عام ١٨٩٨ تقوم أمريكة بشن هجوم على إسبانيا دون أي أساس قانوني وخلال عدة أيام تستولي على جميع المستعمرات الاسبانية. وبذلك يكمل اللوبي الأمريكي بنجاح من أول امتحان له في السيطرة على الرأي العام. وتستباح في الحرب ضد إسبانيا جميع طرق الإرهاب والترهيب والتهديد والحرب النفسية والحرب الإعلامية والمقولات الليبرالية من أجل الوصول إلى الهدف. لقد شاهدنا على الأقل واحداً من الأساليب المباحة التي ذكرناها في جميع التدخلات الأمريكية دون استثناء، بما في ذلك المغامرة العراقية ابتداء من الحرب العالمية الأولى حتى الثانية ومن حلف بغداد العسكري حتى الحرب الفيتنامية ومن الأزمة الكوبية وصولاً إلى احتلال العراق.

٣. مركز مشاريع العصر الأمريكي الجديد والاحتلال العراقي:

تعد الحروب مصدراً حيوياً للإمبراطوريات. وتشكل عقلية الحروب حجر أساس الوجود

الأمريكي. يقول Theodore Roosevelt في اعتراف ودي لصديق حميم عام ١٨٩٧ " إنني مؤمن إيماناً تاماً بأن هذا البلد يحتاج دوماً لحرب جديدة وأكن احتراماً دوماً لأي نوع من أنواع الحروب." (٢٥) وفي عام ١٩٦٢ اعترف وزير الخارجية الأمريكية Dean Rusk في تقرير رسمي أعده وقدمه لمجلس الشيوخ، بأن الولايات المتحدة الأمريكية قد تدخلت عسكرياً ١٠٣ مرات في الشؤون الداخلية للدول الأخرى بين عامي ١٧٨٩-١٩٤٥ وبين عامي ١٧٨٩-٢٠٠٣ ازداد هذا العدد ضعفاً.

وأما الرئيس William Mckinley (١٨٩٧ - ١٩٠١) فإنه يشرح هذه الواقعة بطريقة أكثر صراحة.

"إننا بحاجة ماسة للأسواق الأجنبية من أجل منتجاتنا الزائدة. فمصانعنا تنتج أكثر بكثير مما نحتاج ونستهلك. لقد حدد القدر سياساتنا: إن تجارة العالم وأسواقه ملك لنا بل ويجب أن يكون لنا."(٢٦)

يقول الكاتب الأمريكي Randolph Bourne إن الحرب هي الضمان الصحي للدولة. وأما الرئيس Woodrow Wilson (١٩١٣-١٩٢١) الذي يوصف لدى الرأي العام الأمريكي والعالمي بأنه "محب للسلام" فإنه يوضح في كلمة ألقاها بجامعة كولومبيا " يقع على عاتق الدولة مهمة الحفاظ على مصالح الصناعيين والمصرفيين في الخارج وحمايتها ولو أضر ذلك بسيادة الدول." وهنا يعلن Wilson كـ Mckinley عن ضرورة امتلاكهم للأسواق الأجنبية. حيث يقول Wilson ، الذي يدعي بأن الحرب

العالمية الأولى ستقدم إمكانيات جديدة للولايات المتحدة الأمريكية، "أريد باباً مفتوحاً ويجب أن تدمر أبواب أمم العالم. ويجب أن تهيمن المنتجات الأمريكية على جميع الأسواق وإنني أجد من الضروري أن نستولي على الأسواق الأجنبية. فلهذا أهمية حيوية من أجل وجودنا."(٢٧)

يعد الشرق الأوسط آخر المناطق التي سيطرت عليها أمريكة. فلقد دافعت فرنسا وإنكلترا عن هذه الجغرافيا بتصميم حتى نهاية الحرب العالمية الثانية وعارضوا بشدة وجود أية قوة إمبريالية أخرى. وتعهدت أمريكة، التي خرجت منتصرة من الحرب العالمية الأولى، بعدم التدخل بشؤون المنطقة الداخلية مقابل الامتيازات الاقتصادية والتبشيرية التي حصلت عليها من إنكلترا وفرنسا. وترفض أمريكة، التي اقترحت إنشاء عصبة الأمم بعد الحرب، الانتماء إلى هذه المنظمة. ويأخذ الرئيس Wilson ، الذي طرح شعار "حق الأمم في تقرير مصيرها بحرية" ، دور المتفرج أمام مطالب الدول العربية التي راحت ضحية نظام الانتداب.

لقد رزح قسم كبير من العالم العربي تحت وطء الاحتلال الإنكليزي والفرنسي حتى الأربعينيات والخمسينيات حتى الستينيات من القرن الماضي. وكانت سورية والعراق من أكثر الدول التي قاومت الاحتلال بشدة. وبعد الحرب العالمية الثانية مباشرة انسحبت فرنسا وإنكلترا تاركتين وراءهما خراباً يصعب ترميمه. ويتم فرض إسرائيل التي سنعيش آثارها السلبية لسنين طويلة على هذه المنطقة التي تنزف وتغلي. وتظهر هذه البنية السياسية، المزروعة كنتاج للأنغلو_ أمريكية وللحركة الصهيونية، على مسرح التاريخ كمخفر بعيد للقوى التي خلقتها. والسبب الذي جعل إسرائيل تستمر في الوجود، بالرغم من جميع مقولاتها الدينية الخرافية، هو تشكيلها سدّاً أمام قيام وحدة جغرافية وسياسية وعسكرية واجتماعية بين مصر وسورية من جهة وسورية والعراق من جهة أخرى. إن الذين يقرؤون التاريخ جيداً يدركون أن الوحدة

السياسية والعسكرية التي تحققت بين مصر وسورية من جهة وسورية والعراق من جهة أخرى عبر العصور، شكلت قوة مُهددة ورادعة ضد الإمبريالية الأوروبية. لايمكن الهيمنة على شرقي البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ومضيق باب العرب (إيران) ومصادر الطاقة وينابيع المياه والطرق التجارية وأسواق هذه الجغرافية الواسعة، دون أن تتم مراقبة مصر وسورية والعراق. عدا عن ذلك تأتي أهمية هذه المنطقة من كونها كانت مهد الحضارات الأكثر تأثيراً والأكثر عراقة في العالم. فيجعل هذا الموضوع لهذا المكان المذكور معنىً أعمق ومن الأهمية بالمكان أن نتناول القلق والمخاوف التي خلقتها الجمهورية العربية المتحدة التي أنشئت بين سورية ومصر عام ١٩٥٨ والجمهورية المتحدة التي كان يُخطط إنشاؤها بين سويا والعراق عام ١٩٧٩ والتي لم يُكتب لها النجاح بسبب تدخل صدام حسين، لدى أوروبة والولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل.

قال Henry Kissinger في سبعينيات القرن الماضي "إن أردتم السيطرة على الحكومات فعليكم أولاً السيطرة على منابع الطاقة وأما إذا أردتم السيطرة على الشعوب فعليكم أولاً السيطرة على ينابيع المياه." وليس من الغرابة أن يدلي الجنرال المتقاعد التركي و رئيس مركز الدراسات العسكرية التركية Nejat Eslen بذاك التعليق في برنامج "Ceviz Kabuğu" في ٢ نيسان ٢٠٠٤. حيث أكد Eslen أن البنتاغون وإسرائيل يمتلكون خططاً جدية "لتجزئة" تركيا من أجل السيطرة على الطاقة والمعادن وينابيع المياه الموجودة فيها. وأما التصريحات التي أدلى بها عضو المجلس التنفيذي في اللجنة المركزية لحزب الوحدة الكبرى (التركي) Murat Bahadır Akkoyunlu ليست أكثر من مكملة لهذا الموضوع. حيث قال Akkoyunlu استناداً إلى الفعاليات التبشيرية في الآونة الأخيرة في مناطق جنوب-شرق الأناضول، فقد وجد على أغلفة ٦٠ ألف نسخة من التوراة والإنجيل، التي تم الاستيلاء عليها، خرائط تبين ضفتي نهري دجلة والفرات وأن هذه المنطقة هي "جنة عدن" التي تحدث الرب عنها.

لقد استوطنت إسرائيل، التي تحاول منذ الستينيات لإقامة تعاون مع العشائر الكردية في شمال العراق، بشكل جيد في المنطقة بعد الاحتلال الأمريكي للعراق. وفي هذه المرحلة، التي شاع فيها استخدام "شعار "كردستان الكبرى"، بدأت إسرائيل بتطوير مشاريع تأسيس إسرائيل الثانية البديلة، مستخدمة الاستثمارات المالية والتكنولوجية والزراعية في هذه المنطقة وذلك من خلال استخدام "ورقة السياسة الكردية".

وتشير الفعاليات التي يقوم بها العهد الكردي المؤسس في إسرائيل ونظريات القرابة بين العرقين اليهودي، والكردي، التي راح يرددها بشكل مستمر في الآونة الأخيرة علماء الاجتماع وخبراء الاتنوغرافيا (علم الأعراق) الإسرائيليون كما تشير التصريحات المتعلقة بأن عشيرة البرزاني، هي الفرع اليهودي الثاني عشر الذي تاه منذ آلاف السنين، والتأكيدات على ضرورة التحرك الكردي الإسرائيلي المشترك ضد القوميات التركية، والعربية، والفارسية، كل ذلك يشير إلى الأهمية الاستراتيجية التي توليها إسرائيل لهذا الموضوع. وأما الموضوع الأهم الذي لابد من تناوله هنا فهو التوافق الكامل بين "المجازر" و "تدمير المؤسسات التعليمية" و "نهب القيم القومية والتاريخية" و "الإرهاب" و "التدمير" والعمليات "العرقية و الفاشية" التي تمارسها القوات الأنغلو-أمريكية بشكل يومي في العراق وبين السياسات "الوحشية" و "العرقية-الشوفينية" التي تمارسها إسرائيل بشكل منظم منذ سنوات طويلة في فلسطين. إن هذه التطبيقات هي عبارة عن سياسات "فوضى" تهدف إلى زعزعة الأمن والاستقرار بشكل مستمر في المنطقة. وهذه السياسات ليست عبارة عن حوادث فردية ولم تقع مصادفة. إنها نتاج طبيعي للتربية الأنغلو-سكسونية والصهيونية وللهيمنة الاقتصادية-العسكرية الاحتكارية التي تفرض هذه القوة. إن الذين يفرضون هذا المفهوم هم أعضاء مركز مشروع العصر الأمريكي الجديد (PNAC) الذي يتخذ من واشنطن مركزاً له والذي يعد اللوبي الأكثر عدوانية في أمريكة. وهؤلاء أيضاً هم من يسيطر اليوم على السلطة الأمريكية باسم البارونات والشركات الكبرى. فلنعرفهم عن قرب:

PNAC هو مركز لوبي تم تأسيسه عام ١٩٩٧. ويؤمن هذا اللوبي بضرورة فرض مبدأ "أمركة العالم" (Pax-Amerikana) على أمم العالم باعتبار أمريكة هي القوة العسكرية–الاقتصادية العظمى الوحيدة في العالم. وقد حمل التقرير الذي أعده هؤلاء في أيلول عام ٢٠٠٠ وقدموه للحكومة الأمريكية عنواناً بارزاً يقول: "**إعادة تأسيس الدفاع والاستراتيجية والقوات العسكرية والمصادر الأمريكية في العالم**."_وقد تضمن التقرير المذكور بخطوطه العامة ما يلي:

١. يجب أن تمتلك أمريكة قواعد عسكرية دائمة في جنوب أوروبة وجنوب–شرق آسيا وفي الشرق الأوسط.

٢. يجب أن تقوم أمريكة بتحديث سلاحها الجوي والبحري وبشكل أوسع يجب تحديث السفن حاملة الطائرات.

٣. يجب تطوير النظام الدفاعي العولمي وتطبيق مشروع حرب النجوم.

٤. يجب السيطرة على الاتصالات الالكترونية ورفع الميزانية الدفاعية من ٣% إلى ٣,٨%.

٥. يجب دعم إسرائيل والدفاع عنها باعتبارها حليفاً استراتيجياً.

إن ما يميز PNAC عن بقية المؤسسات اللوبية التقليدية الأخرى القوى التي صنعته، واحتلالهم للمواقع الحساسة في إدارة بوش الابن. لقد أدركت هذه المجموعة التي حملت حلم "Pax-Americana" لسنين طويلة، وجدت في احتلال العراق للكويت فرصة مهمة. غير أن إصرار بوش الأب على أن يكون حل الصراع العربي الإسرائيلي شرطاً أولياً لإعادة صياغة الشرق الأوسط من جديد، وفرض مؤتمر مدريد عام ١٩٩١ الذي جمع بين إسرائيل والدول العربية لأول مرة، كل هذا أجبر هذه المجموعة على تعليق مشاريعها. لأن هذه المجموعة لا تريد بأي شكل من الأشكال الضغط على إسرائيل كما لا تريد إجبارها على توقيع أية اتفاقية لا تريدها، وقد تم طرح مشروع Pax Americana ، الذي وضع في الخطط الثانوية في عهد الرئيس

كلينتون، على جدول الأعمال من جديد في عهد بوش الثاني. وقد وفرت حادثة ١١ أيلول لهذه المجموعة إمكانيات تاريخية عظيمة.

يعد نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني، ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد، "وأمير الظلام" ريتشارد بيرل الذي يعرف تركيا عن قرب والذي كان عضو مجلس اللجنة الدفاعية في وزارة الدفاع ، من أهم مؤسسي PNAC ، الذي يترأسه Bruce Jackson عضو المجلس التنفيذي لشركة Lockheed للصناعات الدفاعية الأمريكية وهي أكبر الشركات في العالم والذي شغل منصباً حساساً في البنتاغون في عهد الرئيس Reagan. ويتشكل الأعضاء الفعالون في مركز PNAC من السياسيين والجنرالات المتقاعدين الذين أمنوا الدعم المادي والسلاح للأنظمة الدكتاتورية الأكثر دموية في أمريكة اللاتينية والجنوبية. ويعد هذا المركز، الذي يمتلك أكبر ميزانية تقدر بمليارات الدولارات واحداً من المؤسسات اللوبية النادرة التي تتلقى الدعم المالي المباشر من الحكومة الأمريكية. وتأسست عام ٢٠٠٠ لجنة تحرير العراق (CLI) ضمن بنية PNAC . وقد اقتنعت هذه المجموعة بأن الانتصار العسكري على العراق، الذي أنهكته الحصارات الاقتصادية والعسكرية والذي يمتلك إمكانيات نقدية دولية محدودة، سيضيف قوة لمكانة أمريكة، وبأن العراق يشكل بعداً شرق أوسطياً لإيديولوجية Pax-Americana.

وفي المحادثات المنظمة، التي أجرتها مستشارة الرئيس بوش كونداليزا رايز مع أعضاء CLI، تم اتخاذ قرار دعم المؤتمر الوطني العراقي الذي يتزعمه أحمد جلبي بجميع الإمكانيات. وأما الأساتذة المدبرون في PNAC فهم Wolfovitz و Eliot-Abrams والممثل الخاص للرئيس بوش في أفغانستان Zalamy Halizad والكاتب في صحيفة Weekly Standard، William Kristol . يمتلك هذه الصحيفة اليهودي الصهيوني Ruppert Murdoch صاحب محطة تلفزيون Fox الشركة الإعلامية الكبرى. فإن تقرير "الاستراتيجية القومية"، الذي أعلن عنه الرئيس بوش للرأي العام الأمريكي والعالمي بتاريخ ٢٠ أيلول ٢٠٠١ ، هو نسخة طبق الأصل عن المشروع الذي

أعدته منظمة PNAC . لقد أكد Richard Perle في الكلمة التي ألقاها بمركز أقدم منظمة لوبية أمريكية RAND Corporation ، بأن العراق والمملكة العربية السعودية هي المحور ومصر هي الجائزة الأساسية. يدعي Donald – Kagaanأحد أعضاء PNAC بأن القوات الأمريكية لم تنسحب من العراق وأنهم سيؤسسون قواعد دائمة.(٢٨) فإن اللافت للنظر في هذا المجال هو أن أعضاء هذا المركز يتشكلون من الصهاينة اليهود والبروتستانتيين المتعصبين. يعرف الأكاديميون الذين يبحثون التاريخ بطرق علمية الحقيقة ويعرفون أيضاً أن هذا ليس غريباً وليس مجرد مصادفة. هؤلاء هم الممثلون الأسوأ في القرن الواحد والعشرين للمفهوم اليهودي التقليدي والأنغلو-سكسوني العنصري الذي يؤدي دور الرب على الأرض. هؤلاء لا يستطيعون جلب "العدالة" و "الحرية" و "الديمقراطية" إلا أنه وبعبارة شهيرة يستطيعون فقط جلب "أفضل ديمقراطية اشترتها الفلوس". فإذا انتهت مغامرة العراق بخيبة أمل فهناك احتمال كبير على بدء الولايات المتحدة الأمريكية بالعمل على النهب العامودي (الفضائي). فإن الأهمية المعطاة للمعلومات الفلكية والآثار البابلية والسومرية التي تم سرقتها من المتاحف العراقية التاريخية هي دليل على أن اللوبيات بدأت بالتحضير رويداً رويداً في هذا المجال. يقول بعض المؤرخين أنه يجب على الإنسان أن يدفع "بدلاً" لتأسيس مجتمعات "حديثة" و "مثالية" من اجل توفير "التقدم" (!): هل يقتضي هذا "البدل" نفي الثقافات المحلية كلياً عن الوجود؟ هل يستدعي ترقيق ١٠٠ مليون أفريقي؟ هل يجب التضحية بـ٦٠ مليون إنسان للحرب العالمية الثانية؟ هل يجب قتل ٣ مليون فيتنامي حرقاً بقنابل نابالم (Napalm)؟ هل يجب نهب المتاحف العراقية التاريخية وتدمير الآثار التاريخية والدينية النادرة ووحشية سجن "أبو غريب"؟ هل يجب تحويل المدن الفلسطينية إلى سجون جماعية وبناء جدران برلين الجديدة وتهجير ٣ مليون إنسان من وطنهم؟

فيمكن للعراق إما أن يكون بداية لنهاية أو إما أن يشكل حالة للتنبؤ لمستقبل معقد وسيئ.

هوامش ومراجع

(١). كانت إنكلترا تتشكل أساساً من مجموعات Britons (British) و Walsh واسكتلندية وايرلندية (Irish) . تحمل حياتها التجارية والحضارية علامات عميقة للكنعانيين (الفينيقيين) والرومان والنورمانديين (الافرنجة).

اللغات الحاكمة حتى تاريخ ١٣٦٢ ، غير اللغات المختلفة التي استخدمتها الجزيرة هي اللاتينية، اللغة الرسمية لروما منذ القرن الأول والفرنسية، بعد الاحتلال الذي طبقه الملك النورماندي William بعد أن قدم من المنطقة الاسكندنافية قبل سنين طويلة وتمركز في فرنسا عام ١٠٦٦. أصبحت الإنكليزية اللغة الرسمية للبلاد بقرار رسمي اتخذه البرلمان الإنكليزي في عهد الملك الأنغلو- سكسوني Edward الثالث (١٣٢٧-١٣٧٧). وبدأت اللغة الإنكليزية تدريجياً تأخذ مكان اللغة الفرنسية. استخدمت اللاتينية من قبل رجال الدين فقط. بدأ الأدباء المشهورون كأمثال John Wycliffe و John Gover و John Barboer و John Mandevil بكتابة كتبهم الأدبية الهامة في القرن الرابع عشر.

(٢). انظر إلى العمل الأكاديمي المفصل والأكثر واقعية في هذا المجال :

Curtis N. Nettels, *The Roots of American Civilization*; *A History of American Colonial Life*, second edition, Appletown-century – Crofts, New York, 1963.

(٣). يقدم، Howard Zinn المناهض للصهيونية من أصل يهودي والأستاذ في التاريخ بجامعة Boston التي أعطت تعبيراً وبعداً مختلفاً لتاريخ الولايات المتحدة الأمريكية والكاتب الكبير في المجلة الأسبوعية السياسية "Progressive" ، في كتابه *A People's History of the United States* الذي ألفه بتاريخ ١٩٨٠ والصادر عن دار Harper Collins – New York ، معلومات قيمة تتعلق بهذا الموضوع.

(٤). لقد شكل البوريتانيون القطاع الأكثر تحفظاً للمذهب البروتستانتي الذي انشق عن كنيسة روما الكاثوليكية. وكونت قيم العبادة الرسمية للأرستقراطية الإنكليزية.

تحتوي الكلمة على معاني "الصافي" و "النظيف" و "الإيمان النقي". اتخذوا دوراً رئيسياً في الفعاليات الاستعمارية للملكية الإنكليزية في شمال أمريكة. من آثارهم (ولاية فرجينيا) Jamestown . أول مستعمرة تأسست في أمريكة الشمالية بتاريخ (١٦٠٦-١٦٠٧). شغل البوريتانيون الذين قاوموا في عام ١٦٤٠ الملك Charles الأول في تاريخ إنكلترا، مناصب مهمّة في البرلمان الإنكليزي

Oliver Crownwell زعيمهم الأكثر فعالية. أوقعت الجيوش البوريتانية بزعامة Oliver Crownwell

خلال المعارك الداخلية التي استمرت ستة سنوات ضد الملك Charles الأول هزيمة كبيرة بالملك. أعدم الملك في تاريخ ١٦٤٩ . وأعلنت الجمهورية. أقامت الإدارة البوريتانية الجديدة التي استمرت عشر سنوات في البلاد التي أديرت بدون ملك لأول مرة في تاريخها، سلطة الكومنولث "Commonwealth" التي تعني "الثراء العام" أو "الكيان الجامع". اكتسب الاستعمار الإنكليزي مواقع مهمّة في الخارج. شاعت القوانين "الرجعية"، التي طبقت من قبلهم، عدم الامتنان في صفوف الشعب. أخبر البوريتانيون، مع تربع الملك Charles الثاني على العرش عام ١٦٦٠ ، على تقسيم إدارة البلاد مع العائلة المالكة التقليدية. أنظر للتاريخ البوريتاني ومعلومات أكثر إلى

Peter Moss, The Oxford History Project, Oxford University Press, Fifth Impression 2000.

(٥). من أجل تاريخ اليهود الإنكليز انظر إلى:

The History of the Jews in England (1066-1655) by geocities.com

والكتاب المؤلف من قبل David Katz تحت عنوان :

The Jews in the History of England (1455-1850) by walmart.com ، ومن أجل فعاليات اليهود للاستعمار الأوربي في أمريكة انظر إلى المصدر للمؤلف من قبل:

Sandra Cunings Malaned. The Jews in Early America, published by walmart.com, 2004.

وتقييم الحاخام Kenspiro في 2001 The Jews and the Founding of America و

America and the Jewish Values, 2003 published by aish.com ومن أجـــل مفهـــوم "المجموعة المختارة" ,Captain John Smith (1549-1631) :

A Description of New England, 1616, published by Sam S. Basket and Theodore B. Strandness, *The American Identity*, Michigan State University, D.C. Heath and Company, Boston, 1962, 34-36.

(٦). كتب نسبة كبيرة من المؤرخين الغربيين الذين قوموا تاريخ إنكلترا، التاريخ من وجهة نظر الملوك والبارونات ومالكي الأراضي والقراصنة والقـــادة الجيـــوش الأقلام "الواقعية" أشارت إلى هذه الحوادث إلا أنها احتسبت هذه الوقائع الســـلبية (المجازر والإرهاب والهجرة الجبرية والتجاوزات ونفي الحضارات كليـــاً عـــن الوجود) لا بد منها من أجل "التقدم". من أهم ممثلي هذا المفهوم Sameul Elliot Morison *Sea Admiral of the Ocean-* بوسطن، Little، Brown، ١٩٤٢ و Christopher Columbus; the Mariner ١٩٥٤ . كم غريب أنه مازال هذا المفهوم التاريخي يوضع أمامنا كالأرز الفاسد.

(٧) بدأت قبائل الأنغلو- سكسونية الاستيطان في إنكلترا منذ القرن الرابع. وهم مـــن الأصل ال German وال Angliz الذين اتخذوا جغرافية أوروبة الشمالية الغربيـــة مكاناً للعيش. الأنغلو- سكسونيين متمسكين بتقاليـــدهم "القتاليـــة" و "المتزمتـــة" وينتمون إلى خصوصيات "عنصرية". تشكل عملية "الاستيلاء" علـــى منتجـــات الغير، العنصر الأساسي في حياتهم الاقتصادية.

(٨) من أجل التكامل الإيديولوجي فيما بين البروتستانتية البوريتانية والرأسمالية انظر إلى:

R.H. Towney, *Religion and the Rise Capitalism*، لندن، ١٩٢٩ وكتاب *Archiv für Sozialwissenschafund Sozialpolitik* للعالم الاجتماعي الألماني Max Weber، المنشور باللغة الألمانية بتـــاريخ ١٩٠٤-١٩٠٥، والمتـــرجم إلـــى الإنكليزية :

The Protestant Ethics and the Spirit of Capitalism لندن ١٩٣٠، وكتاب

John Calvin, *The Man and his Ethics* لكاتبه Georgia Harkness ، نيويورك ١٩٣١ والذي يعتبر المصدر المهم في مجاله والذي يتحدث عن مذهب Kalvinist الذي يعمل كعنصر جانبي مهم للبوريتانية و يعتبر الرأسمالية ضرورة ربانية. إلى جانب ذلك المقالة التي نشرها A.Whitney Griswold تحت عنوان Three Puritans of Prosperity، The New England Quarterly ، essay ، ١٩٣٤.

(٩). كتب كل من John Winthrop والي الولاية المستعمرة الإنكليزية Massachusetts الواقعة في شمال-شرق أمريكة و William Bradford حاكم قرية Plimouth التابعة للولاية نفسها، ذكرياتهما التي تتحدث عن تلك المرحلة بين أعوام ١٩٣٠-١٩٤٠ . لمعلومات أكثر انظر إلى:

Interpretations of American History لـ Grob and Billias .

(١٠). Zinn, *A People's History of the United States* , 14

(١١). Francis Jennigs, *The Invasion of America; Indians, Colonialism and the* *cant of Conquest* Chapel Hill; University of North Corolina Press, 1975, Zinn, 15 و Grob and Billias, 2-3. .

(١٢). من أجل عمل أكاديمي يخص هذا الموضوع
Gary B. Nash, Red, White and Black; *The People's of early America*, by Prentice-Hall, Inc., New Jersey, 1974 .

(١٣) Basel Davidson, *The African Salve Trade,* by Little Brown, Boston 1961.

(١٤) Gerald Mullin, Flight and Rebellion; Slave Resistance in Eighteenth-Century Virginia, by Oxford University Press, New York, 1974. و
Edmund S. Morgan, American Slavery-American Freedom; the ordeal of colonial Virginia, by W.W. Norton, New York, 1975.

(١٥) هل تدرك الشركات الأمريكية الكبرى التي أعطت أسماء الزعماء والشعوب التي نفتهم بأنها تستحقرهم للمرة الثانية؟ إذ أن مجتمع "Cherokee" يعتبر

المجتمع الأكثر مسالمة والأكثر تحضراً في أمريكة. حيث يُطلق هذا الاسم الذي تم نفي مجتمعه للسيارات الأمريكية من نوع Jeep.

"Pontiac" هو اسم الزعيم التاريخي الذي ألحق الهزيمة للإنكليز لأول مرة وهو الذي وحد القبائل المتفرقة والمنقطعة تحت اسم اتحاد، حيث يطلق اسم هذا الزعيم، الـــذي راح ضحية لعملية مدبرة من قبل الإنكليز، على نوع من سيارات Buick التـــي يـــتم انتاجها من قبل شركة General Motors الشركة الكبيـــرة فـــي صـــناعة الســـيارات الأمريكية.

(١٦) Basket and Strandness , The American Identity, 37

(١٧) Henry Demarest Lolyod, Wealth against Commonwealth, New York, 1894; 517.

(١٨) Mathew Josephson, The Robber Barons; The Great American Capitalists; 1861-1901, New York, 1934. Allan Nevins, Study in Powe; John D. Rockefeller, Industrialist, and Philanthropist المجلـــد الثـــاني ، نيويـــورك، ١٩٥٣. من أجل النقاش الذي دار بين Josephson و Nevins انظر إلى: Should American History Rewritten (هل يجب كتابة تاريخ أمريكة من جديد؟) Saturday Review ٦ شباط ١٩٥٤ .

(١٩). أطلقت عبارة "Patrician" على الطبقة "الأرستقراطية " أو على "الذين جاؤوا من عائلة أصيلة ونبيلة" في روما التاريخية. تأثرت من الحركة "التنويرية" التـــي حدثت في أوروبة. يوجد من بين من دافع عن هذه المدرسة، التي سيطرت على المجالات السياسية والأدبية والاقتصادية الموجودة في أمريكة في القرن التاســـع عشر، المحامون والأطباء والتجار ومالكو الأراضي وأصحاب البنوك والـــولاة والضباط رفيعو المستوى. على كل حال إن الشخص الذي يريد أن يأتي إلى هذا الموقع يجب أن يكون منتسباً إلى الطبقة الأرستقراطية الثرية ويجب أن يكـــون فرداً من الطبقة-الوسط. Thomas Hutchinson والـــي ولايـــة Massachusetts و

William Smith والي نيويورك ومن زعماء "الثورة" الأمريكية George Washington و Benjamin Franklin و Thomas Jefferson و James Madison هم من أهم الشخصيات الممثلة لهذه المدرسة.

(٢٠) George Bankroft: History of the US: from Discovery of the American Continent، المجلد ١٢، ١٨٣٤-١٨٨٢ عن Grob and Billias، ٥.

(٢١). المصدر نفسه، ٦.

(٢٢) شاهدنا محاولات إنكليزية خلال الحرب العالمية الأولى والثانية لإنشاء تحالف سياسي- عسكري أنغلو-أمريكي أما الولايات المتحدة فلم تتحمس كثيراً لهذا الاقتراح الإنكليزي خلال الحرب العالمية الأولى. فهذا الحلم الإنكليزي أصبح واقعياً في عام ١٩٤٧ حيث أرسل رئيس مجلس الوزراء الإنكليزي Churchill رسالة رسمية للإدارة الأمريكية وافقت بموجبها بريطانيا على التنازل التام لأمريكة عن القيادة الدولية. فهذه الظروف الدولية الجديدة ولّدت فرص تاريخية للتعاون القوي الأنغلو- أمريكي.

من أجل معلومات أكثر انظر إلى كتاب المقرر الجامعي " القضايا العالمية المعاصرة" للدكتور محمد يوفا والدكتور محمد حبيب صالح، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٨ . (باللغة العربية).

(٢٣). تكتفي الولايات المتحدة الأمريكية التي خرجت خاسرة من أول مواجهة عسكرية دخلتها بعد "الثورة" مع القوات الإنكليزية، بالتفرج على القوات الإنكليزية عندما أعادت احتلالها مجدداً. وتسقط العاصمة Philadelphia ويضرم الإنكليز النيران بالبرلمان "الكونغرس الأمريكي". وبدلاً من أن تبدي الحكومة الأمريكية "الوطنية" (!) مقاومة ما تسارع إلى الهرب. وفي نهاية هذه الحادثة تعطي الحكومة الأمريكية امتيازات مهمّة للإنكليز. وتنسحب إنكلترا من أمريكة التي تعتبرها "وليدها" بعد أن

تفرض اتفاقياتها الخاصة. ومنذ ذلك التاريخ يبدأ تعاوناً أنغلو-أمريكياً قوياً في كل مشكلة دولية بالرغم من صراع المصالح والاختلافات السطحية.

(٢٤). Walter Prescott Webb, Ended; The 400 Year Boom, "*Reflection on- the age og the Frontier*", Harper's Magazine, vol. CC III (تشرين الأول ١٩٥١) 53-21 ز

(٢٥). Zinn, 290

(٢٦). Howard K. Beale, *Theodore Roosevelt and the Rise of America to World Power*, by McMillian, New York, 1962.

ومن أجل الأهداف الإمبريالية للحرب الأمريكية الاسبانية: Philip Foner, **The Spanish-Cuban- American War and the Birth of American Imperialism**

المجلد الثاني، Monthly Review Press, New York, 1972

(٢٧). Zinn, 353 ، من أجل تفاصيل أكثر:
D.F. Flemings, *The Origins and Legacies of World War I*, by Doubleday, New York, 1986

(٢٨). من أجل البحث الشامل المكتوب لمعطيات ملموسة حول هذا المجال والذي يناقش المشكلة العراقية بأدق التفاصيل:
William Rivers Pitt, ***War On Irak***, by Context Boks, New York, 2003.